شدو الربابة بأحوال مجمتع الصحابة

- السفر الأول -

خليل عبدالكريم

شدو الرّبـابـة بـأحوال مجتـمع الصّحابـة

The Conditions of the Companions' Society

السّفر الأوّل

محمّد والصّحابـة

First Volume

Muhammad & the Companions

خليل عبـد الكريم

Khalīl 'Abd-ul- Karīm

-١٠-

محمّد والصّحابة

خليل عبد الكريم

شدو الرّبابة بأحوال مجتمع الصحابة

السّفر الأوّل

محمّد والصّحابة

سينا للنشر ــ الانتشار العربي

الطبعة الثانية ١٩٩٨

محتويات الكتاب

[Blank Page]

استهلال

تعريف الصحابة

١

بعد ظهور الإسلام أخذت كلمة الصحابة بعداً دينياً؛ وبمرور الزمن غدا لمن يحمل هذا الوصف أو اللقب نوعاً من القداسة لا يتمتع به غيره من المسلمين حتى من التابعين أو خلافهم مهما بلغ شأنه أو شأوه مثل أئمة المذاهب الفقهية؛ وقيل إن واحداً من كبار الأئمة كان يفضل معاوية بن أبي سفيان رغم ما فعله، على عمر بن عبد العزيز المشهور لدى أهل السنة بالعدل والزهد، فلما سُئل عن ذلك كان رده أن يوماً واحداً من صحبة معاوية لمحمد يعدل كل ما عمله عمر بن عبد العزيز من أعمال صالحة هو وأهله (وقال بعضهم في عمر بن عبد العزيز ومعاوية: ليوم شهده مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ خير من عمر بن العزيز وأهل بيته)[1]، رغم أن المقياس هنا لا يوافق عليه محمد الذي أكَّد أن الميزان الدقيق لتقدير الأشخاص هو العمل؛ ولكن من ناحية أخرى صدرت عن محمد أحاديث ساعدت على تمييز الصحابة ووضعهم في مكانة عالية منها:

١ ـــ عن جابر بن عبد الله عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول

الله ــ ﷺ ــ: يأتي على الناس زمان فيغزو فئة من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب رسول الله ــ ﷺ ــ؟ فيقولون نعم، فيفتح لهم)[٢].

٢ ــ (سمعت عبد الله بن بريدة يقول: مات والدي بـ مرو وقبره بالحصن وهو قائد أهل المشرق ونورهم، لأن النبي ــ ﷺ ــ قال: أيما رجل مات من أصحابي ببلدة فهو قائدهم ونورهم يوم القيامة ــ وبريدة هنا هو بريدة الأسلمي ممن بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة.)[٣].

وأكد محمد أنهم خير القرون على الإطلاق.

٣ ــ (عن عبيدة عن عبد الله ــ رض ــ أن النبي ــ ﷺ ــ: قال: خير الناس قرني)[٤]. ويؤيد هذه الرواية.

(رواية بريدة عن أحمد: خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم)[٥]، بل إن هناك رواية أخرى نصت على أنهم خير قرون بني آدم على الإطلاق أي أنهم خير أتباع الأنبياء جميعهم وبالتالي خير ذرية آدم خلا الأنبياء والرسل (وقد سبق في صفة النبي ــ ﷺ ــ قوله: وبعثت في خير قرون بني آدم)[١].

ولكننا نرجِّح أن محمداً كان يعني بهذه الأحاديث وأمثالها الطبقة الأولى من الصحابة وهم الذين آمنوا به وآزروه في أيامه الأولى العصيبة، والذين شهدوا العقبة الأولى والعقبة الثانية (غالبيتهم من الأنصار) والمواقع الحاسمة مثل بدر الكبرى وأُحد، وأهل بيعة الرضوان، لا جميع الصحابة، لأننا سوف نرى أن هناك مَنْ يذهب إلى أنه: كل من رأى محمداً وهو مسلم بالغٌ أو مميِّز أو صحبه ولو ساعة من نهار أو ليل يعتبر صحابياً يستحق حمل اللقب، ودليلنا على أن محمداً كان يقصد الرعيل الأول من أصحابه، الأحاديث التالية:

أ ــ (عن عبد الله بن أبي أوفى ــ رض ــ قال: شكى عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد ــ رض ــ إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال النبي ــ ﷺ ــ يا خالد لا تؤذِ رجلاً من أهل بدر، فلو أنفقت مثل أُحد ذهباً لم تدرك عمله، فقال (= خالد): يقعون فيَّ فأرد عليهم، فقال: لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبه على الكفار.)(٧).

ب ــ (عن الحسن قال: كان بين عبد الرحمن بن عوف وبين خالد بن الوليد ــ رض ــ كلام فقال خالد: لا تفخر عليّ يا ابن عوف، بأن سبقتني بيوم أو يومين فبلغ ذلك النبي ــ ﷺ ــ فقال: دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما أدرك نُصيفهم، قال فكان بعد بين عبد الرحمن والزبير شيء فقال خالد: يا نبي الله نهيتني عن عبد الرحمن وهذا الزبير يسابه فقال: إنهم أهل بدر وبعضهم أحق ببعض)(٨).

وخالد بن الوليد من الصحابة بإجماع ولكنه لم يكن من السابقين الأولين إذ أسلم قبيل فتح مكة، ومع ذلك مَيّز محمد بينه وبين صحابه، وقوله (لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما أدرك نصيفهم) ينصرف في رأينا إلى السابقين الأولين فحسب؛ ولكن مع ذلك فإن لقب الصحابي أضفى على من يحوزه مكانة عالية حتى إن صحابياً فعل أفاعيل يشيب منها رأس الوليد ــ كما سنذكر فيما بعد ــ رُوي عنه أحد أصحاب السنة حديثين:

(حتى بُسر به أرطأة مع ما عرف عنه روى حديثين رواهما عنه أبو داوود وغيره لأنهم (= الصحابة) معروفون بالصدق على النبي ــ ﷺ ــ حفظاً من الله لهذا الدين ولم يتعمد واحد الكذب على النبي ــ ﷺ ــ إلاَّ هتك الله ستره وكشف أمره)(٩)؛ والتعليل الذي ذكره ابن تيمية يؤكد ما

نذهب إليه من ارتفاع قدر الصحابة في عيون أهل الإسلام مع ملاحظة أن هذا الارتفاع يزداد كلما تطاول الزمن.

٢

بعد هذا المدخل السريع، نأتي لتعريف الصحابة:

هذا التعريف كان موضع خلاف واختلاف كبيرين، لم يحظ لفظ أو تعريف بمثلهما، والخلاف والاختلاف لم ينشبا بين المُحدثين والأصوليين فحسب ولكن بين علماء كلٍ وبين علماء علوم دينية أخرى مثل الفقهاء والمفسرين.. الخ.

ونبدأ بـ:

١ ــ المحدثون:

الصحابي عندهم كل مَنْ رأى رسول الله ــ ﷺ[١٠] ــ أما البخاري فيذهب إلى أنه (مَنْ صحب النبي ــ ﷺ ــ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه)[١١] في حين أن أحمد بن حنبل يرى أن (كل من صحبه سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه)[١٢] ويربط ابن الصلاح بين صفة الصحابة وبين التحديث أي رواية الحديث فيقول (بلغنا عن أبي المظفر السمعاني المروزي أنه قال: أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابة على كل من روى عنه حديثاً أو كلمة)[١٣] ولكنه بعد ذلك يضيف (ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية (فهو) من الصحابة وهذا لشرف منزلة النبي ــ ﷺ ــ أعطوا كل من رآه حكم الصحابة)[١٤] ولكن هناك من يرى ضرورة الجمع بين الرؤية والرواية (وقال آخرون لا بد من إطلاق الصحبة مع الرؤية أن يروي حديثاً أو حديثين)[١٥]؛ ولكنَّ سعيد بن

المسيب له رأى آخر: (الصحابة لا نعدهم إلاّ مَنْ أقام مع رسول الله ــ ﷺ ــ سنة أو سنتين وغزا معه غزوةً أو غزوتيْن)[١٦] ويشترط الواقدي إدارك الحلم إذْ قال: (ورأيت أهل العلم يقولون: كل من رأى رسول الله ــ ﷺ ــ ولو ساعة من نهار)[١٧] ولكن هذا التعريف لا يلقى قبولاً لأنه يخرج عدداً من الصحابة يعز على المسلمين ألا يتمتعوا بهذه الصفة منهم: الحسن والحسين وعبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم لأنهم لم يدركوا الحلم في حياة محمد وبعضهم روى العديد من الأحاديث ولذلك قال العراقي (والتقييد بالبلوغ شاذ)[١٨]. أما ابن كثير فيرى أن (الصحابي مَنْ رأى رسول الله ــ ﷺ ــ في حال إسلام الراوي وإن لم تطل صحبته وإن لم يرو عنه شيئاً، هذا قول جمهور العلماء خلفاً وسلفاً قد نص على أن مجرد الرؤية كاف في إعلان الصحبة: البخاري وأبو زرعة وغير واحد ممن صنف في أسماء الصحابة)[١٩].

إما ابن حجر العسقلاني صاحب (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ففي نطاق تعريف الصحابي قال (أصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي: مَنْ لقى النبي ــ ﷺ ــ مؤمناً به ومات على الإسلام فيدخل فيه من لقيه، من طالت مجالسته أو قصرت ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغزُ، ومن رآه رؤية ولم يجالسه ومَنْ ولم يره لعارضَ)[٢٠] كالعمى أو ضعف البصر. ثم يبين (أنه يدخل في قوله مؤمناً به: كل مكلف من الجن والإنس وإنه يخرج من التعريف من لقيه كافراً... وهذا التعريف مبنى على الأصح المختار من المحققين)[٢١].

أما الحافظ محيي الدين النواوي فيؤكد الاختلاف على التعريف وينتهي إلى أن (المعروف عند المحدثين أنه كل مسلم رأى رسول الله ــ ﷺ ــ)[٢٢]؛ ويشرح السيوطي هذا التعريف بتوسع ويورد في ثنايا

شرحه الاختلاف حول شرط البلوغ ثم يقرر أنه (لا يشترط البلوغ على الصحيح وإلا لخرج من أجمع على عده في الصحابة ك: الحسن والحسين وابن الزبير وغيرهم)[٢٣] ولكنه اشترط في الرؤية أن تكون في عالم الشهادة لا في عالم الغيب كمن رآه من الملائكة والنبيين (في الإسراء والمعراج) ولكنه توقف عند الجن إذ (قد استشكل ابن الأثير مؤمنى الجن في الصحابة دون مَنْ رآه من الملائكة والنبيين وهم أولى بالذكر من هؤلاء، قال: وليس الأمر كما زعم لأن الجن من جملة المكلفين الذين شملتهم الرسالة والبعثة فكان ذكر مَنْ عرف اسمه ممن رآه حسناً بخلاف الملائكة)[٢٤] أي أن مِنْ رأيه أن مؤمني الجن الذين رأوا محمداً يعتبرون من الصحابة لأنهم من جملة المكلفين بخلاف الملائكة الذين رأوه لأنهم غير مكلفين.

ويؤكد شذوذ الواقدي في اشتراط البلوغ؛ ثم تحدث عن عدالة الصحابة وما حدث بينهم من فتن وهل يؤثر ذلك في عدالتهم، وهذا يخرج عن مجال كتابنا هذا لأن مسألة العدالة تتعلق برواية الحديث ونحن نتناول الصحابة كفاعلين اجتماعيين مشاركين في التجربة الإسلامية التي انبثقت في الربع الأول من القرن السابع الميلادي وعن مدى الهالة اللدنِّية التي أحاطت بهم والهالة القدسانية التي توجتهم.

ثم نثني بـ:

٢ ــ الأصَوليين:

(وعن أصحاب الأصول أو بعضهم أنه (= الصحابي) مَنْ طالت مجالسته عن طريق التبع)[٢٥] هذا قول النواوي ويقوم السيوطي بشرحه (البتع له والأخذ عنه بخلاف من وفد عليه وانصرف بلا مصاحبة ولا

متابعة، قالوا: وذلك معنى الصحابة لغةً ورد بإجماع أهل اللغة أنه مشتق من الصحبة لا من قدر مخصوص وذلك يطلق على كل مَنْ صَحِبَ غيره قليلاً كان أو كثيراً يقال: صحبت فلاناً حولاً وشهراً ويوماً وساعة، وقول المصنف (= النواوي) أو بعضهم من زيادته لان كثيراً منهم موافقون لما تقدم نقله من أهل الحديث، وصححه الآمدي وابن الحاجب وعن بعض أهل الحديث موافقة ما ذكر عن أهل الأصول)[٢٦].

القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني واحد من أعلام المتكلمين لدى أهل السنة والجماعة وهو تابع للأشعري في منحاه الكلامي أما مذهبه الفقهي فمالكي، وعاش في القرن الرابع الهجري وتوفى في أوله وتتلمذ في علم الكلام على أصحاب الأشعري مثل الباهلي وابن مجاهد وتصدى لمخالفي أهل السنة مثل المعتزلة والمجسّمة والروافض ولذا أطلق عليه بعضهم مجدد القرن الرابع (الهجري)، (قال أبو بكر الباقلاني ٣٣٨/ ٤٠٣هـ بعد أن عرّف الصحابة لغة: وكذلك يُقال: صحبت فلاناً حولاً ودهراً وسنةً وشهراً ويوماً أو ساعةً وذلك يوجب في حكم اللغة لإجراء هذا على مَنْ صحب النبي ولو ساعة من نهار، وهذا هو الأصل في اشتقاق الاسم، ومع هذا فقد تقرر للأمة عرف في أنهم لا يستعملون هذه التسمية إلاّ فيمن كثرت صحبته واتصل لقاؤه، ولا يجرون ذلك على مَنْ لقيه ساعة ومشى معه خُطاً وسمع منه حديثاً فوجب لذلك ألا يجرى هذا الاسم في عرف الاستعمال إلاّ على مَنْ هذه حاله)[٢٧].

ونأتي لرأي أصولي آخر هو الشيخ سيف الدين الآمدي (٥٥١/ ٦٣١هـ) أي من علماء القرنين السادس والسابع الهجريَّيْن ولد في مدينة آمد وتوفي في دمشق، بدأ الفقه حنبلياً وانتهى شافعياً وبرع في الأصولين

وترك مؤلفات تبلغ العشرين منها (الإحكام في الأصول الأحكام) وعنه ننقل في تعريف الصحابي (والجواب عن الشبهة الأولى أنَّا لا نسلم أن اسم الصاحب لا يطلق إلاّ على المكاثر الملازم ولا يلزم من صحة إطلاق اسم الصاحب على الملازم المكاثر في الصور المستشهد بها امتناع إطلاقه على غيره بل يجب أن يقال بصحة إطلاق ذلك على المكاثر وغيره حقيقة نظراً إلى ما وقع به الاشتراك نفياً للتجوز والاشتراك من اللفظ وصحة النفي إنما كان لأن الصاحب في أصل الوضع وإن كان لمن قلَّت صحبته أو كثرت غير أنه في عرف الاستعمال لمن طالت صحبته).[٢٨]

فهنا نرى الآمدي بعد أن ناقش المناحي كافةً في التعريف انتهى إلى ضرورة توافر شرط «طول الصحبة» شأنه في ذلك شأن أضرابه من الأصوليين من الطائفتين: أصول الدين وأصول الفقه.

ولكن ما هي مدة «طول الصحبة» التي يشترطها أصحاب الأصول؟

(مسألة عند جمهور الأصوليين: مسلم طالت صحبته مع النبي ــ ﷺ ــ متبعاً إياه والأصح عدم التحديد للطول وقيل سنة أو غزوة وعلى هذا يخرج حسان بن ثابت وجرير بن عبد الله البجلي مع أنهما صحابيان بالإجماع فإن حسّاناً لم يغزُ مع رسول الله ــ ﷺ ــ وجريراً أسلم قبل موته ــ ﷺ ــ بأربعين يوماً)[٢٩].

٣

نخلص من ذلك إلى أن الاختلاف بين المحدثين والأصوليين حول طول الصحبة مردُّه إلى أن المحدثين يتساهلون في هذا الشرط لأن تطبيقه سوف يضيق دائرة حاملي حديث محمد، لأن مَنْ جلس معه ولو ساعة وروى عنه حديثاً إذا أنزلنا عليه شرط الأصوليين فهو ليس بصحابي ولا

تجوز رواية الحديث عنه، ولا شك أن من بين الألوف الذين رأوا محمداً أو صحبوه، قليل منهم مَن يوصف بأنه صحابي إذا وزنَّاه بمعيار الأصوليين وهو المكوث معه سنة أو شهوده غزوة معه، فلنضرب مثلاً بـ حسان بن ثابت، فالحس الإسلامي ينفر تمام النفور إذا أخرجناه من جمهرة الصحابة وسوف ينبري إليك مَنْ يسألك محتجاً أو يحتج متسائلاً: كيف لا يكون شاعر الرسول صحابياً؟

ولكنَّ الأصوليين هم الذين وضَّحوا القواعد التي بني عليها الدين والفقه وشرحوا أحكامها ويذا يهمهم في المقام الأول أن يكون طريق نقل السنة (المصدر الثاني) مأموناً موثقاً، ومن ثم اشترطوا طول الصحبة إذ مَنْ سمع من محمد حديثاً في ساعة زمن لا يكون بداهة مُطلعاً على كل ما قاله محمد في هذه الخصوصية في مناسبة أخرى مثل إطلاقه حديثين في ادخار لحوم الأضاحي: الأول يمنعه والآخر يبيحه، ولا يعلم صدور الحديثين منه إلاّ مُلازمه وأيا كان الأمر فنحن لسنا طرفاً في هذا الخلاف القديم بين أصحاب الحديث والأصوليين، لأن كتابنا يتناول الصحابة كفاعلين اجتماعيين مشاركين في التجربة الإسلامية التي بدأت على يد محمد في الربع الأول من القرن السابع الميلادي في غرب شبه جزيرة العرب، والتي ما زالت (= التجربة الإسلامية) توابعها وآثارها مستمرة ممتدة والتي ما طفقت ورغم مضي أربعة عشر قرناً تثير الكثير من الجدل والحوار والبحث والتمحيص والدراسة وليس في هذا أدنى عجب فهي من أغنى التجارب التي ظهرت على طول تاريخ الجنس البشرى.

* * *

وهناك ملحظ شديد الأهمية لم يتنبه إليه كل مَنْ كَتَبَ عن الصحابة منذ عصر التدوين حتى الآن وهو أنَّ الصحابة من بيئات مختلفة وأصول

متباينة وذوو ثقافات متعددة (نعني بالثقافة معناها الواسع كما هي في علم الاجتماع) فمنهم العربي والرومي والفارسي والحبشي والقبطي (= المصري) وفي نطاق العرب منهم القرشي والثقفي والأوسي والخزرجي.. الخ وحتى في القبيلة الواحدة تتعدد منازلهم فمنهم مَنْ هو في الذؤابة العليا منها مثل بني هاشم وبني أمية وبني مخزوم وبني المغيرة ومَنْ هو أقل شأنا مثل بني تيم وبني عديّ؛ منهم الغني بالغ الثراء والفقير المملق ومنهم الحر والعبد المملوك والمولى والحليف، ومنهم الحضري والبدوي، ومنهم العربي والأعرابى ومنهم الذي كان يجيد القراءة والكتابة والأمي ومنهم التاجر والزارع ومن يمتهن حرفة يدوية مثل الجزارة والنجارة والحدادة والخياطة، ومنهم من كان متحنفاً أو يهودياً أو مسيحياً ومَنْ كان كاهناً أو سادن صنم، ومنهم من اعتنق الإسلام عن إخلاص وحماس ومَنْ فعل ذلك خضوعاً لأمر واقع أو اتفاقاً أو انتهازاً لفرصة أوسع أو فراراً من مصير مجهول، خاصة بعد فتح مكة وانتصار محمد وصيرورته (سيد الناس وديّان العرب) حسب تعبير الأعشى الشاعر.

إذن من التبسيط المخل والخفة البعيدة عن الموضوعية والعلمية بل والتاريخية النظر إلى الصحابة باعتبار أنهم مجموعة مجردة خارجة عن نطاق التاريخ، وفوق الزمان والمكان؛ أو أنهم عُصبة موحدة يتطابق ويتماثل أفرادها تطابقاً تاماً وتماثلاً كاملاً، لا فرق بين أحدهم والآخر، أو أنهم منزهون عن النوازع البشرية ومبرّؤون من العواطف الإنسانية.

هذا خطأ مبين في تقييم الصحابة، حتى إن محمداً نفسه حذّر منه وأوضح أن منهم مَنْ سيحيد عن الطريق المستقيم الذي رسمه لهم وأنه في يوم القيامة سوف يتبرأ ممن يفعل ذلك ويقول له: سحقاً.

وهم أنفسهم عرفوا ذلك عن أنفسهم وصرَّحوا بذلك علانية على رؤوس الأشهاد دون مواربة أو جمجمة ولم يدّعوا لأنفسهم العصمة والبراءة من الأخطاء وكيف يفعلون وقد سمعوا محمداً يردد كثيراً: كل بني آدم خطاء. فهذا أبو بكر بن أبي قحافة يعترف بأن شيطاناً يعتريه بين الحين والآخر، كناية عن احتمال وقوع أخطاء منه في بعض الأوقات وعمر بن الخطاب يطلب من المحكومين (يسمونهم الرعية) أن يقوّموه إذا اعوجَّ، أي أن اعوجاجه أمر وارد.

فما دام محمد صرَّح ببشريتهم وتنبأ بانحراف بعضهم حتى إنه في الدار الآخرة سيقول له مواجهة: سحقاً لك، وهم أنفسهم لم يزعموا أن لهم عصمةً أو قداسةً إذن فما الذي يدعو إلى التمسك بالنظرة التجريدية لهم والتي هي بلا جدال تخالف طبائع الأمور وما سجلته دواوين السنة النبوية وغيرها من الكتب التي تلقتها الأمة بالقبول.

إنَّ تحليل شخصيات الصحابة وأشخاصها وأصولهم ومنابتهم ومكانة كل منهم والبيئات الاجتماعية التي نشأوا فيها وعقائدهم السابقة وأماكن تربيتهم من بدو أو حضر وثقافاتهم والنظم والقيم والأنساق الاجتماعية التي قضوا ردحاً طويلاً من عمرهم فيها قبل أن يلاقوا محمداً ويدخلوا دينه والحرف التي مارسوها والأساطير التي ظلوا شطراً عن أعمارهم يؤمنون بها... إلخ وتأثير ذلك في كيفية روايتهم لأحاديث محمد، خاصة وأن جانباً كثيراً من هذه الأحاديث اعتمد على الرواية الشفاهية مع تسليمنا أن بعضاً منها كان يكتب حتى في حياة محمد نفسه، ولكن لا شك أن الغالبية العظمى من الأحاديث كان طريق نقلها من الشفاه إلى الآذان، وتأثير تلك الأحوال التي ذكرناها في علاقاتهم مع محمد ثم في علاقاتهم مع بعضهم البعض، ثم الأفعال التي ارتكبها

البعض خاصة في الغزوات حتى أن محمداً نفسه كان يغضب منها ويرفع ذراعيه حتى يرى بياض إبطيه ويقول في حسرة وألم (اللهم إني أبرأ إليك مما فعل فلان) أو يدعو على آخر أو يعنّف الثالث وقلنا (في الغزوات) على وجه التخصيص لأنهم تعوَّدوا على تلك الأفعال في الغزوات التي كانوا يشنونها على بعضهم البعض وفيها كانوا يفعلون الأفاعيل حتى صارت لهم إلفاً وعادة، وعلم النفس يخبرنا أن التخلص من العادات من أعسر الأمور وأشقها على النفس.

نعود فنقول إنَّ تحليل ذلك يحتاج إلى كتيبة كاملة من الباحثين والدارسين في شتى العلوم الإنسانية.

ونحن في هذا الكتاب لا ندّعي أننا قمنا بهذا التحليل ولا حتى اقتربنا منه إنما كل ما تسنى لنا أننا عمدنا إلى إلقاء بعض الأضواء الكاشفة التي تنير الطريق أمام التحليل الذي اقترحناه آنفاً والذي نؤمن تماماً أنه ــ طال الزمن أو قصر ــ سوف يأتي جيل من الباحثين والدارسين وينجزه ويكمل المسيرة التي بدأناها بهذا الكتاب الذي نعرف جيدا أنه كمحاولة رائدة لا بد أن يحمل في طياته سمات المحاولات الأولى من أخطاء وقصور ولكن يكفينا شرف المحاولة.

* * *

وتتيح لنا فكرة المناداة بتحليل أوضاع الصحابة طبقاً للمعطيات التي طرحناها وغيرها الفرصة لنخط سطوراً قليلة في مسألة (تجديد الفكر الديني) التي كثيراً ما لاكتها الألسنة وأريق في كتابتها فيضان من الحبر، ولكن دون الوصول إلى حلٍ أو دواءٍ ناجع.

في البداية ننبه إلى أننا نعالج الفكر، لا الدين، ونكتب عن تجديد أو

تحديث الفكر الديني لا عن تجديد الدين أو تحديثه، وذلك حتى نقطع الطريق على المزايدين؛ فنحن نعلم أن القرآن حدثنا عن إكمال الدين وإتمام النعمة؛ أما الفكر الديني فلم يدّع أحد أنه كمل أو تم لأنَّه نشاط بشري فهو كأي نشاط بشري موضع نقص وقصور ويحتمل النقد والجرح والتوهين والتهزيل (من الهزال) ومن هنا يحتاج إلى الجديد والتحديث والتطوير والإصلاح والترميم والتثوير إلخ. والذين تناولوا مسألة التجديد كتابةً وتأليفاً ومحاضرةً لم يكن ذلك غائباً عن أذهانهم ولكن بعضهم ــ إذ يلف ويدور ويحاور ويناور، والبعض يعمد إلى الغطرشة[٣٠]، أما الفريق الثالث فهو يدَّعي التحررية والعقلانية والليبرالية ويتظاهر بها ولكنه لا يطبقها ويحجم عن السير في طريقها، أي أنه يرفع الشعار ولا يجرؤ على تنفيذه؛ والأسباب الكامنة وراء تلك الأساليب لا تحتاج إلى إبانة ويخرج من نطاق بحثنا الخوض فيها، إنما الذي يهمنا أن نؤكده هو أنها جميعها تتغافل عن عمد عن نقطة بالغة الخطورة: هي أن المنطلق الصحيح لأي تجديد للفكر الديني هو قراءة التراث الديني بعيون مفتوحة وعقول يقظة مع نزع غشاوات التقديس والتعظيم وتغليب النزعة الناقدة على النزعة التسليمية المنقادة وذلك لنتمكن من وزن الأمور وزناً صحيحاً وتقديرها تقديراً صائباً للتعرف إلى (أنباء الأمور الصحائح) كما قال أبو العلاء المعرى.

وسيادة النزعة التسليمية وبقاء الغشاوات التي ذكرناها آنفاً من أهم العلل في صدور كتابات التبجيل والتفخيم التي يتميز بها الفكر الإسلامي المعاصر بل عن أصحابه يتنافسون فيما بينهم على عبارات الإكبار والإعظام والنتيجة المحتومة هي أن هذا الفكر يراوح مكانه ولا يتعداه وبدلاً من تجديد الفكر يتم تحنيطه وتيبيسه (من اليبس).

* * *

إننا نعارض بشدة الأساتذة والأكاديميين الذين يطلقون على مؤلفات التراث الديني صفة (الكتب الصفراء) ونرى أنه رأي فطير لا يمت إلى العلمية بأدنى صلة، فهذه (الكتب الصفراء) تمثل شطراً كبيراً من ذاكرة الأمة ورصيدها الفكري ومخزونها الثقافي وإذا حكمنا عليها بالإعدام فنحن بذلك نقضي على ذاكرة الأمة ونخرب عقلها ولا تعيش أمة بغير عقل وبدون ذاكرة؛ إنما المنهج القويم في اعتقادنا أن نعكف على هذه (الكتب الصفراء) قراءة واعية ودراسة متأنية وتمحيصاً دقيقاً لتظهر لنا من بين هذا الركام الهائل الصورة الصحيحة التي تضافرت عوامل كثيرة إبان عصور التخلف والانحطاط على طمسها.

وفي خصوصية الدراسة التي نتناولها نتعرف من مطالعة تلك (الكتب الصفراء) إلى الوجه الحقيقي لجيل التأسيس أو التدشين؛ أوَّلِ مَنْ سمع محمداً وهو يتلو القرآن عليه ويخاطبه بالأحاديث أو بالسنة عموماً (قولاً وفعلاً وتقريراً أو سكوتاً) الجيل الذي شارك محمداً في التجربة الإسلامية التي فجَّرها وساهم معه في تجسيمها، إن معرفة هذا الجيل على حقيقته التي سجلتها بدقة تامة موسوعات التراث الديني أو (الكتب الصفراء) مثل: دواوين السنة ومؤلفات السير والتواريخ وكتب التفسير والطبقات والفقه... الخ أمر في الذروة القصوى من الأهمية لأن هذا الجيل هو الذي عايش التجربة بحلوها ومرها ورخائها وشدتها وقطف ثمارها الجنية الشهية وتمتَّع بخيرها، ثم نقل التجربة إلى التابعين.

وقد عاش هذا الجيل على قيد الحياة بعد وفاة محمد بضعة عقود من السنين إذ أن بعضهم جاوز التسعين وقيل إن فيهم مَنْ بلغ المائة وإذا كان محمد قد قطع من عمر التجربة أقل من ربع قرن فإنّ هذا الجيل استمر

ثلاثة أضعاف تلك المدة، وإذا كان محمد بعد إعلان الديانة الإسلامية لم يغادر منطقة الحجاز باستثناء شهوده غزوة تبوك التي قاربت تخوم الشام فإن الصحابة ساحوا في أرجاء الامبراطورية الإسلامية كافة ولم يتركوا بقعة منها إلاَّ نزلوها، وهكذا كان ميدان نشاطهم وسيعاً فسيحاً ما أضاف إلى التجربة مزيداً من الثراء والحيوية والتنوع؛ إنَّ هؤلاء الصحابة يمثلون البداية الأولى للتجربة الإسلامية التي حفلت بالبكارة والنضارة والتوهج والإثارة وحققت أروع تغيير شهدته المنطقة من الذلة والخمود والاستكانة إلى الانتفاضة والعزة فالسيادة على معظم أجزاء العالم المعروف آنذاك!! فكيف لا تكون هذه البداية المدهشة بل المحيرة جديرة بالبحث والدراسة؟؟

[Blank Page]

المصادر والهوامش

١ ــ **الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث** ابن كثير/ أحمد محمد شاكر ص ١٥٣ ــ الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م دار التراث بمصر.

٢ ــ **صحيح البخاري** الحديث رقم ٣٦٤٩ من كتاب **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** لابن حجر العسقلاني ــ كتاب **فضائل الصحابة** المجلد السابع تحقيق محب الدين الخطيب وآخرين ــ الطبعة الثانية ١٣٨٠هـ/ ١٤٠٥هـ المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر.

٣ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ــ تحقيق عباس محمد البجاوي المجلد الأول ص ١٨٦ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م دار الجيل بيروت.

٤ ــ **صحيح البخاري** الحديث رقم ٣٦٥١ من **فتح الباري** مصدر سابق.

٥ ــ **فتح الباري** لابن حجر العسقلاني ــ المجلد السابع ــ ص ٨ مصدر سابق.

٦ ــ **المصدر نفسه** والصفحة عينها.

٧ ــ رواه الطبراني في **الصغير والكبير** باختصار وقال الهيثمي: رجال الطبراني ثقات. وأخرجه ابن عساكر وأبو يعلي ــ كما في **الكنز**. وابن عبد البر في **الاستيعاب**. نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** لـ محمد يوسف الكاندهلوي. الجزء الثاني ــ ص ٢٣٩ ــ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، دار الوعي/ حلب.

٨ ــ أخرجه ابن عساكر. وأخرجه أحمد عن أنس ــ رض ــ بنحوه مختصراً. وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح. نقلاً عن **حياة الصحابة** ذات الجزء ونفس الصفحة ــ مصدر سابق.

٩ ــ **منهاج السنة النبوية** أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني ــ الجزاء الأول ــ ص ٢٢٩ ــ مصور من الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ــ ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٢٢ هجرية ــ دون دار نشر.

١٠ ــ **مقدمة ابن الصلاح** نقلاً عن كتاب **السنة قبل التدوين** د. محمد عجاج الخطيب ــ الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ــ دار الفكر بـ مصر.

١١ ــ **صحيح البخاري**.

١٢ ــ **الكفاية وتلقيح الفهوم** نقلاً عن **السنة قبل التدوين** مصدر سابق.

١٣ ــ **مقدمة ابن الصلاح، وفتح المغيث** ــ نقلاً عن المصدر السابق.

١٤ ــ **المصدر السابق.**

١٥ ــ **فتح المغيث، والباعث الحثيث** نقلاً عن المصدر السابق.

١٦ ــ **الكفاية، والباعث الحثيث** نقلاً عن المصدر السابق.

١٧ ــ **تلقيح فهوم الآثار، والكفاية، وفتح المغيث** نقلاً عن السابق.

١٨ ــ **فتح المغيث** نقلاً عن المصدر السابق.

١٩ ــ **الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث** ــ الحافظ ابن كثير ــ أحمد محمد شاكر ص ١٥١، ص ١٥٣ ــ الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ــ دار التراث بمصر.

٢٠ ــ **المصدر السابق** هامش الصفحة نفسها.

٢١ ــ **المصدر السابق** هامش الصفحة نفسها.

٢٢ ــ **تدريب الراوي في شرح تقريب المناوي** للسيوطي تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف الجزء الثاني ــ الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م مكتبة دار التراث بمصر.

٢٣ ــ **المصدر السابق** ص ٢٠٨.

٢٤ ــ **المصدر السابق** ص ٢١٠.

٢٥ ــ **المصدر السابق** ص ٢٠٩.

٢٦ ــ **المصدر السابق** نفس الصفحة.

٢٧ ــ **الكفاية وفتح المغيث** نقلاً عن كتاب **السنة قبل التدوين** سابق.

٢٨ ــ **الإحكام في أصول الأحكام** سيف الدين الآمدي ــ الجزء الثاني ص ٨٢/ ٨٣ ــ طبعة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م نشر مؤسسة الحلبي وشركاه بمصر.

٢٩ ــ **فواتح الرحموت يشرح مسلم الثبوت** لـ عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري ــ المجلد الثاني ــ ص ١٥٨ دون تاريخ نشر ــ د. ت. ن. دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ على هامش كتاب **المستصفى من علم الأصول** للغزالي، مصور من الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق المحمية ١٣٢٤هـ.

٣٠ ــ في معاجم اللغة ــ **الغطرشة:** التعامي عن الحق.

توطئة

لماذا «الصحابة»؟

كلمة «الصحابة» مألوفة لدى القارئ، وسنتناول تعريفها وما ثار حوله من خلاف فيما بعد؛ ولكننا نبدأ بهذا السؤال: لماذا أطلق عليهم هذا الوصف أو هذا اللقب؟ لماذا لم يوصفوا أو يلقبوا ب الإخوان أو الأصدقاء، أو الأخدان أو الأخلاء أو الحَوَاريين؟ في رأينا أنه سؤال على درجة متميزة من الأهمية ولم يسبق لأحد من الدارسين أو الباحثين أن أثاره بل جميعهم يأخذ اللقب أو الصفة حجة مسلَّمة، وقبل أن نجيب عنه نقرر أن أي وصف تتعاضد عدة عوامل على تحديده وفي مقدمتها بالطبع اللغة التي يلوكها أفراد المجتمع والبيئة التي يعيشون فيها ودرجتها في سلَّم الرقي أو الانحطاط الحضاري، ونوعها، فالبيئة البدوية الصحراوية تنتشر فيها نعوت مغايرة لنعوت البيئة الزراعية التي يعيش أهلها على ضفاف الأنهار حتى مع اتحاد اللغة بينهما، وتوصيفات البيئة الصناعية مختلفة عن مثيلاتها في البيئة التجارية وهكذا...

ولكن هناك عامل فاعل في تحديد الكلمة الواصفة أو الوصف الملفوظ هو الدلالات الحافَّة التي توحي بما لا توحي به الكلمة الأخرى التي تعطي الوصف عينه، وتلقي ألواناً وظلالاً تساعد على إبراز المعنى

بحيث لا يخطئه السامع (نقدم هنا السامع على القارئ) لأنَّ هذه العملية بدأت أوّل ما بدأت في المجتمعات ذات الثقافة الشفهية وبعدها انتقلت ولو بدرجة أقل ــ إلى المجتمعات صاحبة الثقافة الكتابية ثم تقلصت في المجتمعات صاحبة الثقافة الطباعية (من الطباعة) وخاصة ذات الطرق الحديثة أو ما بعد الحديثة مثل «الحاسُوب».

لتوضيح ما سطرناه آنفاً عن صلة الدلالات الحافَّة بالوصف نضرب مثلاً سريعاً: إذا قيل عن امرأة إنها «جميلة» فهم السامع أن أجزاء وجهها متناسبة وأن بقية أعضاء جسمها متناسقة وإذا وصفت أخرى أنها «وضيئة» انصرف الذهن إلى البياض ــ بياض البشرة وخاصة الوجه ــ والنقاء والصفاء من الشوائب والكدر إذ بين الوضاءة والضوء علاقة ومنها الوضوء السابق على الصلاة والذي ينقّي الأعضاء مما علق بها من درن...

أما إذا تحدث الناس عن امرأة أنها «مُلاّحة» فهي التي تأسر القلب وتأخذ بمجامع الفؤاد ولا صلة لهذا الوصف بالمقاييس الجسدية بل هو ينصرف إلى النواحي النفسية أو المعنوية ويعبر عنه في اللهجة المصرية العامية بـ «خفة الدم»... ففي معاجم اللغة مَلُحَ الشيء ظرف وسَهُل وحَسُن والأصل في الوصف «الملح» الذي يعطي الطعم المستساغ لما يُؤْكَل. إذن ما يعطيه وصف لا يعطيه بالضرورة وصف آخر ولو في المجال نفسه.

وعلى ضوء هذه التوطئة السريعة أو الفرشة الخاطفة نحاول الإجابة عن السؤال الذي طرحناه: لماذا «الصحابة» بالذات أو حصراً أو تحديداً؟ لتتضح أو تبرز أو تبين الإجابة الصحيحة لا بد لنا في البدء أن نحوّم حول الأوصاف النديدة أو الشقيقة أو النظيرة ونقترب من تُخومها، وإذا

استطعنا أن نخترقها ونحللها فإن ذلك سوف يمدنا بزاد وفير في تبيان الفروق الدقيقة للغاية التي منعت أو حالت دون إطلاقها على أتباع محمد الأولين ومن ناحية أخرى حتَّمت اختيار لفظ الصحابة، ونبدأ بـ:

الإخوان

أ

أكثر ما يستعمل هذا اللفظ في دائرة الأقران والأصدقاء أما لفظ «الإخوة» ففي العلاقة الطبيعية أي الناتجة عن الولادة من الأب والأم أو من أحدهما[١] وتطلق كلمة «الأخ» على الشريك المثيل[٢] وعلى المشارك في عمل وغيره وعلى الملازم والمصاحب[٣] ويركّز الراغب الأصفهاني على شرط الملازمة[٤] وتدل على الاقتران: آخى بينهما جعلهما كالأخوين[٥] وكل من نُسب إلى شيءٍ فهو أخوه وفي حديث عمر: «أنه كان يكلم النبي ـ ﷺ ـ كأخى السِرار لا يسمعه حتى يستفهمه أي همساً»[١] ولو أن الصحابة يشتركون مع الإخوان في هذه الخاصية كما سيتضح، ولكن لفظة الإخوان تعني المساواة والمماثلة ففي حديث كافل اليتيم «... كنت أنا وهو في الجنة أخويْن كهاتين وألصق أصبعه السبابة بالوسطى» وفي القرآن «وما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من أختها»[٧] وسمّاها أختاً لها لاشتراكهما في الصحة والإبانة والصدق[٨]. والمساواة والمماثلة والاشتراك في الملكات العقلية والنفسية وفي المكانة وفي المنزلة بين محمد وأتباعه أمور غير مقبولة ولهذا لم يُطلق عليهم وصف «الإخوان»، ومن هذا المنطق ندرك إصرار محمد على نفي صفة «الإخوانية» بينه وبينهم وحرصه الشديد على إطلاق وصف «الصحبة» (متى ألقى إخوانى؟ قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي وإخواني الذين آمنوا بى ولم يرونى)[٩].

نلاحظ أن الحديث أضفى صفة «الإخوانية» على من آمن بمحمد ولم يره أي من سيأتي بعده معتقداً في رسوليته ونبوته وهم شيء معدوم في ذاك الوقت، في حين أنه حجبها عن الموجودين معه، وذلك للمعنى الذي أوضحنا وهو نفي المساواة والمماثلة... إلخ ولهذا ف (إن النبي ــ ﷺ ــ لم يؤاخ علياً ولا غيره وكل ما رُوي في هذا فهو كذب)[١٠] وفي التعليق على الحديث السابق نرى شيخ الإسلام ابن تيمية يذهب إلى أنَّ محمداً كأنه قال لهم: (أنتم لكم من الإخوة ما هو أخص منها وهو الصحبة وأولئك لهم أخوة بلا صحبة)[١١]. وهذا خلط واضح من ابن تيمية ويتناقض مع نفيه تآخي محمد مع أي شخص سواء أكان عليّاً أم غيره، وليس صحيحاً أن الصحبة أخصّ من الأخوَّة بل العكس هو الصحيح فقد يقال عمن يسافر معك في سفرة تجارة أو حج أو سياحة... صاحب ولا يقال عنه أخ.

وما جاء في الصحيحين ــ البخاري ومسلم ــ أن محمداً أثبت الأخوة لاثنين فقط هما أبو بكر وزيد بن حارثة[١٢] ولم يثبتها لغيرهما يؤيد ما نذهب إليه لأن الاستثناء يؤكد القاعدة فضلاً عن أن قوله ذاك لكل منهما كان لمناسبة خاصة:

١ ــ بالنسبة لـ زيد بن حارثة:

قال له محمد «أنت أخونا ومولانا» تطيباً لخاطره لأنَّ زيداً كان عبداً لخديجة أولى زوجاته فأهدته إليه فسارع فأعتقه ولم يكتف بذلك بل تبنّاه وكان يعامله كابنه حتى إنه عندما حضر والد زيد وعمه لأخذه فضّل البقاء عنده أو معه، فلما حُرّم التبني بآية من القرآن تحوَّل إلى مولى لمحمد ــ ومولى القوم منهم ــ وهنا خطا محمد خطوة أوسع من القاعدة العامة التي ذكرنا ــ فقال لزيد تلك العبارة رفعاً لمعنوياته بعد إلغاء التبنى كأنه

يقول له: كنت في الماضي ابناً لي (إذ كان يقال زيد بن محمد) والآن أنت أخ ومولى لا مجرد مولى، والذي يقرأ السيرة المحمدية يدرك أن العلاقة بين محمد وزيد كانت على درجة وافرة من الحميمية والمتانة لم يحظ بها الألوف من الصحاب؛ فقد كان يقال عن زيد إنه «الحِبّ» وعن ابنه أسامة «الحبّ ابن الحبّ» وبلغ إعزاز محمد لهما رتبة رفيعة فقد كان أسامة «أسود أفطس»(١٣) ومع ذلك أمر محمد عربية قرشية هي فاطمة بنت قيس أن تنكحه وفضّله على معاوية بن أبي سفيان من بني أمية «ذؤابة قريش» فامتثلت (فقال لها رسول الله ــ ﷺ ــ طاعة الله وطاعة رسوله خير لك، فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به)(١٤) وكان أسامة دون السادسة عشرة، وكان العرف آنذاك ــ حتى بعد الإسلام ــ ينفر من زواج قرشية بغير قرشي حتى ولو كان عربياً فما بالك بأسود أفطس ولكن إكراماً لأمر محمد قبلت فاطمة بنت قيس نكاحه رغم أنها من بني محارب بن فهر وكانت ذات جمال وعقل وكمال ونبل وكانت زوجةً لأبي عمرو بن حفص بن المغيرة (وبنو المغيرة «درَّة قريش» كما وصفهم محمد نفسه)، وواقعة أخرى تقطع بتقدير محمد لزيد ومن بعده ابنه أسامة هو أن آخر جيش جهزه محمد الذي يسمى في كتب السيرة «بعث أسامة» كان قائده أسامة بن زيد ومن ضمن جنوده كبار الصحاب منهم عمر بن الخطاب وكان محمد بوصي في آخر أيامه (انفذوا بَعْثَ أسامة) ولذلك حرص ابن أبي قحافة الذي توفى الخلافة بعده على إنفاذ ذلك الجيش وكان أسامة دون العشرين وقت ذاك.

والحديث الثاني الذي روته عائشة بنت أبي بكر يكشف عن مدى قوة الصلة بين محمد وزيد (عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: قدم زيد بن حارثة ــ رضى الله عنه ــ المدينة ورسول الله ــ ﷺ ــ في بيتي

فأتاه فقرع الباب، فقام إليه رسول الله ــ ص ــ عريانَ يجرّ ثوبه ــ والله ما رأيته عرياناً قبله ولا بعده فاعتنقه وقبله)[١٥].

كل هذه الأخبار الموثقة توثيقاً متيناً والتي مصدرها كتب ثقات تفسر لنا: لماذا قال محمد لزيد بن حارثة، أنت أخونا وأن ذلك كان استثناءً.

٢ ــ أما عن ابن أبي قحافة:

فإنَّ المناسبة التي قال له فيها محمد إنه أخوه كانت تحتِّمها أي توجب طرحها إذ أن محمداً طلب يد عائشة من أبيها أبي بكر فاستغرب ذلك لأن ــ (من جانبه هو لا من قبل محمد) ــ كان يعتقد أنه أخ لمحمد فسأله: وهل تحل لك وأنت أخي؟ فأجابه «ولكن أخوة في الإسلام» أي في الديانة والعقيدة لا في المنزلة والمكانة مما لا يعني المشابهة والمماثلة والمساواة ولا هى إخوة نسب تمنعه من نكاح عائشة، هذا بالإضافة إلى ما قدمه ابن أبي قحافة لمحمد من أموال ومساهمات ومواساة ونصرة مما سيأتي تفصيلاً في فصل (التلقيب).

وقد تكررت عبارة «ولكن أخوةٌ في الإسلام» في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري[١٦] وكذا في الحديث الذي خرّجه مالك في «الموطأ» الذي أطلق فيه محمد صفة «الإخوانية» على مَنْ يأتي بعده ويؤمن به بغير أن يراه ويضيف في نهايته (وأنا فَرَطهم على الحوض)[١٧] وهي إضافة تشعر بمزيد من الاختصاصية وهذا يؤيد مذهبنا، ورغم أن ابن تيمية يفضل الصحبة على الإخوانية أو الإخوة بتعبيره عكس ما نقول به فهو لتهافت رأيه وتهاتره نراه يؤكد أن (النبي ــ ﷺ ــ لم يؤاخ أحداً، ولا آخى بين المهاجرين بعضهم من بعض ولا بين الأنصار بعضهم من بعض ولكن آخى بين المهاجرين والأنصار)[١٨].

ونحن نوافق الحرّاني تماماً على الشطر الأول من عبارته وهو أن محمداً لم يؤاخ أحداً إنما سوف تثبت فيما بعد ومن مصادر ذات رتبة عالية ودرجة رفيعة تلقتها أمة «لا إله إلا الله» بالقبول بل بالتجلة والإكبار أن محمداً آخى بين المهاجرين بعضهم من بعض أي بين المهاجرين والمهاجرين كما آخى بين المهاجرين بعضهم من بعض أي بين المهاجرين والمهاجرين كما آخى بين المهاجرين والأنصار فيما بعد في يثرب/ المدينة عندما هاجر إليها هو وصحبة لأنَّ أولئك وهؤلاء جميعهم وإن اختلفت طبقاتهم وأحسابهم وأنسابهم وأصولهم فهم في منزلة واحدة وهي الصحبة والتي يستحيل ديناً وعقلاً أن تتآخى مع رتبة الرسالة أو النبوة.

والقرآن يؤكد أن «الإخوانية» إنما تكون بين الأتباع أو الصحاب بعضهم من بعض لا بينهم وبين محمد والآيات في ذلك كثيرة نكتفي منها بـ:

(فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم)[١٩]

(ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان)[٢٠]

(فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً)[٢١]

أما الإشارة القرآن إلى الرسل السابقين بأن الواحد منهم أخو ثمود أو عاد أو مدين... الخ. فإن المقصود بكلمة (أخى...) هو رسول... ويستحيل عقلاً أن يكون هود أو شعيب أو صالح مساوياً في الرتبة لأقوامهم الكفرة. وهناك ملمح له أهميته هو أن القرآن يخصص الإخوانية بأنها «في الدين»:

(فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم «في الدين» ومواليكم)[٢٢] والآية خطاب للصحبة لا لمحمد لاستحالة المشاكلة أو المشابهة أو القرينية بينه

وبينهم وهنا نصل إلى خلاصة الرأي وهو بديهية نفي وصف «الإخوانية» في تحديد نوعية العلاقة بين محمد والأصحاب.

الأصدقاء

ب

الصداقة مشتقة من الصدق، وبذلك فإنَّ الصديق هو مَنْ يَصْدُقُ في مودتك ويصدقك الحديث ويعرِّفها الراغب الأصفهاني بأنها (صدق الانقياد في المودة)[٢٣] وهي المخالّة[٢٤] وهي مختصة بالإنسان دون غيره[٢٥] لأنَّ الصديق (هو الذي لم يدع شيئاً أظهره باللسان إلاّ وحققه بقلبه)[٢٦] وهو الصاحب الصادق الود[٢٧] ولأبى حيان التوحيدي كتاب عن «الصداقة والصديق» وصف فيه الصداقة وصفاً بليغاً: (الصداقة... على كرم العهد، وبذل المال وتقديم الوفاء وحفظ الزمام وإخلاص المودة ورعاية الغيب وتوفر الشهادة ورفض الموجدة (= الغضب) وكظم الغيظ واستعمال الحلم ومجانية الخلاف واحتمال الكَلِّ (= الضعيف واليتيم وذى المصيبة) وبذل المعونة وحمل المؤونة وطلاقة الوجه ولطف اللسان وحسن الاستنامة والثبات على الثقة والصبر على الضراء والمشاركة في البأساء)[٢٨] ويرى أن (الصديق لكل شيء للجد والهزل وللقليل والكثير ولا عاذل عليه ولا قادح فيه وهو روضة العقل وغدير الروح)[٢٩]، ونلاحظ في هذه التعريفات المتعددة انتصاب قدر من المشاكلة بين الصديقين، وهذه علة استبعاد إطلاق هذا الوصف على أتباع محمد الأولين.

فضلاً عن عائق اجتماعي أو عُرْفي (من العرف) وهو وجود عدد كبير من النسوان بين الصحبة والمجتمع العربي (الأعرابى والبدوي بنسبة كبيرة) البدائي لحد وسيع، البطريركي الذكوري في ذلك الوقت،

يستنكف قيام علاقة صداقة بين رجل وامرأة بالإضافة إلى غلبة النظرة الجنسية إلى المرأة ولذا يكثر وصف النسوة بأنهن حبائل الشيطان ومصايد الغواية وإذا خلا رجل بامرأة شاركهما الشيطان فيها وزين لهما أن يفعلا الأفاعيل.. الخ. من هذا استحال إطلاق وصف «الصديق» على المرأة مهما بلغت مكانة العلاقة وحميميتها معها ولا زال هذا العرف مستقراً في أعماق المجتمع العربي حتى الآن حتى في الأوساط المتحضرة والمثقفة ثقافة عالية بل الأوساط الجامعية والأكاديمية(٣٠)، ولذا فقد كان من المستهجن أن يقال إن: أم اسحاق الغنوية، أو أم أنس الأنصارية، أو أم بجيد الحارثية، أو أم جلاس التميمية، أو أم جميل القرشية... الخ «صديقة» محمد. وهناك وصف يتصل بالصديق وهو «الصدِّيق» بكسر الصاد وتشديد الدال (والصدّيق على فِعّيل: مبالغة في الوصف لكثرة صدقه أو لتحقيق فعله صدق قَوله)(٣١)، وعند نظام الدين الحسن القمّي النيسابوري من علماء القرن الثامن الهجري أن الصدّيقين هم (الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، المجتهدون في إقامة مراسم العبودية)(٣٢)، ومثل ما لا يحسن في الذوق والعقل معاً أن يحمل الألوف وصف مبالغة كأن يقال عن جميع المسلمين إنهم صوَّامون وقوَّامون. كذلك لا يجمل أن يقال عن أتباع محمد الأُوَل إنهم «صدِّيقون»، هذا بالإضافة إلى أن هذا الوصف أو اللقب خصَّ به القرآن ثلاثة من الأنبياء فحسب: إبراهيم وأدريس ويوسف، لما لاقوه في حياتهم من محن ونوازل. ومن غيرهم من البشر العاديين لم يحظ به سوى مريم أم المسيح عيسى.

فإذا حمله أتباع محمد الأوائل كان معنى ذلك مساواتهم بأولئك، والوحيد الذي منحه محمد هذا اللقب هو ابن أبي قحافة في حديث ارتجاف الجبل وذلك لاعتبارات سوف نجملها في الفصل الخاص بـ «التلقيب».

إذن كما استحال وصفهم بـ «الأصدقاء» تعذر تلقيبهم بـ «الصدِّيقين».

الأخدان

ج

لعل هذه الصفة أكثر من صفة «الأصدقاء» في جانب عدم التلاؤم باتصاف أتباع محمد بها، فعلى الرغم من أن «الخدن» هو الصديق[٣٣] أو (هو الصاحب والحبيب والرفيق)[٣٤] وهو أيضاً (كالصاحب ومن يخادنك في كل أمر ظاهر وباطن ومن هنا أطلق على الخصيتين «الخدنتان»)[٣٥] على الرغم من ذلك كله إلا أن الأغلب عليه (= على اللقب) أنه (يستعمل فيمن يصاحب شهوة يقال خدن المرأة وخدينها ومنه قوله تعالى:

«ولا متخذات أخدان»[٣٦، ٣٧] والآية ساوت بين الـ «مسافحات» والـ «متخذات أخدان» ولذلك فالثابت أنه (أريد بالمخادنة في القرآن المصاحبة غير الشرعية)[٣٨]، لهذا امتنع إضفاء هذا اللقب على صحب محمد.

الأخلاَّء

د

(الخل هو الود وهو الصديق)[٣٩] أو (هو الصديق الخالص)[٤٠] ولذا يقال: (خاللته مخاللة وخللاً فهو خليل)[٤١] و(الخليل الصادق هو من أضفى المودة وأصحها)[٤٢] أي بذلها صحيحة ولا شائبة فيها و(الخلة بالضم الخليل يستوي فيه المذكر والمؤنث)[٤٣] والخُلة بالضم (المودة إما أنها تتخلل النفس أي تتوسطها وإما لأنها تخل النفس فتؤثر في الشخص)[٤٤] وكذلك فإن (الخلة: الصداقة الخالصة التي تخللت القلب وجمعها خلال...

والخليل: الصديق المخلص الذي تخللت صداقته القلب وهو الذي أصفى المودة وأصحها أو هو الحبيب والجمع أخلاء)[٤٥].

وهذه الصفة تجمع في رباط شخصين أو علاقتهما معانٍ طيبة ففيها الصدق والود والصفاء ومخالطة القلب...

ولكن منع من إضافتها إلى الصحاب عدة أمور فيها:

١ ــ أن الأخلاَّء سرعان ما ينقلبون أعداءً ألداءً إلاّ المتقين والتقوى رتبة متقدمة في مدارج السالكين لدرب الإسلام (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)[٤٦].

٢ ــ أن أصل الكلمة أو جذرها يوحي بدلالات سلبية منفرة بعكس الصداقة فإن أصلها أو جذرها إيجابي ويبعث على الرضا بل القبول والحفاوة... وهو الصدق، في حين أن «الخلة» تفسر بالحاجة والخصلة[٤٧] وأخلّ فلاناً إلى كذا: أحوجه إليه وما أخلّك الله إلى هذا[٤٨] أي ما أحوجك إليه، كما أن الخلل هو الوهن في الأمر[٤٩] وحمل لقب يحمل هذا المعاني المقبضة أمر غير مقبول.

٣ ــ في القرآن: إن الله اتخذ من إبراهيم خليلاً (واتخذ الله إبراهيم خليلاً)[٥٠] واختلف المفسرون في علة ذلك فبعضهم يرى أن الله (اصطفاه وخصَّه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله)[٥١] والآخر يذهب إلى أنها (دوام افتقار إبراهيم إلى الله في كل حال)[٥٢] وأياً كان الأمر في تلك العلة فإنها خارجة عن سياق دراستنا، المهم، أن محمداً استحى من ربه أن يتخذ هو أخلاء كما فعل ربه بل هو نفسه شعر بالحاجة إلى ربه فاتخذه خليلاً له وصرح بذلك في عدة أحاديث منها قوله (في الصحيح عن أبي سعيد الخدري: لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر)[٥٣]، وما

دام قد استحال على محمد أن يتخذ ابن أبي قحافة خليلاً فغيره من الصحبة أشد استحالة.

الحواريّون

هـ

لقد أُطلق على بضعة عشر رجلاً صحبوا المسيح عيسى بن مريم (لأنهم كانوا قصارين[٥٤]) وقيل كانوا صيادين وقال بعض العلماء: إنما سُمّوا حواريّين لأنهم كانوا يطهرون الناس بإفادتهم الدين والعلم... وإنما كانوا قصارين على التمثيل والتشبيه وكانوا صيادين لاصطيادهم نفوس الناس من الحيرة وقَوْدهم إلى الحق)[٥٥] وهو رأي يحمل معنى ألطف من الرأي القائل بأنهم (إنما سموا حواريين لأنهم كانوا يغسلون الثياب ويُخلّصونها من الأوساخ ويحورونها أي يبيضونها)[٥٦] (والتحوير هو التبييض والحوار هو البياض)[٥٧]؛ ومن ثم فإن الحواريّ في الأصل هو مبيض الثياب والحوَر بالفتح هو الرجوع والنقصان وبالضم: الهلاك والنقصان[٥٨] وفي الدعاء (حوّر الله فلاناً: خيبه ورجعه إلى النقص)[٥٩] وكذلك (الحور هو التردد... وحار في أمره تحير... والقوم في حوار أي في تردد إلى نقصان)[٦٠]، وهذه ولا شك معانٍ تلقي ظلالاً كئيبة على الصفة مثل «الخلة».

ولكنَّ معاجم اللغة تخبرنا أن الحواريّ هو النصير، (وقال محمد بن السائب إنه الخليل أو الحميم... وهو ناصر الأنبياء)[٦١] وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم (الحواريّ الخالص المنقَّى من كل شيء وشاع استعماله في الخلصاء للأنبياء)[٦٢] فإذا كان هذا اللفظ شاع استعماله في أتباع الأنبياء الخلّص فلماذا لم يطلق على أتباع محمد؟ إن ذلك يرجع لعدة أسباب منها:

إنَّ محمداً كان حريصاً على أنَّ الدين الذي بشَّر به يجب أن يكون متميزاً عن الديانتين الإبراهيميتين اللتين سبقتاه (اليهودية والمسيحية) وقد رأينا ذلك في عدة أمور منها الاستقلال بقبلة خاصة هي الكعبة، والإعلام عن مواقيت الصلاة بطريقة متميزة هي الأذان كما أننا سوف نرى في فصول قادمة حثَّه أتباعه على التفرد بهيئة خاصة تميزهم عن اليهود بالأخص... إلخ إذن كان من العسير أن يحمل تابعي اللقب عينه الذي كان يحمله تلاميذ ابن مريم.

ومنها أن اللقب يشىء بمعان سلبية مثل الهلاك والنقصان والخيبة والتردد والتحيّر في الأمر، فضلاً عن أن القرشي خاصة والعربي عامة يأنف أن يحمل لقباً: أحد معانيه «مبيض ثياب» إذ من المعروف نفور العرب بل والأعراب في ذلك الزمان ــ وحتى الآن ــ من العمل اليدوى وكانوا يسمونه «مهنة» كذلك (والمهنة بالفتح: الخدمة... والماهن: الخادم، وقد مَهَنَ القوم أي خدمهم)[٦٣] (مهن المرأة أي جامعها وإمتهنه: استعمله للمهنة)[٦٤] وأصل الكلمة من الامتهان ولذلك يوصف الحقير والضعيف والقليل بـ «المهنى»؛ ومن هنا جاء احتقارهم لـ «بنى حنيفة» لأنهم كانوا يعملوا بالزراعة، كما كانوا يسمون «بنى سُليم» «القيون» أي العبيد لأنهم كانوا يشتغلون بالحدادة.

وكان العمل الأمثل لديهم التجارة بالنسبة لقريش والغزو أو النهب والسلب لغيرهم، وهناك قول مأثور «تسعة أعشار الرزق في التجارة».

ولكن رغم أن هذه هي الأسباب التي حالت دون تلقيب الصحبة بـ «الحواريين» فإن هناك الاستثناءات، منها أن محمداً منح الزبير بن العوام لقب «الحوارىّ» (لكل نبيٍ حواريّ وحوارييّ: الزبير)[٦٥] وأيضاً (نقل معمر عن قتادة أن هناك عشرة حواريين كلهم من قريش: أبو بكر

/ عمر/ عثمان/ حمزة/ جعفر بن أبي طالب/ أبو عبيدة بن الجراح/ عثمان بن مظعون/ عبد الرحمن بن عوف/ سعد بن أبي وقاص/ طلحة بن عبيد الله)[٦٦] ونلاحظ على اختيار قتادة لهؤلاء باعتبارهم حواريين» عدة أمور منها:

أ ــ أنهم جميعاً من قريش مثل ما أن «العشرة المبشرين بالجنة» كلهم قرشيون.

ب ــ أنه أغفل عليّ بن أبي طالب فإما إنه كان يعتبره «وصيًّا» كالشيعة والوصيّ بلا شك أخص من الحواري وأرفع رتبة وإما أن ذلك كان سهواً منه.

جـ ــ أن سبعة ممن ذكرهم كانوا من «العشرة المبشرين بالجنة» الذين سوف نرى فيما بعد أن مجلسهم حلّ محل «ملأ قريش» الذي كان يحكم عاصمة القداسة؛ مكة قبل ظهور محمد، والأدلة على ذلك كثيرةٌ منها أن عمر بن الخطاب عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي حصر الخلافة من بعده فيما بقي من هؤلاء العشرة. فهل هذا التخصيص من قبل قتادة كان تأكيداً للمعنى الذي يعطيه لقب «الحواريّين» من أنهم أخلص أعوان المرسلين وأن محمداً لا يجد أخلص من رجال قريش، أياً كان الأمر فالثابت أن حديث قتادة لم يتأيد بروايات أخرى ومن ثم فالغالب أنه مجرد رأي لقتادة ولكن حديث اختصاص الزبير باللقب حديث مشهور وله روايات متعددة وإذا كان الأمر كذلك فإنه مجرد استثناء كما كان حمل أبي بكر للقب «الصدّيق» محض استثناء وبذلك نخلص إلى أن هناك عوامل عدة تضافرت على تشكيل حاجز يحول دون الصحاب حمل لقب «الحواريّين».

الصحابة

و

مشتقة من الفعل «صَحِب» و(صَحِبَهُ صحابة وصحبة: عاشره ولازمه)[٦٧] و(الصحابة بالفتح الأصحاب وهي في الأصل مصدر، قلت ولم يجمع فاعل على فِعَالة إلاّ هذا الحرف)[٦٨] أي أن الأصل في جمع صاحب: صاحبون، كدائن يجمع على دائنين وشاكر على شاكرين... وهكذا... وهذا تفسير قول الرازي «ولم يجمع فاعل على فِعَالة إلاّ هذا الحرف»، والصاحب يعني المرافق[٦٩] وكذلك الملازم (ولا يقال في العرف إلاّ لمن كثرت ملازمته)[٧٠] وهو مالك الشيء[٧١] و[٧٢] و(قد يضاف الصاحب إلى مسوسه نحو «صاحب الجيش» وإلى سائسه نحو «صاحب الأمر»)[٧٣] أي يجوز نسبتها إلى الطرفين المسوس والسائس معاً ولكن (المصاحبة تقتضي طول لبثه)[٧٤] وأضاف معجم ألفاظ القرآن الكريم عنصراً فعالاً في تعريف الصحابة وهو «المعاشرة» وهي أخص من الملازمة إذ تعني المخالطة والمساكنة والرفقة الحميمة والالتزاق أو الالتساق أو الالتصاق (صحب كعلم يصحب صحبة وصحابة: «عاشر» وصاحب: «عاشر» على المفاعلة من الجانبين... والصاحب «المعاشر» ولا يقال إلا لمن كثرت ملازمته فالصاحب: الملازم لشخص أو لشيء)[٧٥]؛ وهكذا نرى أن القواميس والمعاجم وكتب مفردات اللغة تكاد تجمع على أن «الصُحبة» تعني «الملازمة»، أي أن العلاقة العارضة أو القصيرة الأمد، لا تعد صحبة وسوف نرى أن هذه الخاصية هي موضع خلاف حاد بين المحدثين والأصوليين.

كذلك يطلق الصاحب على من اعتنق مذهباً فيقال: أصحاب أبي حنيفة وأصحاب الشافعي[٧٦] وللفيروزآبادي علاوة على ما تقدم عدة معان لـ «الصحبة» فهي تدل على السكون وفراغ البال إلى... كذا

المرافقة والموافقة والتصرف والاستيلاء «مالك الشيء أو صاحبه» ويطرح تعليله لذلك (لأن الأصل فيه أن الصاحب هو الملازم إنساناً كان أو حيواناً أو مكاناً أو زماناً ولا فرق بين مصاحبة بالبدن وهو الأصل والأكثر... أو بالعناية والهمة... ولا يقال في العرب إلاّ لمن كثرت ملازمته)(٧٧).

ولكن بجوار الملازمة خصيصة أخرى بالغة الأهمية، والذي لا مراء فيه أنه كان لها دور بارز في اختيار اللقب أو الصفة: «الصحابة» وهي «الانقياد والمتابعة»... «والإصحاب للشيء: الانقياد له»(٧٨) و(المصحب: المنقاد بعد صعوبة)(٧٩) و«الإصحاب للشيء: الانقياد له وأصله أن يصير له صاحباً»(٨٠).

وسوف نرى في الفصول القوادم صوراً تثير الدهشة البالغة والعجب المضاعف بل الحيرة الشديدة لانقياد الصحابة لمحمد انقياداً تاماً شاملاً كاملاً مطلقاً بهيئة لم ير لها التاريخ «القديم والوسيط والحديث» شبيهاً، منها على سبيل المثال:

١ ـ رأينا العربية القرشية تنقاد لأمر محمد فتتزوج من أسود أفطس.

٢ ـ صحابي يقوم من على امرأته بمجرد أن يسمع نداء محمد ولا يسعه أن يستمر حتى يقضي وطره.

٣ ـ صحابي يقتل خاله بيده وآخر يقتل عمه وثالث يسلّ سيفه على أبيه ورابع يستأجر رجلاً لقتل ابن عمه وأخي زوجته.

٤ ـ صحابيان يستأذنان محمداً في قتل أبويهما اللذين كانا من المناوئين له.

٥ ـ صحابي يقول لأخيه الأكبر الذي ربّاه وكفله وهو صغير: لو أمرني محمد بقتلك لقتلتك.

٦ ـــ صحابي يكتم حزنه على أبيه الذي كان عدواً لمحمد وينكر مشاعره الطبيعية.

٧ ـــ صحابي يدعو على أبيه الذي كان يعادي محمداً، ألا يُشفى من مرضه وأن يموت.

٨ ـــ صحابي يحرص على قتل ابنه وآخر على قتل أخيه...

٩ ـــ صحابية تنكح قصيراً دميماً أمرها محمد بنكاحه.

١٠ ـــ صحابي يبيع حديقة كاملة ويشتري بها نخلة واحدة انقياداً لرأي محمد.

١١ ـــ صحابي يأخذ لُمته ويشمّر من إزاره امتثالاً لأمر محمد.

١٢ ـــ صحابي يطلق إزاره صيفاً وشتاءً تقليداً لمحمد.

١٣ ـــ صحابي يسمع هيعة الحرب فيشترك فيها قبل أن يغتسل من الجنابة.

١٤ ـــ صحابي يحرق ربطته المضرّجة تنفيذاً لإشارة من محمد.

١٥ ـــ صحابي يستمر في ضرب غلامه حتى بعد استعاذته بالله ثم يتركه عند استعاذته بمحمد.

تلك كانت مجرد أمثلة على انقياد الصحابة لمحمد وطاعتهم له وامتثالهم لأوامره، سنذكرها مفصلة في بابي «طاعة الصحابة لمحمد» و«قتلهم المحارم» وجميعها مستقاة من الصحاح والمسانيد وكتب التراث التي لا يماري فيها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان.

* * *

إذن كون الصحبة تعني المعاشرة والملازمة والانقياد المطلق ملمحٌ

أساسي في تفصيل هذا الوصف أو هذا اللقب على سائر الأوصاف الأخرى فضلاً عن أن أصل الكلمة أو جذرها ليس له دلالات سلبية أو منفرة مثل الأخلاّء والأخذان كما لا يدل على تقليد ديانة سابقة ينافي حرص محمد على تفرد واستقلال الديانة التي بشّر بها، ومما هو جدير بالذكر أن محمداً كان ينظر إلى مَنْ سواه من البشر هذه النظرة فهو يعرف قيمة نفسه وأنه بخلاف غيره من الناس إذ نراه يُطلق هذا الوصف على الأشخاص الذين خالطوه أو اتصلوا به أو ارتبطوا به بأي صورة من الصور قبل أن يعلن دين الإسلام:

(ذكر عند النبي ــ ﷺ ــ وآله ــ رجل كان يألفه قبل أن يبعثه الله نبياً يُقال له «أبو السائب»، فقال: نعم «الصاحب» كان أبو السائب...)[٨١] فهو لم يقلِ نعم «الأخ» لأنه بنظره لا يوجد له أخ.

إذن بنص الحديث: أبو السائب صاحب، وأبو بكر وعمر وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة... كل واحد منهم صاحب له... وليس أخاً.

وهكذا فازت صفة أو لقب «الصحابة» على غيرها من النعوت أو الألقاب لأنها جمعت دون سائرها المعاني والدلالات والخصائص التي يتعين توافرها في أتباعه الأولين، وكان اختيارها قمةً في الحصافة ودليلاً قاطعاً على العبقرية.

المصادر والهوامش

١ ــ **مختار الصحاح** للرازي.

٢ ــ **المعجم الوسيط للغة العربية** ــ مجمع اللغة العربية بـ مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣ ــ **المعجم الكبير للغة العربية** ــ مجمع اللغة العربية بـ مصر ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤ ــ **المفردات في غريب القرآن** ــ لـ الراغب الأصفهاني.

٥ ــ المعجم **الوسيط**.

٦ ــ **المعجم الكبير**.

٧ ــ الآية ٤٨ من **سورة الزخرف**.

٨ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني.

٩ ــ رواه مسلم في **الصحيح**، وابن ماجه في **السنن**، وأورده السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ــ العدد/ ٢٤ ــ ص ٣٠٣٨ طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ــ سلسلة (من موسوعة السنة).

١٠ ــ **منهاج السنة النبوية** لـ شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني ــ ص ٣٢ من المجلد الرابع.

١١ ــ **المصدر السابق** ــ ذات المجلد ــ ص ٧٦.

١٢ ــ **نفس المصدر** والمجلد والصفحة.

١٣ ــ **الاستيعاب في معرفة الصحاب** لـ أبي عمر يوسف... بن عبد البر ــ تحقيق محمد البجاوي ص ٧٦ من المجلد الأول ــ الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م ــ دار الجيل ببيروت.

١٤ ــ رواه مسلم في **الصحيح**.

١٥ ــ أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب. نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** لـ محمد يوسف الكاندهلوي ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٢١ ــ دار الوعى ــ حلب ــ سوريا.

١٦ ــ **منهاج السنة المحمدية** لشيخ الإسلام ابن تيمية ــ المجلد الثالث ــ ص ٩ مصدر سابق.

١٧ ــ **الموطأ** لـ الإمام مالك ــ ص ٤٤ ــ الطبعة الأولى ــ د. ت. ن ــ كتاب الشعب بـ مصر.

١٨ ــ **منهاج السنة المحمدية** لـ ابن تيمية ــ المجلد الثاني ــ ص ١١٩ ــ مصدر سابق.

١٩ ــ الآية ١١ من **سورة التوبة.**

٢٠ ــ الآية ١٠ من **سورة الحشر.**

٢١ ــ الآية ١٠٣ من **سورة آل عمران.**

٢٢ ــ الآية ٥ من **سورة الأحزاب.**

٢٣ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني.

٢٤ ــ **مختار الصحاح** لـ الرازي.

٢٥ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني.

٢٦ ــ **التعريفات** لـ الجرجانى.

٢٧ ــ **المعجم الوسيط** سابق.

٢٨ ــ **الصداقة والصديق** لـ أبي حيان التوحيدي ــ ص ١٢٩ شرح وتعليق علي متولي صلاح طبعة ١٩٧٢م ــ مكتبة الآداب بـ مصر.

٢٩ ــ **المصدر نفسه** ص ١٤١.

٣٠ ــ شكت لي أستاذة جامعية على درجة متميزة من الوضاءة والحلاوة أن زملاءها في الجامعة وبعضهم تخرّج في جامعات الفرنجة يعاملونها كـ «أنثى» لا كـ «صديقة» أو زميلة ويتمثل ذلك في لمسات الأيدى والنظرات الشهوانية بل الشبقة.

٣١ ــ **معجم ألفاظ القرآن الكريم** إعداد مجمع اللغة العربية ــ مادة (صدق) ــ سلسلة التراث للجميع ــ الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٢ ــ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** لـ نظام الدين النيسابوري (ت ٧٢٨هـ) في تفسير سورة المائدة ــ المجلد الرابع ــ تحقيق وتعليق النشرتي وآخرين، د. ت، د. ن.

٣٣ ــ **مختار الصحاح** لـ الرازي.

٣٤ ــ **الصداقة والصديق** لـ أبي حيان التوحيدي ــ ص ٨٥ ــ مصدر سابق.

٣٥ ــ **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي، سابق.

٣٦ ــ الآية ٢٥ من **سورة النساء.**

٣٧ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الرغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٣٨ ــ **معجم ألفاظ القرآن الكريم** ــ مصدر سابق.

٣٩ ــ **مختار الصحاح** لـ الرازي ــ مصدر سابق.

٤٠ ــ **المعجم الوسيط**، سابق.

٤١ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٤٢ ــ **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي ــ مصدر سابق.

٤٣ ــ **مختار الصحاح** لـ الرازي ــ مصدر سابق.

٤٤ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٤٥ ــ **معجم ألفاظ القرآن الكريم** ــ مصدر سابق.

٤٦ ــ الآية ٦٧ من **سورة الزخرف**.

٤٧ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٤٨ ــ **المعجم الوسيط** ــ مصدر سابق.

٤٩ ــ **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي.

٥٠ ــ الآية ١٢٥ من **سورة النساء**.

٥١ ــ **معجم ألفاظ القرآن الكريم** مادة «خلل» ــ مصدر سابق.

٥٢ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٥٣ ــ **منهاج السنة النبوية** لـ ابن تيمية الحراني ــ المجلد الثالث ــ ص ٩ ــ مصدر سابق.

٥٤ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الرازي سابق.

٥٥ ــ **الرياض النضرة في مناقب العشرة** لـ المحب الطبري تحقيق النشرتي وآخرين ص ٧١٧ ــ ٧١٨ د. ت. د. ن.

٥٧ ــ **ذات المصدر** وذات الصفحة.

٥٨ ــ **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي.

٥٩ ــ **المعجم الوسيط** سابق.

٦٠ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني.

٦١ ــ **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي.

٦٢ ــ **معجم ألفاظ القرآن الكريم** ــ مصدر سابق.

٦٣ ــ **مختار الصحاح** لـ الرازي ــ مصدر سابق.

٦٤ ــ **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي ــ مصدر سابق.

٦٥ ــ **الاستيعاب في معرفة الصحاب** لـ ابن عبد البر ــ ص ٥١٣ ــ المجلد الثاني ــ تحقيق علي محمد البجاوي ــ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م ــ دار الجيل ــ بيروت.

٦٦ ــ **الرياض النضرة في مناقب العشرة** لـ المحب الطبري ــ ص ٧١٨ ــ مصدر سابق.

٦٧ ــ **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي ــ مصدر سابق.

٦٨ ــ **مختار الصحاح** لـ الرازي ــ مصدر سابق.

٦٩ ــ **المعجم الوسيط** لـ الرازي ــ مصدر سابق.

٧٠ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٧١ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٧٢ ــ **المعجم الوسيط** ــ مصدر سابق.

٧٣ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٧٤ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٧٥ ــ **معجم ألفاظ القرآن الكريم** ــ مجمع اللغة العربية بـ مصر ــ مصدر سابق.

٧٦ ــ **المعجم الوسيط** ــ مصدر سابق.

٧٧ ــ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** لـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ــ تحقيق أ. محمد علي النجار ــ الجزء الثاني ــ «بصيرة الصحابة» الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ ــ ١٩٨٥م ــ لجنة إحيـاء التراث الإسلامي ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بـ مصر.

٧٨ ــ **المفردات في غريب القرآن** لـ الراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

٧٩ ــ **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي ــ مصدر سابق.

٨٠ ــ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** لـ الفيروزآبادي ــ سابق.

٨١ ــ **الصداقة والصديق** لـ أبي حيان التوحيدي ص ٨٥ ــ مصدر سابق.

الباب الأول

الصبغة الإسلامية

مدخل

الإجماع منعقد على أن محمداً عبقرية فذة، ويؤمن كاتب هذه السطور إيماناً عميقاً بعد تدقيق وتمحيص بالغين أن جزيرة العرب لم تنجب مثله.

اجتمع لمحمد شرف النسب مع شظف العيش في طفولته وصباه وشبابه وظل كذلك حتى أعجبت به خديجة وسعت للزواج منه[١].

فهو من بني هاشم أعلى ذروة في قريش التي هي بدورها أرفع القبائل مكانةً، ومع ذلك عمل في صباه راعي غنمٍ في أجياد مكة على قراريط[٢] ثم أجيراً تجارياً وممن استأجره خديجة بنت خويلد قبل زواجها منه[٣] كما شارك في التجارة آخرين منهم رجل يُسمّى السائب، وسافر في رحلات تجارية مع القوافل إلى الشام وهناك رأى وعاين واطلع على أمور وسَّعت آفاقه وفتحت عينيه وعلم ما لم يكن يعلم؛ وكانت مكة مدينة القوافل والتجارة وبها البيت الذي كان يقدسه سائر العرب وإليه يحجون ويعتمرون حتى من بين أهل الكتاب باعتبار أنه إرث إبراهيم الذي تقدسه الأديان السماوية الثلاثة ومن ثم كانت (= مكة) تعج

بالمئات من العرب والروم والفرس والحبش والقبط... واختلط محمد بهؤلاء وعاملهم وعاملوه وجالسهم وجالسوه وسمع منهم عقائدهم ونحلهم فازداد رصيد معرفته بهذه الأمور ــ وبعد أن تزوج خديجة تفرغ للتأمل والتفكير(٤) وازداد توثقه بالمتحنفين من أهل مكة منهم: ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وكان ينقل أجزاء من التوراة والإنجيل إلى اللسان العربي(٥)، وزيد بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب وغيرهما وكانوا موحدين على ملة إبراهيم ولا يشركون مع الله أحداً ولا يعبدون الأوثان وينفرون الناس من عبادتهم ويستهزئون بها ولا يأكلون من اللحوم التي تقدم إليها كقرابين وكانوا ينهون عن وأد البنات وشرب الخمر ويغتسلون من الجنابة... الخ وكان احتكاكه بهم ذا فائدة لا تقدر وتذكر لنا كتب السير والتواريخ أن محمداً كان يجوس خلال الأسواق التي كانت تعقد على حافة موسم الحج مثل عكاظ وذى المجاز ومِجَنَّة وغيرها.

وكان يصغي إلى الأشعار والخطب والمواعظ التي كان يلقيها خطباء مفوهون من الرهبان والقساوسة، والشعراء والخطباء ومن أشهرهم: قس بن ساعدة الإيادى وهو من الأحناف، وقيل إنه كان على دين عيسى بن مريم، وما استوعبه محمد في هذه الأسواق من أشعار وخطب ومواعظ ضاعف محصوله الثقافي والمعرفي.

خلاصة الأمر أن محمداً اجتمعت فيه الخبرة العملية من النشأة الصعبة التي جابهته في مستهل حياته وصاحبته حتى اقترانه بخديجة، مع الثقافة العميقة المحصودة من الروافد العديدة ذات الخطر التي ذكرناها. كل ذلك بالإضافة إلى ما أطبقت عليه كتب السير والتواريخ أنه كان يتمتع بشخصية آسرة تبهر كل من يلتقيه وتأخذ بمجامع لبه(٦). هذه العوامل: الخبرة العملية، والثقافة الوسيعة ذات الجذور المتنوعة مع قوة الشخصية

أهلت محمداً لأن يهيمن على (الصحابة) هيمنة كاملة أدهشت معاصريه حتى ممن كان يخاصمه ويناوئه بل يعاديه ويحاربه:

أ ــ (قال ابن اسحق قال الزهري فكلمه عروة بن مسعود الثقفي «مندوب قريش في المراودات التي سبقت توقيع صلح الحديبية» بنحو مما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً، فقام من عند رسول الله ــ ﷺ ــ وقد رأى ما يصنع به أصحابه: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه؛ فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم مثل محمد في أصحابه...)[٧] هذه شهادة عروة بن مسعود، سيد ثقيف وزعميها والذي يفد على الملوك ومن أصحاب الزوجات العشر[٨]. ومبادرة الصحابة بالاحتفاظ بشعر محمد وردت في عدد آخر من الأحاديث منها:

ب ــ (النبي ــ ﷺ ــ فرق شعره بين أصحابه، قال أنس، لما رمى النبي ــ ﷺ ــ ونحر نسكه، ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه ثم ناوله الشق الأيسر قال: احلقه فحلقه وأعطاه أبا طلحة فقال: اقسمه بين الناس)[٩]، إذن هو خبر صحيح لم ينفرد به ابن هشام في السيرة بل أكدته كتب الصحاح، وهو يقطع بمكانة محمد لدى صحبه وهي مكانة لم ير التاريخ لها نظيراً وطاعتهم إياه طاعة مطلقة لم يقدمها من قبل ولا من بعد أتباع لمتبوعهم. بل إن واقعة الاحتفاظ بالشعر فيها خبران يبعثان على الحيرة المضاعفة: أحدهما صدر من صحابي أصبح فيما بعد خليفة عرف بالدهاء الشديد والعقلانية[١٠] حتى إنه استطاع أن يؤسس دولة كانت نواة الإمبراطورية الإسلامية وهو معاوية بن أبي سفيان.

والآخر من صحابي له مواهب عسكرية نادر حتى قيل إنه لم يهزم لا في (جاهلية!) ولا في إسلام وهو خالد بن الوليد:

جـ ــ إذ أوصى معاوية أن يوضع نصيبه من شعر محمد في فمه عند موته، أما خالد فقد وضع في قلنسوته التي كان يخوض بها المعارك شعرات من شعر محمد[١١]، والخبران غَنِيَّان عن أي تعليق.

أما الخصم الآخر الــذي شهد بأن طاعة صحاب محمد له لم يرَ لها ضريباً فهو أبو سفيان بن حرب عدوه اللدود ففي فتح مكة (قال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم طاعة قوم جمعهم من هنا وههنا ولا فارس الأكارم ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم (= الصحابة) له (= لمحمد)[١٢].

ويروي ابن كثير الخبر في البداية على النحو التالي:

(ذكر عروة بن الزبير: لما أصبح (= أبو سفيان) صبيحة تلك الليلة (= فتح مكة) ورأى طاعة الصحابة لمحمد، قال: يا عباس ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه! قال: نعم والله لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه)[١٣].

إن شهادتي عروة بن مسعود الثقفي وأبي سفيان بن حرب لا مطعن عليهما ولا مغمز لأنهما في وقت الإدلاء بهما كانا من خصومه الأشداء لا من أتباعه وشيعته ومن ثم فلا مصلحة لهما في إبراز مكانة محمد بل ربما يكون العكس هو الأدنى إلى المنطق.

* * *

ومن أدلة ثبوت ارتفاع قدر محمد لدى صحبه أن بعضهم كان يقبل رجليه ويديه:

د ــ (عن أم أبان ابنة الوازع عن جدها أن جدها الوازع بن عامر ــ رض ــ قال: قدمنا فقيل ذاك رسول الله ــ ﷺ ــ فأخذنا بيديه ورجليه نقبلهما)[١٤] والبعض كان يكتفي بتقبيل يديه:

هـ ــ (عن مزيدة العبدي ــ رض ــ قال: جاء الأشج ــ رض ــ يمشي حتى أخذ بيد النبي ــ ﷺ ــ فقبلها)[١٥].

هذه الصور الناطقة تقطع بذاتها أن محمداً قاد الصحاب قيادة حاكمة ونجح في ذلك نجاحاً مبهراً في أن يدفعهم إلى طاعته طاعة مطلقة يعز نظيرها ولكن محمداً لم يتوصل لذلك فجأة خاصة وأن رجاله كانوا زعماء لقبائلهم وكبراء في قومهم كلمتهم مسموعة وأمرهم مطاع، مع ما عرف عن عرب ما قبل الإسلام من عناد وشموخ وكبرياء واعتداد مفرط بالنفس واعتزاز بالأنساب وفخر بالآباء والجدود، وطغيان بسبب الثروة والجاه والسلطان ونفور تام من الخضوع للآخر والانقياد له، إنما أحرز محمد هذا النجاح الفائق في هذا المضمار نتيجة لخطة مدروسة تم تنفيذها باقتدار عجيب وصبر وسعة صدر وطول بال، ومعرفة مذهلة بأقدار الرجال وطبائعهم ومشاربهم، ولا ندعي أن الخطوات التي مشاها محمد والتي سنذكرها فيما يلي بالترتيب الذي سنورده، ليس ذلك بالضرورة بل الأقرب إلى المعقول، وشواهد الحال تدل على أنه كان يطبق أي شطر منها أو يتحرك أي خطوة في المجال المتعلق بها وفي النطاق الذي تحتمه وفي الميدان الذي تستدعيه مع المراعاة الكاملة لمقتضى الحال ولذلك نراه كثيراً ما كان يردد: خاطبوا الناس على قدر عقولهم، إذ ما قد يصلح لهذا قد يفسد آخر والعكس صحيح، وما يناسب هذا الظرف قد لا يلائم ظرفاً آخر وإن تشابها في الظاهر.

كما أن الخطة أو الخطوة قد تكون عامة تشمل العُصبة بأكملها وقد

تخص مجموعة محددة منها أو فرداً بعينه... وهكذا.

واختلافها وتنوعها شكّلا عبثاً ثقيلاً على كاهل محمد وأبهظ كاهله وكان كاهله يحمل الكثير، ولكنه أدى جميعها عامة وخاصة بحنكة نادرة، ومن هنا كان النجاح هو جزاؤه الأوفى... ولعله وبعد هذا «المدخل» الموجز قد آن الأوان لنبدأ في سرد مفردات تلك الخطة الباهرة وشرحها.

المصادر والهوامش

١ ــ ذكرت نفيسة بنت أمية أنه بعد عودة محمد من الشام بتجارة خديجة، أنها رغبت فيه فأرسلتني دسيساً إليه فعرضت عليه الزواج من ذات المال والجمال والكفاءة فسألني من؟ فقلت: خديجة.. فأجاب. هذه القصة وردت في كثير من المصادر منها على سبيل المثال: **الإصابة في تمييز الصحابة** لـ ابن حجر العسقلاني ــ الجزء السابع ــ ص ٦٠٢. أما ابن هشام فذكر أن خديجة عرضت نفسها مباشرة على محمد، **السيرة النبوية** ص ٢١٣ الجزء الأول.

٢ ــ **الروض الأنف** للسهيلي ــ الجزء الأول ص ١٩٢ على هامش سيرة ابن هشام وذكر السهيلي أن رعي محمد للغنم ورد مرتين في **صحيح البخاري**.

٣ ــ **السيرة النبوية** ابن هشام الجزء الأول ص ٢١٢.

٤ ــ الفترة من الخامسة والعشرين (عام زواجه من خديجة) حتى العام الأربعين (فيه أعلن محمد بدء التجربة الإسلامية) من عمر محمد هذه الفترة تتجاوزها كتب السيرة المحمدية وتسكت ولا تتحدث عنها وفي رأينا أن محمداً قضاها في البحث والدراسة والتقصي والتأمل والعبادة والتحنث.

٥ ــ يرى عدد من الباحثين أن محمداً كان يعرف القراءة والكتابة وأن وصفه بالنبي الأمي يعني أنه من غير أهل الكتاب إذ كان يطلق عليهم الأميين، وبعض الدارسين يذهب إلى أنه على أسوأ الفروض أنه كان يعرف القراءة ويتساءلون كيف يعرف أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية القراءة والكتابة ويجهلها محمد وهو من فرع (رهط) أرقى منهم!!! وكانوا يعتبرون معرفة القراءة والكتابة من مقومات الكمال لدى الرجل؟؟؟

٦ ــ يسمي الفرنجة مثل هذه الشخصية بـ (الشخصية الكارزمية).

٧ ــ ابن هشام **السيرة النبوية** ــ الجزء الرابع ص ٢٧.

٨ ــ الزواج بعشر زوجات كان من أبرز الأدلة على السؤدد والزعامة والثروة قبل الإسلام وسنرى فيما يلي من فصول أن عدداً من الصحابة ــ بعد أن بدأت التجربة الإسلامية تطرح ثمارها الشهية ــ تزوج من عشر نسوان بل تعدى إلى عشرين مثل ما فعل عبد الرحمن بن عوف ــ مع المحافظة على شرط عدم استبقاء أكثر من أربع في العصمة في وقت واحد، وذلك بخلاف «ملك اليمين».

٩ ــ رواه مسلم في **الصحيح** وأبو داوود في السنن. وذكره ابن قدامة المقدسي في المغنى ــ الجزء الأول ــ ص ٩٩ طبعة دار الغد العربي بمصر ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م.

١٠ ــ من الذين قالوا إن الإسراء والمعراج وقعا في الحلم وأنهما مجرد رؤية رآها محمد في منامه: معاوية بن أبي سفيان.

١١ ــ **المغنى** المصدر السابق ــ ذات الصفحة.

١٢ ــ **الروض الأنف** للسهيلي على هامش سيرة ابن هشام ــ جـ ٤ ص ٩٩.

١٣ ــ نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلَوي ــ الجزء الثالث ص ٩٥.

١٤ ــ أخرجه البخاري في الأدب.

نقلاً عن **حياة الصحابة** جـ ٢ ــ ص ٣٢٢.

١٥ ــ أخرجه البخاري في الأدب.

نقلاً عن **المصدر السابق** ــ نفس الصفحة.

الفصل الأول

التنفير

كان الشغل الشاغل لمحمد هو صبغ الصحابة بصبغة الإسلام وكانت الخطوة الأولى هي تنفيرهم من كل ما يمت بأدنى صلة للفترة السابقة على الإسلام (= الجاهلية)[١] واتخذ ذلك أشكالاً متنوعة:

١ ــ (عن أسامة بن زيد أن رسول الله ــ ﷺ ــ وقال: لا يرث المسلم الكافر)[٢] منع التوارث يعنى قطع أي صلة تربط المسلم بغير المسلم ومهما كانت درجة القرابة ومهما كان المال الذي تركه الكافر كان المسلم يزدريه ولا يقترب منه ولا يأخذ منه درهماً واحداً.

ولما استتب الأمر لمحمد وأخذت شوكته تقوى ــ وفي طريقه ــ لكي يصبح سيد جزيرة العرب كلها بلا منازع تلا على صحابته قرآناً ينص على:

٢ ــ (إنما المشركون نجس)[٣]

أبو سفيان ــ وسوف نرى فيما بعد أنَّ أبا بكر وصفه بـ (شيخ قريش وسيدها) ــ عندما سافر إلى يثرب/ المدينة ليجدد العهد المعروف بـ

(صلح الحديبية) بين قريش ومحمد، دخل (= أبو سفيان) بيت ابنته أم حبيبة إحدى زوجات محمد التسع وهمّ بالجلوس على فراش محمد فسارعت بطيِّه لكي لا يجلس عليه أبوها أبو سفيان لأنه نجس حسب تعليمات محمد لأنه لم يكن قد أسلم آنذاك فاندهش وقال متعجباً (والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر)[٤].

وكان محمد إذا أتاه رجل ليدخل دينه ورأى هيئته مثل هيئة الكفار أمره على الفور أن يغيّرها:

٣ ــ (حدّث سليمان بن مروان العبدي عن إبراهيم بن أبي يحيى عن عثيم بن كليب ابن الصلت عن أبيه عن جده: أنه أتى النبي ــ ﷺ ــ فقال: «احلق عنك شعر الكفر»)[٥].

فحتى تسريحة الشعر السابقة[٦] لا يرضاها محمد لمن عزم على اعتناق الإسلام؛ بل إن كيفية الجلوس التي اعتاد عليها الصحابي منذ طفولته فصباه فشبابه فرجولته فكهولته يحتم عليه محمد أن يقلع عنها:

٤ ــ (عن عمر بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد قال: مرّ بى رسول الله ــ ﷺ ــ وأنا جالس هكذا: وضعت يدى اليسرى خلف ظهرى واتكأت على إلية يدي فقال: (أتقعد قعدة المغضوب عليهم)[٧] والشريد ثقفي قيل إن أصله من اليمن ولكنه معدود من أهل الحجاز أي أنه ليس أنصارياً حتى يقال إنه خالط اليهود وهم المغضوب عليهم كما هو متفق عليه في كتب التفسير خاصة في تفسير سورة الفاتحة أما الضالون فهم النصارى (المسيحيون)، إذن العبارة التي وردت بهذا الحديث لا تشير إلى يهود فحسب بل إنها تعني كل أولئك الذين يقفون في خندق معاد للإسلام.

* * *

وسوف نرى في فصل قادم أن محمداً وهو يصبغ الصحابة بصبغة الإسلام ويطبعهم بطابعه بغير أسماء عدد وفير منهم خاصة تلك التي لا تتوافق مع أوامره ونواهيه بل حتى توجيهاته، ولم يقتصر الأمر على الأشخاص بل تعداه إلى الأماكن، وكان من البديهي أن يسارع بتغيير اسم البلدة التي هاجر إليها فقد كانت تسمى يثرب فأطلق عليها (المدينة) وحرّم على أتباعه مجرد النطق بالاسم القديم ومن ينزلق لسانه بالاسم الأول فعليه «كفارة»:

٥ ــ (عن عامر بن ربيعة عن رسول الله ــ ﷺ ــ «من قال للمدينة يثرب فكفارته أن يقول المدينة عشر مرات»)[٨].

وراوي الحديث هو عامر بن ربيعة أحد السابقين الأولين هاجر إلى الحبشة ومعه امرأته ليلى بنت أبي خيثمة ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وما بعدها. وواضح أن الهدف الذي تغياه محمد من تغيير اسم يثرب هو أن ينسى الأنصار على وجه الخصوص الفترة السابقة على وصول محمد إلى مدينتهم وكل ما يتعلق بها ومحوه من الذاكرة ورميه في بئر سحيق؛ وفرض كفارة على من يخطئ ويتلفظ بالاسم القديم قرينة على ذلك لأن الكفَّارات في الإسلام هي جزاء لمن يرتكب إثماً مبيناً، والكفّارة التي اختارها محمد تساعد على نبذ اسم يثرب بالكلية وعلى حفظ الاسم الجديد «المدينة» وتثبيته في الوجدان بتكراره عشر مرات.

* * *

وحمل محمد حملة شعواء على العادات التي كانت سائدة في الفترة السابق على إعلانه لعقيدته: ــ

٦ ــ (عن ابن عباس قال: استأذَنَتْ رسول الله ــ ﷺ ــ قريشُ في العتيرة «= شاة تذبح في رجب، وقد عتر يعتر عتراً إذا ذبح العتيرة. إ. هـ.» فقالت: يا رسول الله نعتر في رجب؟ فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: أعتر كعتر الجاهلية؟ ولكن من أحب منكم أن يذبح لله فيأكل ويتصدق فليفعل)(٩). أما إذا انتسب مسلم إلى الجاهلية (!) فقد أباح محمد إلى باقي أصحابه أن يسبوه سباً قاسياً:

٧ ــ (إذا رأيتهم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية فاعضوه بهن أبيه ولا تكْنوا)(١٠).

«واعضوه أي اشتموه أي قولوا له اعضضن هنّ أبيك أي ذكره ولا تكنوا أي صرِّحوا. ا.هـ».

والحديث على درجة عالية من الصحة إذ أنه ورد في ثلاثة من دواوين السنَّة ذات الرتبة الرفيعة: مسند أحمد وصحيح البخاري وكبير الطبراني. فما الذي دفع محمداً إلى أن يأمر أصحابه بشتم من ينتسب إلى الجاهلية (!) تلك الشتيمة الصعبة: عضّ ذكر أبيك.

الجواب واضح وهو أن محمداً يعمل طاقته القوية كافة على أن يكرِّه صحابه من كل ما يدنو للفترة السابقة بأوهى سبب ويدفعهم إلى طرحه وراء ظهورهم وأنه ليكن مستقراً في أعماق شعورهم أنه ليس لهم إلا الإسلام فهو عقيدتهم وجنسيتهم وحسبهم ونسبهم وملاذهم فإذا تجرَّأ شخص بعد اعتناقه إياه وانتسب إلى غيره كان إسلامه مشكوكاً فيه ولم يكتمل بعد ولذا فعلى بقية العُصبة المسلمة أن تسبه بتلك العبارة الصادمة الباطحة(١١) حتى يفيق ويرجع عن غيه إلى صوابه ويستيقظ من غفلته ويتنبه إلى سقطته التي تردّى فيها ومن ثم يُحرّم أن يكررها مرة أخرى.

أما الخطوة الأخرى فقد كانت:

التنفير من اليهود واليهودية:

قبل أن يهاجر محمد إلى يثرب/ المدينة كان على علم بوجود يهود فيها وبتأثيرهم على أهلها (= الأوس والخزرج)، ولذلك عندما قابل عند العقبة نفراً من الخزرج: سألهم: أمن موالي يهود؟[١٢]، فهذا السؤال يُفصح عن مدى اطلاع محمد على العلاقة الوثقى بين اليثاربة واليهود، وفيما بعد كانت عينه عليهم، وحاول في بداية أمره استمالة يهود فحرر بينهم وبينه ما عُرف بـ(الصحيفة) ولكنهم استعصوا عليه وناصبوه العداء.

ومن هنا بدأ محمد في رسم خطة المفاصلَة بينهم وبين صحبه ثم تنفيذها واتخذت مسارين: مفاصلَة جسدية أو هيئية (نسبة إلى الهيئة) وأخرى فكرية.

وفي داخل بناء المفاصلَة الجسدية أو الهيئة نذكر الحديث الآتى:

٨ ــ (احْفوا الشوارب واعفوا اللحى ولا تشبهوا باليهود)[١٣]:

مجرد المظهر الخارجي أو الهيئة التي ألفها اليثاربة من أوس وخزرج بحكم اختلاطهم بيهود يثرب، حظر محمد عليهم الاستمرار عليها وأمرهم بعكسها: أن يحفوا (يقصوا) الشوارب ويعفوا (يطلقوا) اللحى.

* * *

أما المفاصلة الفكرية فهناك العديد من الأحاديث التي تقطع بأن محمداً حرص عليها ربما بصورة أكثر إلحاحاً من المفاصلة الجسمية، وشملت (= الفكرية) الأنصار والمهاجرين معاً؛ وكون اليثاربة من الأوس

والخزرج تأثروا بالفكر اليهودي أو حتى على أكثر الفروض تحفظاً كانوا على تماس[١٤] به، أمر مفروغ منه.

أما المكيون فعندما هاجروا إلى يثرب/ المدينة، حاول بعض المثقفين منهم أن يمد بصره إلى الأفكار الدينية اليهودية وأن يطالع «التوراة» فلما وصل ذلك إلى علم محمد غضب وشدّ[١٥] من فعل ذلك منهم شداً رادعاً كما سنرى بعد قليل:

أ ــ مع الأنصار اليثربيين:

٩ ــ (عن أبي الدرداء وواثلة بن الأسقع وأبي أسامة، وأنس بن مالك قالوا: كنا في مجلس أناس من يهود ونحن نتذاكر القدر، فخرج إلينا رسول الله ــ ﷺ ــ مغضباً فعبس وانتهر وقطب ثم قال «مه، اتقوا الله يا أمة محمد على آخر الحديث»)[١٦]؛ الذين كانوا في مجلس يهودهم:

أبو الدرداء وأنس بن مالك وهما أنصاريان بلا خلاف أما واثلة بن الأسقع فهو ليثي، وأما أبو أسامة فلم يذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» من بين أصحاب الكنى ولعله تصحيف وصحة الاسم أبو أمامة بن سهل بن حنيف وهو أوسي أنصاري؛ وأياً كان الأمر فيكفي وجود أبي الدرداء وأنس بن مالك وهما من أعيان الصحابة الأنصار حتى يضفي على شهود ذلك المجلس اليهودي صفة الأنصار، فلما سمع بأمرهم محمد، وكانت عيونه لا تغفل عن مثل هذه الأمور بادر بالسعي إليهم وأظهر لهم عبوسه وغضبه وذكرهم بأنهم من أمة محمد ولا شأن لهم باتباع موسى ولا يصح لهم الجلوس معهم؛ ثم إن هناك ملحظاً شديد الأهمية وهو أن مدار الحديث كان عن أو في القدر، والحوار فيه يزعزع الإيمان ويهز أركانه، وكان محمد يعتبر الدين الذي بشّر به ودعا إليه هوية الانتماء إلى الدولة

القرشية التي بدأ يرسي قواعدها في يثرب[١٧]، ويعد الإسلام جنسية من ينتمى إليها[١٨]، فإذا خدش الإسلام ولو خدشاً طفيفاً كان في ذلك مساس بها خاصة وأنها كانت آن ذاك في طور النشوء ومرحلة التأسيس، فالمشكلة إذن كانت من منظور محمد مشكلة عقيدية/ سياسية في وقت واحد.

وحتى يقطع كل صلة جمعت الأنصار اليثاربة بـ اليهود اليثاربة وضع محمد عقوبة صارمة على من يخلط بينهما أي يُماهي بينهما ويعتبرهما شيئاً واحداً:

١٠ ــ (عن داود بن الحصين عن أبي سيفين مرسلاً: «من قال لرجل من الأنصار يا يهودي فاضربوه عشرين)[١٩].

داود بن الحصين ترجم له ابن حجر العسقلاني في (تقريب التهذيب). وأخرج له أصحاب الكتب الستة أي أنه بين الرواة الثقات. ولسنا محتاجين إلى أن نذكر إلى أنه لطول اختلاط الأنصار اليثاربة باليهود اليثاربة والذي يرجع إلى عهد سحيق فقد كان يطلق على اليثربي عربياً كان أو يهودياً: يا يهودي وذلك من باب إطلاق الخاص على العام ولما استوطن محمد يثرب/ المدينة فطن إلى ذلك وأدرك بثاقب نظره أنه منحى بالغ الخطورة على دينه ودولته معاً فبادر إلى سن تشريع يحظره حظراً باتراً بأن يجلد من يتلفظ به عشرين جلدة، ولكي نلم بمدى جسامة تلك العقوبة نقارنها بعقوبة شرب الخمر التي لم تكن محددة، فقد ضرب محمد عشرين: مرة بالنعال وأخرى بأطراف الثـياب. وهكذا أما أبو بكر بن أبي قحافة فقد ضرب أربعين سوطاً ثم رفعها عمر بن الخطاب إلى ثمانين سوطاً[٢٠] ــ نستطرد فنذكر أنه في الوقت الذي كان شرب الخمر لم يكن له حد محدود أو عدد فإن نداء الأنصاري بـ: يا

يهودي، وُضع له جزاء مقنن لما له من أثر نفسي واجتماعي وسياسي وعقيدي أو عقائدي في مجتمع الدولة التي كانت آنذاك تخطو أولى خطواتها.

وهكذا فإنه قد استبان أن بتر الصلة ــ صلة الأنصار اليثاربة بمواطنيهم اليهود اليثاربة هو شطر من خطة القطيعة التي رسمها ونفذها بإحكام بالغ، محمد، في سبيل ــ صبغ أتباعه بصبغة الديانة التي بشر بها.

ب ــ مع المهاجرين:

عمر بن الخطاب نموذج للمكي المثقف الطُلَع[٢١] الذي يتفحص ما حوله، ويتعذر عليه أن يعيش مغمض العينين، فانتهز فرصة وجوده في يثرب/ المدينة فبادر إلى الاتصال بيهودها وربما تردد على مدارسهم[٢٢] طالباً الاطلاع على كتابهم المقدس «التوراة»، ونسخ شيئاً منها وأخذ يقرأه ثم جاء به إلى محمد فما إن رآه حتى غضب غضباً شديداً واحمر وجهه: ــ

١١ ــ (قال: انطلقت فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به في أدم فقال لي رسول الله ــ ﷺ ــ: ما هذا في يدك يا عمر؟ فقلت: يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد علماً إلى علمنا، فغضب رسول الله ــ ﷺ ــ حتى احمرتْ وجنتاه ثم نودي بالصلاة جامعة فقالت الأنصار: أغضب نبيكم.. السلاح السلاح...)[٢٣].

النداء للصلاة الجامعة لا يكون إلا في النوازل الكبيرة والملمات الجائحة أي أن محمداً اعتبر أن قراءة أحد أتباعه لصحيفة من التوراة نازلة وجائحة وبقية الحديث:

١٢ ــ (... ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون)[٢٤]. وبعد رد الفعل العنيف من قبل محمد بهذه الصورة التي فاجأت ابن الخطاب ولم تكن في حسبانه يضطر (فيعتذر عمر ويقول: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبك رسولاً)[٢٥]، وغضب محمد على عمر: إما أنه تكرر، وهذا ما نشك فيه لأننا سوف نرى مدى الطاعة المطلقة لمحمد من قِبَل صحابته ما يدفعنا إلى التقرير بأنه من المستحيل على عمر أن يعيد فعلاً أثار نقمة محمد عليه، أو أن الخبر ورد في المصادر بطرق متعددة باعتبار أن نسخ عمر لجزء من التوراة وتعنيف محمد إياه لذلك مسألة ذات بال:

١٣ ــ (وقد غضب النبي ــ ﷺ ــ حين رأى مع عمر شيئاً مكتوباً من التوراة)[٢٦] وفي رواية أخرى:

١٤ ــ (لذلك غضب النبي ــ ﷺ ــ على عمر حين رأى معه صحيفة فيها شيء من التوراة، وقال: أفي شك أنت يا بن الخطاب؟ ألم آت بها بيضاء نقية؟ لو كان أخي موسى حياً لم يسعه إلاّ اتّباعي)[٢٧].

وهناك رواية ثالثة يرويها عز الدين بن أثير الجزري:

١٥ ــ (أخبرنا سفيان عن جابر عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال: يا رسول الله مررت بأخٍ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ فتغير وجه رسول الله ــ ﷺ ــ قال: عبد الله (وهو عبد الله بن ثابت الأنصاري نزل الكوفة فيما بعد) فقلت: ألا ترى ما بوجه رسول الله ــ ص ــ؟! فقال عمر؟: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً.. قال: فسُرُّيَ عن النبي ــ ﷺ ــ ثم قال والذي

نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين)[٢٨].

نلاحظ في هذا الحديث وفي الحديث السابق أن عمر بعد أن فوجئ بغضبة محمد عليه تلفَّظ بعبارات تفيد بأنه ما زال على إسلامه وباعترافه برسولية محمد، ما يعني أنه فهم أن قراءته للتوراة اعتبرت خلعاً لربقة عقيدة محمد وخروجاً عليها.

ولكن لماذا كان محمد يغضب ويثور عندما يعلم أن أحد الصحاب قرأ شيئاً من كتب الديانتين الإبراهيميتين السابقتين على ديانته؟

لأنه كان حريصاً على فصم كل صلة لهم بما هو خارج عن دائرة الإسلام وبالأخص ما يدخل في دائرة الاعتقاد.

* * *

استوعب عمر بن الخطاب الدرس جيداً وحفظه تماماً ثم أخذ يدرِّسه بحذافيره للرعية[٢٩] والوقائع في ذلك كثيرة لأنَّ في خلافته توسعت الجيوش الإسلامية في وطء البلاد المجاورة وغزوها ونتج عن ذلك الاختلاط بشعوبها ومعرفة قيمها ومن بينها أنه لا تثريب على مَنْ يفتحُ عينيه على ثقافات الآخرين، ولكن ابن الخطاب ــ بالعبرة التي استخلصها من النازلة أو النوازل التي مرت به، حارب ذلك وقمعه بشدة:

١٦ ــ (عن خالد بن عرفطة أن عمر بن الخطاب ضرب رجلاً (= اسمه العبدي ثلاثاً لأنه نسخ كتب دانيال، ثم قال له: فانطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ثم لا تقرأه أنت ولا تُقرئه أحداً من الناس فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو اقرأته أحداً من الناس لأنهكتك عقوبة)[٣٠].

كذلك خبر آخر يدل على أن قراءة أي كلام آخر محظور ويعرِّضُ فاعله للضرب، ولعل هذه الأخبار هي الجذر التاريخي لما يعرف لدى المفكرين الإسلاميين المحدثين بـ «الغزو الفكري»:

(أخرج نصر المقدسي عن ميمون بن مهران قال: أتى عمر بن الخطاب رجل فقال يا أمير المؤمنين إنا لما فتحنا المدائن أصبْتُ كتاباً فيه كلام مُعجب، قال: أمن كتاب الله، قلت: لأ، فدعا بالدرة فجعل يضربه بها)[٣١]، هنا نجد أن عمر ضرب الرجل دون أن يطّلع على الكتاب الذي حدثه عنه وأن فيه كلاماً معجباً ويقدر (= عمر) ما إذا كان محتوى الكتاب يتوافق مع موجبات الإسلام أم لا، بل مجرد تصريح الرجل أن الكتاب ليس من القرآن عرّضه للعقاب الرادع، والمعنى واضح أن المسلم لا يقرأ سواه[٣٢]، هذا ما يتعين عليه عمله.

* * *

منع عمر المثقفين والمتفتحين من الإطلاع على أفكار الآخرين بل امتد ذلك إلى المسلم الذي يفتح مخه ويقرأ القرآن قراءة واعية ثم يسأل عما غمض عليه منه.

ونورد على ذلك مثلاً بالغ الدلالة وهو أن رجلاً عراقياً يسمى (صُبيغ) كان يسأل عن متشابه القرآن ووصل في رحلته العلمية إلى مصر فسمع به عمرو بن العاص فبعث به إلى عمر بن الخطاب بالمدينة/ يثرب، وقيل في رواية أخرى أنه ذهب من تلقاء نفسه لعله يجد جواباً لدى الصحابة والتابعين بها، فبلغ ذلك ابن الخطاب فأعدّ له عراجين النخل، فلما دخل عليه قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صُبيغ، قال وأنا عبد الله عمر، وأومأ إليه فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى

شجّه وأدمى رأسه وجعل الدم يسيل على وجهه، ثم تركه حتى برأ ثم عاد له ثم تركه حتى دعا به ليعود إلى ضربه على أم رأسه، فقال صُبيغ: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً وإن كنت تداويني فقد والله برأت، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى واليه أبي موسى الأشعري ألا يجالسه أحد من المسلمين، وفي رواية أبي عثمان: فلو جاء ونحن مائة لتفرقنا، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر: أن قد حسنت هيئته فكتب إليه: أن إئذن للناس في مجالسته(٣٣).

هذا الخبر الذي نقلته روايات متعددة أثبت إحداها مالك في «الموطأ» والدارمي في «السنن» في رواية أخرى بخلاف باقي المصادر، نستطيع أن نحكم بصحته.

وهو يثير العديد من الأسئلة منها:

أ ــ ما الذي ارتكبه صُبيغ حتى يوقع عليه عمر تلك العقوبة القاسية التي تزيد على كثير من الحدود؟

ب ــ على أي سند من القرآن أو السنة اعتمد ابن الخطاب في إنزال تلك العقوبة؟

جـ ــ لماذا تعمد عمر ضرب صُبيغ على أم رأسه حتى دميت مرتين أو ثلاثاً حتى استغاث وطلب منه أن يقتله قتلاً جميلاً إذا كان يريد قتله، ولم يضربه على يديه أو رجليه أو حتى ظهره؟

ألأن الرأس به مخه أو عقله الذي دفعه للتفكير في متشابه القرآن؟

د ــ لماذا لم يلجأ عمر وهو الذي اشتهر بالعدل إلى إقناع الرجل بالحسنى بخطأ سؤاله، على فرض أن السؤال عن متشابه القرآن خطأ.

هـ ــ لماذا منع الناس من مجالسته حتى أنه لو أقبل على مائة لتفرقوا؟

و ــ هل جريرة صُبيغ الكبرى أنه صوّب ناحية القرآن عامود الإسلام وذروة سنامه، والأمر آنذاك كان في بداياته الأولى إذ لم تمضِ على وفاة محمد أكثر من خمسة عشر سنة.

ز ــ ألا يقطع هذا الخبر أن مقولة «التفكير فريضة إسلامية» تحتاج إلى إعادة نظر، وأن الصحيح أن التفكير المطلوب هو الذي يدور في فلك الدين ولا يخرج عن ذلك أي ليس هو التفكير على إطلاقه.

* * *

هكذا إذن طبَّق محمد مبدأ المفاصلة بين صحابه أنصاراً كانوا أو مهاجرين وبين اليهود سواء في الصورة الجسيمة أي الهيئة الخارجية أو السلوكية أو في الجانب المعنوي أو الشق الفكري، سواء بالمنع من إجراء حوارات معهم أو من قراءة ولو شطر ضئيل من كتابهم المقدس، وذلك ليخلّص الصحابي من الشوائب كافةً التي تحول أو حتى تعوق دون صبغه بالصبغة المحمدية أو الإسلامية والتي كانت إحدى أهم المهام التي تفرغ لها محمد ونذر لها نفسه والتي تشهد الحوادث له بنجاحه المنقطع النظير في إنجازها على وجه نادر عزيز المثال.

المصادر والهوامش

١ ــ رأينا الذي سبق أن أثبتناه في كتابات أخرى متقدمة أن وصف الفترة السابقة على الإسلام بـ«الجاهلية» أمر أيديولوجي مقصود.

٢ ــ أورده مالك في **الموطأ** ص ٣٢١ ــ طبعة دار الشعب.

٣ ــ الآية ٢٨ من **سورة التوبة**.

٤ ــ ابن هشام ــ **السيرة النبوية** ــ الجزء الرابع ــ ص ٨٧.

٥ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ عز الدين بن الأثير الجزري ــ المجلد الثالث ــ ص ٣٢. وقال: أخرجه ابن مندة وأبو نعيم.

٦ ــ في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية/ التسريحة: هيئة لتسريح الشعر.

٧ ــ رواه أبو داود وابن حبّان والحاكم في **المستدرك** والبيهقي ــ نقلاً عن **الجامع الكبير أو جمع الجوامع** للسيوطي ــ جـ ١ ص ١٤٠.

٨ ــ الحديث في **كنز العمال** وأورده السيوطي في **الجامع الكبير** ــ الجزء الرابع العدد/ ١٤.

٩ ــ رواه الطبراني في الكبير.

١٠ ــ أورده أحمد في **المسند**، والبخاري في **الصحيح** والطبراني في **الكبير**. وذكره السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ــ الجزء الأول ص ٥٦٤.

١١ ــ في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي ــ **بطحه** ألقاه على وجهه فانبطح، وتبطيح المسجد: إلقاء الحصى فيه والبُطاح بضم الباء: مرض يأخذ من الحمى.

١٢ ــ **السيرة النبوية** ــ ابن هشام ــ الجزء الثاني ــ ص ١٧٦.

١٣ ــ أورده السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** = الطحاوي عن أنس. ص ٢٤٥ ــ الجزء الأول.

١٤ ــ **التماسّ** هو الاختلاط المفرط البالغ ولذا فهو إحدى كنايات الجماع أو المفاخذة وفي القرآن (من قبل أن يتماسا)، **ومُسّة** بالضم علم للنساء كما في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

١٥ ــ في **مختار الصحاح** للرازي ــ شدّه: أوثقه.

١٦ ــ الحديث في **الطبراني الكبير**، وفي **مجمع الزوائد**.

١٧ ــ ذكره السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** الجزء الرابع ــ العدد الرابع والعشرون ص ١٧,٢٩٦٨ ــ لمزيد من التفصيلات في هذا الموضوع انظر **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية** ــ خليل عبد الكريم ــ الطبعة الأولى ١٩٩٢م ــ دار سينا بالقاهرة.

١٨ ــ إحدى الجمعيات الدينية الإسلامية في مصر تصدر مجلة تحمل عنوان **الإسلام وطن!**

١٩ ــ أورده عبد الرزاق في **مصنفه**. وذكره السيوطي في **الجامع الكبير أو جمع الجوامع** ص ١٨٥١ العدد/ ٥ من الجزء الرابع.

٢٠ ــ العلة في رفع عمر حد شرب الخمر إلى ثمانين سوطاً هو أن الأموال كثرت في أيدى أهل المدينة/ يثرب كثرة لم يكونوا يحلمون بها لا في منام ولا في يقظة ــ لوصول الثروات الأسطورية التي نزعها الغزاة العرب من البلاد التي وطئوها، فأخذ أهل المدينة/ يثرب يتنعمون ويتلذذون وعادوا إلى سابق عهدهم في معاقرة بنت الحان ــ في حين أن أهالي البلاد التي فتحوها كانوا يعانون الأمرين في سبيل الحصول على لقمة العيش ــ راجع في ذلك الدينوري والطبري واليعقوبي والبلاذري وغيرهم من الذين أرخوا لتلك الفتوحات ــ فاضطر عمر إلى مضاعفة عقوبة شرب الخمر لعله يحدّ منه ولكنه لم يكن علاجاً نافعاً فقد أخذوا يشربونها في السر داخل بيوتهم وبعيداً عن عيون عمر ولعل واقعة تسوّر عمر (!!!) على أحد الشاربين في منزله وهي معروفة مشهورة، تؤكد ذلك.

٢١ ــ في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، **طُلَع**: يكثر التطلع إلى الشيء.

٢٢ ــ **المدراس**: المدرسة أو المعهد الذي تدرس فيه العلوم الدينية لدى يهود.

٢٣ ــ أخرجه أبو يعلي عن خالد بن عرفطة، وابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي ونصر المقدسي، كما في **الكنز** جـ ١ ص ٩٤. وأخرجه عبد الرازق وغيره عن إبراهيم النخعي ــ نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** للكاندهلوي ــ الجزء الثاني ص ١٢٤، ١٢٥.

٢٤ ــ **المصدر السابق**. وتهوّك أي تحير واضطرب في الأمر.

٢٥ ــ **المصدر السابق**.

٢٦ ــ كتاب **المغنى** لابن قدامة المقدسي ــ الجزء السابع ص ١٥ طبعة دار الغد العربي.

٢٧ ــ **الشرح الكبير** لشمس الدين المقدسي ــ على هامش **المغنى** المجلد السادس ــ ص ٣١٣ ــ طبعة دار الغد العربي بمصر.

٢٨ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ــ المجلد الثالث ص ١٨٨ ــ طبعة دار الشعب أخرجه ابن منده وأبو نعيم ــ وللحديث طرق أخرى في الرواية عن الشعبي.

٢٩ ــ في المعاجم والقواميس **الرعية:** الماشية التي ترعى وهو اللفظ الاصطلاحي الذي يطلق على المحكومين في الأدبيات الإسلامية منذ **(الفجر)** وهذا يشي بالنظرة إلى المحكومين والفرق واضح بين الرعية والمواطنين.

٣٠ ــ أخرجه أبو يعلي ــ نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** للكاندهلوي ــ الجزء/ الثالث ص ١٢٤.

٣١ ــ **المصدر السابق** ــ ص ١٢٥.

٣٢ ــ واعظ مشهور ــ يعدونه أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر ــ صرّح في التليفزيون مباهياً أنه منذ نيف وأربعين عاماً لم يقرأ سوى القرآن.

٣٣ ــ هذا الخبر ورد بروايات متقاربة في العديد من كتب الأحاديث: أخرجه الدارمي وابن عبد الحكم والخطيب وابن عساكر من طريق أنس والسائب ابن يزيد وأبي عثمان النهدي مطولاً ومختصراً وابن الأنباري من وجه آخر عن السائب بن يزيد عن عمر بسند صحيح. وأخرجه الإسماعيلي في جمعه حديث يحيى بن سعيد من هذا الوجه ــ كذا في **الإصابة.** نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي ــ المجلد الثالث ص ١٧٠/ ١٧١ أما فصل الخطاب بشأنه فهو أن الإمام مالك أورده في **الموطأ** ص ٢٨٢ من طبعة دار الشعب وبهامش الصفحة. رواية الدارمي له عن كل من نافع وابن يسار.

الفصل الثاني

التغنيم والتنفيل

الغنيمة هي المأخوذ من الكفار والمشركين بالقتال والغلبة والقهر وإيجاف الخيل والركاب، وعنصر العنوة والقوة ركن في الغنيمة وحكمها أن تخمس وأربعة الأخماس للمقاتلين والخمس مردود من الله للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل دون غيرهم، أما المقاتلون فأربعة الأخماس تقسم بينهم بالسوية مع تفضيل الراكب.

والفيىء هو المال الذي يؤخذ من العدو بدون قهر ولا غلبة ولا إيجاف خيل ولا ركاب أي بالصلح والتراضي وقد جاء ذكره في الآية السابعة من السورة التاسعة والخمسين وهي سورة الحشر.

أما النفل (بتحريك الفاء أو سكونها وهو الأشهر) فهو ما يعطى للمقاتل بعد تقسيم الغنيمة لحديث عبد الله بن عباس (لا نفل في غنيمة حتى تقسم جفة كلها) وكلمة جفة تأكيد لكلمة كلها، أي تقسم عن آخرها.

وهو حديث مشكل: فإذا قسمت الغنيمة كلها ولم يبق منها شيء

فمن أين يكون النفل إذن؟ ولكن الفقهاء وجدوا لهذا الإشكال حلاً وهو أن النفل يكون من الخمس يعطيه الإمام مَنْ يشاء دون معقب عليه من أحد[١]. ولكن الرد على ذلك أن مصارف الخمس محددة تحديداً دقيقاً كما ذكرنا آنفاً والآية السابعة من سورة الحشر حددت مصارف الفيىء؛ وعلى كل فنحن لسنا بصدد دراسة فقهية، ولكننا نركز على سياسة محمد المالية في دائرة الغنائم وتوابعها تجاه صحابته وكيف أنها ــ (= الغنائم وما إليها) كانت أداة فعالة في يده استعملها بمهارة فائقة في رياضة الصحاب.

وكان النفل أكثر فروع الغنائم بصدد إتاحة فرصة لمحمد لتنفيذ تلك السياسة لما يتمتع به (= النفل) من طبيعة مرنة رجراجة، بعيدة عن التحديد والضبط (فالنافلة هي: الغنيمة والعطية، وما تفعله مما لا يجب)[٢] وهي تدخل من باب التطوع لا الواجب ولا الفرض فهي (عطية التطوع ومنه نافلة الصلاة)[٣] ويلاحظ فيها أنها الزيادة على النصيب الواجب، ولا إلزام على مَنْ يعطيها لإنها هبة وهي (ما زاد على النصيب أو الحق أو الفرض)[٤] وقال الزهري: النفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل[٥] ويرى الإمام الشافعي أن (النفل شيء زيدوه غير الذي كان لهم)[٦] والمقصود بكلمة (زيدوه) هم الصحابة.

ولكن لا يُفهم من ذلك أن تحرك محمد انحصر في دائرة النفل فحسب وذلك لسببين:

الأول: أن محمداً كان هو القائد والمشرع في الوقت نفسه فما يفعله في دائرة الأحكام يعتبر تشريعاً وعلى الأصوليين والفقهاء بعد ذلك أن يستخلصوا ــ مما فعل أو قال أو سكت عنه مما كان يمارس بحضرته ــ القواعد والأحكام.

الآخر: أن كلمات: الغنائم والأنفال والفيىء ليس لها تعريف واضح محدد قاطع مانع في (النصوص) الأصلية[٧] والذي أدى هذه المهمة ــ فيما بعد ــ هم الأصوليون والفقهاء.

أما الأسلاب فقد كانت لها طبيعتها الخاصة التي جعلتها بعيدة عن مضمار التحرك الذي ذكرناه.

ف (السلَب) هو ما يستولي عليه القاتل ــ في ميدان المعركة ــ ممن قهره أو قتله مما في حوزته ثياباً كانت أو كُراعاً (سلاحاً) أو دابة وهو عرف انتقل إلى الإسلام من الحقبة التي تقدمته زمنياً مثل الكثير من الأعراف والنظم والتقاليد والعادات بل والطقوس (مثل الطواف حول الكعبة ورمى الجمرات.. الخ) في المجالات كافة، كما أسلفنا.

ولقد أقر محمد هذا العرف لتشجيع الأصحاب على الغزو والغارات فقال: (من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه)[٨]، ولقد نفَّذ الصحابة هذا الحديث باقتدار عجيب (عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ يعني يوم حنين: من قتل كافراً فله سلبه ــ فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم)[٩].

عندما يروي الخبر مالك بن أنس وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي وابن ماجه والبيهقي والطبراني وابن حبّان والحاكم؛ لا يجرؤ أحد على التشكيك في صحته.

ومن ثم فإن حديث محمد (من قتل قتيلاً... الخ) حقق نتائج مذهلة لم تكن في الحسبان.

وإذا كان القاتل يأخذ سلَب مقتوله أو مقهوره فوراً بمجرد أن يقدم

البرهان فإن هذه الدائرة ــ دائرة الأسلاب ــ تصير مغلقة في وجه الدراسة التي نطرحها في هذا الفصل.

٢

كان محمد يتمتع بفطانة نادرة ومن ثَمَّ فقد أدرك أهمية الغنائم والفيىء والأنفال والأسلاب لدى صحبه من أثر نشأتهم الأولى، فقد كانت الغارات التي تشنها القبائل على بعضها من أهم مصادر دخولها، ــ ربما باستثناء قريش التي احترفت التجارة بأنواعها ــ وقد عاش غالبية الصحابة شطراً كبيراً من عمرهم في ذلك المجتمع الذي استقر ذلك العرف في مستكن أحشائه، ومن السذاجة بمكان تصور أنه سيمحّى عنهم ما بين عشية وضحاها لأن مثل هذه العادات الاجتماعية لا تزول بمجرد سماع الأوامر والنواهي مهما كانت قوتها وأياً كان مصدرها.

هذا ما تنبه إليه محمد منذ اللحظة الأولى في تعامله مع الصحاب، ولعل مما زاد حدة التفاته إليه ذلك الخلاف المبكر على الغنائم في غزوة بدر الكبرى أولى الغزوات:

١ ــ (فكان عبادة بن الصامت فيما بلغني إذا سئل عن «الأنفال» قال: فينا يا معشر أهل بدر نزلت حين اختلفنا في النفل يوم بدر فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا فرده على رسول الله ــ ﷺ ــ فقسّمه بيننا على بواءٍ يقول على السواء)[١٠].

والخبر مليء بالدلالات التي تغني عن أي تعليق سوى أننا نسلط الضوء على عبارات ثلاث جاءت في ثناياه (معشر أهل بدر) و(اختلفنا في النفل يوم بدر) و(حين ساءت أخلاقنا).

وما ذكره عبادة بن الصامت من أن هذا الاختلاف هو علة نزول

سورة (الأنفال) يتفق مع ما سجّلته كتب «الحديث» و«أسباب النزول» و«السِّيَر» و«التفاسير» فقد أورد الواحدي النيسابوري قصة الخصومة عن عبادة مطوّلة في كتابه «أسباب النزول» كما ذكر غيرها من قصص المشاحنات بسبب الغنائم[١١].

وبالمثل فعل السيوطي في (أسباب النزول) نقلاً عن أبي داود والنسائي وابن حبّان، والحاكم عن ابن عباس[١٢].

ويؤكد ابن هشام واقعات الاختلاف والتنازع تلك:

٢ ــ (قال ابن اسحق: فلما انقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن «الأنفال» بأسرها، فكان مما نزل فيها في اختلافهم في النفل حين اختلفوا فيه «يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله وللرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين»)[١٣] وإصلاح ذات البين لا يجيء إلاّ عند الشقاق والمناقرة.

أما الواقدي فيذكر:

٣ ــ («يسئلونك عن الأنفال» قال: لما غنم رسول الله ــ ﷺ ــ يوم بدر اختلفوا فادعت كل طائفة أنها أحق به فنزلت هذه الآية)[١٤].

ويورد الفخر الرازي صورة لإحدى تلك النزاعات:

٤ ــ (روي أن يوم بدر، الشبان قتلوا وأسروا والأشياخ وقفوا مع رسول الله ــ ﷺ ــ في المصاف، فقال الشبان: الغنائم لنا لأننا قتلنا وهزمنا، وقال الأشياخ: كنا ردءاً لكم ولو انهزتم لانحزتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، فوقعت المخاصمة بهذا السبب فنزلت الآية)[١٥].

أما الخبر التالي فيدلنا على أنَّ التنازع والتشاحن على مغانم «بدر»

شمل عدداً من كبار الصحابة وأعيانهم منهم أحد السعدين: سعد بن معاذ سيد الأوس (الفرع الآخر من الأنصار):

٥ ــ (طارق بن عبيد بن مسعود أحد الذين أسروا الأسرى يوم بدر:

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: قال أبو اليسر ومالك بن الدخشم العوفي وطارق بن عبيد بن مسعود الأنصاري: يا رسول الله إنك قلت: من جاء بأسير فله كذا وكذا، ومن قتل قتيلاً فله كذا وكذا، وقد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين؟

وقال سعد بن معاذ: يا رسول الله ما منعنا أن نفعل كما فعل هؤلاء إلاَّ أنا كنا ردءاً للمسلمين من ورائهم أن يصاب منهم عورة، الغنائم قليل والناس كثير فمتى تعط الذين نفلتهم يبقِ الناس لا شيء لهم، وتراجعوا الكلام فنزلت «يسألونك عن الأنفال لله والرسول»)[١٦] و[١٧] ويبدو أن اللهفة على توزيع الغنائم والاندفاع للحصول عليها ظل مستمراً إذ نطالع في كتب السيرة النبوية صورة صارخة تقطع باستمراره حتى وقت متأخر ــ بعد عركة حنين ــ بسبب الغنائم الوفيرة التي نتجت عنها: ــ

٦ ــ (عن الأوزاعي عن عمر بن شعيب قال: لما هبط رسول الله ــ ﷺ ــ عقبة الأريك ضوى (= أوى) إليه المسلمون يسألونه غنائمهم حتى عدلوا راحلته عن الطريق وحتى تعلقت سمرة بردائه وخدشت ظهره فقال: اعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لا تجدونى كذوباً ولا بخيلاً ولا جباناً، ولو كانت غنائمكم مثل سمر تهامة نعماً لقسمتها بينكم ومالى فيها إلا الخمس والخمس مردود عليكم)[١٨].

هذا الخبر صحيح لا شائبة فيه بعد أن أوردته المصادر الكبيرة المعتمدة

وهو ينطق بذاته على الحرص البالغ على الحصول على الغنائم وبسرعة واندفاع ولعل قول محمد لهم «ولو كانت غنائمكم مثل سمر تهامة نعماً لقسمتها بينكم ومالى فيها إلاّ الخمس والخمس مردود عليكم» يؤكد ما ذهبنا إليه من أنه فطن إلى قدر الغنائم في نظرهم وتمسكهم بالحصول عليها على عجلة، ولعل ما غذى تلك اللهفة أن (سَبْيَ حنين كان ستة آلاف رأس)[١٩] و(كانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير وكانت الغنم لا يدرى عددها، قد قالوا: أربعين ألف ألف وأقل وأكثر... وأربعة آلاف أوقية من فضة)[٢٠].

٣

إذن الغنائم والأنفال والفيىء والأسلاب (ج سلب) مسألة كانت تحظى بقدر وفير من اهتمام الصحابة ــ أو غالبيتهم التي أدركت الإسلام على كبر ــ ولاحظ محمد ذلك ووعاه، وكان من كمال قيادته أن يحقق لهم هذا المطلب فيشبع لديهم ناحيتين: مادية وهي سد الخلة[٢١]، ونفسية وهي الشعور بالغلبة والنصرة على العدو وقهره بالاستيلاء على أمواله وحريمه.

ولذلك كان يسارع بتقسيم الغنائم ونفح الأنفال عقب المعركة مباشرة وفي ميدانها قبل أن يكر راجعاً حتى تهدأ نفوس صحبه وتستقر وتطمئن أنها حصلت على نصيبها من المغانم وأن خروجها للعرك والقتال وتعريض حياتها للخطر لم يكن بغير عائد ولا طائل بل على العكس رجع بفائدة جزيلة ومكاسب وفيرة:

(قال الأوزاعي: لم يقفل رسول الله ــ ﷺ ــ من غزوة أصاب فيها مغنماً إلاَّ خمَّسه وقسم قبل أن يقفل (= يرجع)، من ذلك: غزوة بني

المصطلق، وهوازن ويوم حنين وخيبر)[٢٢].

(وأكد هذه الحقيقة التاريخية الإمام الشافعي شيخ المذهب:

قال الشافعي: وذلك أن النبي ــ ﷺ ــ قسم أموال بني المصطلق وسَبْيَهُم في الموضع الذي غنمه قبل أن يتحول عنه، وما حوله كله بلاد شرك، وقسم أموال أهل بدر بـ (سَيَر)، على أميال من بدر، ومَنْ حول (سَيَر) وأهله مشركون)[٢٣]، وعلى سبيل المثال إثر الانتهاء من غزوة حنين جُمع السبى وحبس في الجعرانة وكان ستة آلاف:

١ ــ (... وقد كان فَرق منه وأعطى رجالاً:

عبد الرحمن بن عوف كانت عنده امرأة منهن وطئها بالمِلْك وكان رسول الله ــ ﷺ ــ وقد وهبها له بـ «حنين» فردها إلى الجعرانة حتى حاضت فوطئها وأعطى صفوان بن أمية أخرى وأعطى عَليّ بن أبي طالب جارية يُقال لها ريطة... وأعطى عثمان جارية يقال لها زينب... فوطئها عثمان فكرهته ولم يكن عليّ وطيئاً وأعطى عمر بن الخطاب جارية فأعطاها عمر ابنه عبد الله بن عمر فبعث بها ابن عمر إلى أخواله بمكة بني جُمح ليصلحوا منها حتى يطوف بالبيت ثم يأتيهم وكانت جارية وضيئة مُعجبة؛ وأعطى رسول الله ــ ﷺ ــ جبير بن مطعم جارية من سبي هوازن فلم توطأ وأعطى رسول الله ــ ﷺ ــ طلحة بن عبيد الله جارية فوطئها طلحة وأعطى سعد بن أبي وقاص جارية وأعطى رسول الله ــ ﷺ ــ أبا عبيدة بن الجراح جارية فوطئها وأعطى رسول الله ــ ﷺ ــ الزبير بن العوام جارية، وهذا كله بـ حنين)[٢٤].

هذا الخبر يدلنا على أن محمداً قد وهب ــ عقيب المعركة ــ كبار أصحابه كل واحد منهم جارية وُصفت إحداهن بأنها «وضيئة معجبة» ــ

أي فائقة الحسن والجمال ــ بعضهم افترشها أو وطئها وبعضهم لم تتح له فرصة مفاخذتها أو مجامعتها إذ أصدر محمد أمراً آخر بردّ السبايا إلى أهلهن ومن الذين لم يتمكنوا من الوطء عبد الله بن عمر، ونلاحظ أن الذين نفحهم محمد السبايا الحسان كلهم من قريش ومنهم ثمانية (١/ عبد الرحمن، ٢/ عليّ، ٣/ عمر، ٤/ عثمان، ٥/ طلحة، ٦/ سعد، ٧/ أبو عبيدة، ٨/ الزبير) من «العشرة المبشرين بالجنة» وهم مجلس شورى محمد الذي حل محل «ملأ قريش» أو «حكومة مكة» قبل الإسلام، ولقد كان منح محمد لهم الجواري ذروة الحنكة منه، فقد عاشوا باستثناء عليّ ــ ردحاً طويلاً من عمرهم في فترة ما قبل الإسلام، وهم إن كانوا قرشيين ــ إلا أن عرف الحصول على الغنائم والأنفال والسبايا والأسلاب إثر الغارات كان طاغياً على مجتمع شبه الجزيرة العربية آنذاك وهم لا مشاحة تأثروا به بل هو مترسبٌ في أعماق شعورهم ويزداد يقيناً بحصافة محمد ودربته في سياسته لصحابه، إذا علمنا أن أولئك جميعهم ما عدا عليّاً وعمر ممن ولّوا مدبرين مع المنهزمين «يوم حنين».

(وبقي رسول الله ــ ﷺ ــ في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته: العباس وعليّ والفضل بن عباس، وأسامة بن زيد وأبو بكر وعمر عليهم السلام)[٢٥]، وقد جاء بالخبر أن محمداً عند هجوم هوازن عليه لم يبقَ معه إلاّ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته و(النَفَر ــ بفتحتين ــ عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة)[٢٦] وأكد السهيلي أن أصحاب محمد فروا عنه (حتى لم يبقَ منهم إلاّ ثمانية)[٢٧] وسجّل القرآن عليهم ذلك الموقف (ثم وليتم مُدبرين)[٢٨] وقال أبو سفيان بن حرب مستهزئاً وكان حديث عهد بالإسلام (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر)[٢٩].

لو كان القائد غير محمد في تلك الوقعة لعاقب الفارين ومن بينهم أولئك الذين وهبهم الجواري الحُلوات المُلاحات ــ باستثناء عمر وعليّ ــ لكنه اغتفر لهم فرارهم من الزحف رغم أنه كبيرة بنص القرآن[٣٠] لأنه كان شديد البراعة في معالجة صحبه.

* * *

حتى الذين لم يشتركوا في القتال اشتراكاً فعلياً كان محمد يحرص على مراضاتهم: ــ

(إنه ــ ﷺ ــ قسّم ما غنموه يوم بدر على من حضر، وعلى أقوام لم يحضروا أيضاً وهم ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار، فأما المهاجرون فأحدهم عثمان فإنه عليه السلام تركه على ابنته لأنها كانت مريضة وطلحة وسعيد بن زيد فإنه ــ ﷺ ــ كان قد بعثهما للتجسس عن خبر العير وخرجا في طريق الشام)[٣١]، ويلفت الانتباه في هذا الخبر أن الثلاثة المهاجرين كلهم من قريش ومن مجلس الشورى «العشرة المبشرين بالجنة» أو الصورة الإسلامية لـ «ملأ قريش» حاكم مكة قبل الإسلام، والأنصار الخمسة حالت ظروف صعيبة بينهم وبين القتال في المعركة، ومن ثم رأى محمد ألا يحرمهم مهاجرين وأنصاراً من (القسمة) لهم لأنها تمثل رأس مال رمزي ــ بغض النظر عن القيمة المادية ولذلك يعد هؤلاء ــ لدى كُتّاب السِيَر والإخباريين ــ ممن شهد بدراً معنوياً وإن لم يشترك فيها جسدياً مستندين في ذلك إلى (قسمة) محمد لهم إذ عدّوا ذلك إقراراً بالمساواة بالمساهمة الفعلية في الغزوة، وقد رأينا في الفصل الخاص بـ «تعريف الصحابة» أن شهود بدر يعتبر رتبة عالية لدى الصحابة، كما أن محمداً قدّر بثاقب بصره ألا يعزل عنها (= الرتبة) ثلاثة من مجلس شوراه «العشرة المبشرين بالجنة»، خاصة وأنهم في وقت

العراك كانوا يؤدون واجبات جسيمة، وأن حجبهم عن هذه الدرجة الرفيعة يُخِلّ بشرف عضويتهم بالمجلس.

* * *

ومما يكشف عن اهتمام الصحاب بمسألة الغنائم وملحقاتها والتفاتهم إليها والتطلع دائماً صوبها أنه في غزوة بني النضير تمت المصالحة بين محمد واليهود الذين خلّفوا وراءهم الشيء الكثير من الأموال والحلقة (الأسلحة) فاستشرفت إليها نفوس الصحب وعبّر عن رغبتهم عمر بن الخطاب وسوف نرى فيما بعد أنه كان جريئاً في مخاطبة محمد ــ فقال (يا رسول الله ألا تخمّس ما أصبت من بني النضير كما خمّست ما أصبت من بدر)[٣٢].

ونرجح أن محمداً كان بوده أن يفعل كدأبه في تطييب خواطرهم ولمعرفته العميقة بتعلق نفوسهم بالمغانم وما إليها، ولكنه لم يستطع لأنه كان قد تلا عليهم آيات من القرآن تجعلها لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل[٣٣] ومن ثم كان رده حاسماً على وافد الصحابة ومندوبهم في هذا الشأن: ابن الخطاب (لا أجعل شيئاً جعله الله لى دون المؤمنين بقوله تعالى «ما أفاه الله على رسوله من أهل القرى...» الآية كهيئة ما وقع فيه السُهمان للمسلمين)[٣٤]، وفهم عمر من ذلك أن غنائم بني النضير هي من صفايا محمد وأن «الفىء» هو البديل الإسلامي لـ«الصفىّ» ولو أنه ليس البديل الوحيد لأن لمحمد صفيّاً من كل غنيمة يصطفيه لنفسه مالاً كان أو حلقة أو سبياً وأبرز مثل على ذلك تذكره كتب السيرة: صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية؛ إذن «الفىء» يمكن أن يطلق عليه «صفىّ إضافي»، ولذلك (كان عمر بن الخطاب ــ رض ــ يقول كان لرسول الله ــ ﷺ ــ ثلاث صفايا ــ فكانت

بنو النضير حُبساً (= وقفا) لنوائبه...)[٣٥] وكلها «فىء» ولكن ابن الخطاب اعتبرها صفايا وبذلك سوّى بين الفيىء والصفىّ.

والصفايا هي التي كان يأخذها رئيس أو زعيم القبيلة لنفسه من الغنائم في الغارات ــ دون باقي المغيرين ــ وكان ذلك عرف مستقر في الجزيرة العربية بأسرها ولدى جميع القبائل بلا استثناء[٣٦]؛ ففي القاموس المحيط للفيروزآبادي (الصفيّ من الغنيمة ما اختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة)[٣٧].

وبانتقال هذا العرف إلى الإسلام أصبح تعريف الصفيّ (هو شيء نفيس كان يصطفيه النبي ــ ﷺ ــ لنفسه كسيف أو قوس أو أمة)[٣٨] ولم يكن أحد من أفراد القبيلة يعترض أو يمد عينيه إلى صفيّ أو صفية الرئيس.

* * *

ولهذا ولغيره قلنا ولا زلنا نكرر أن معرفة الأعراف والتقاليد والعادات والأنظمة التي كانت متجذرة في أعماق مجتمع الحقبة المتقدمة على الإسلام ضرورية للغاية لتفسير «النصوص» المتعلقة بالأحكام ولفهمها الفهم الأمثل وبالتالي الوصول إلى الإجابة الصحيحة عن سؤال على قدر وفير من الخطر وهو:

هل هذه «النصوص» متعلقة بالمجتمع الذي انبثقت من باطنه وتخلقت في أعماقه أم هي ليست كذلك وتتمتع بالعمومية والاتساع والشمولية؟ إن الإجابة عن هذا السؤال الجوهري ستضع كثيراً من النقاط فوق الحروف وسوف ترفع العنت والحرج والضيق عن المخاطبين بتلك «النصوص».

٣

لم تكن عطايا أو نفحات محمد جميعها من نواتج الغزوات والسرايا والبعوث فحسب ولم تقتصر مهمتها على إشباع رغبات ذلك العرف الذي ألفه الصحاب قبل دخولهم الإسلام.

إن التنفيل كان أداة فعالة استعملها محمد باقتدار فائق مع صحبه في سبيل ضمهم إلى صفة ثم صبغهم بالصبغة الإسلامية وهذه أمثلة:

أ ــ (عن اسحق عن عبد الله بن أبي بكر قال:

جاء بلال بن الحارث المزني إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فاستقطعه أرضاً فأقطعها له طويلة عريضة)[٣٩].

وبلال بن الحارث كان أحد زعماء مُزينة وحامل لوائها يوم فتح مكة (وفد على النبي ــ ﷺ ــ في وفد مُزينة سنة خمس من الهجرة... وكان يحمل ألوية مُزينة يوم الفتح)[٤٠] وذكر ابن الأثير الجزري في ترجمته ذات المعلومات وأضاف أن الأرض التي أقطعه إياها محمد هي (العقيق)[٤١] والمقصود به عقيق المدينة وفيه عيون نخل.

إن استقطاب أحد زعماء القبائل عمل سياسي ماهر، إذ ستكون ثمرته أن قبيلته من ورائه سوف تدخل دين محمد وتكون عوناً لدولته القرشية. وإقطاع هذا الزعيم أو الرئيس أحد أودية يثرب/ المدينة ذات النخل فكرة بارعة نفذها محمد بإتقان لا مثيل له ولا عجب أنها آتت أكلها وصبغت مُزينة بأكملها بصبغة الإسلام حتى إنها شكّلت إحدى الكتائب التي ساهمت في فتح مكة مدينة القداسة ومعقل صناديد قريش الذين ناصبوا محمداً العداء لما يقرب من ربع قرن وقيل إن كتيبة مزينة ضمت ألف مقاتل.

ب ــ (عن عديّ بن حاتم أن رسول الله ــ ﷺ ــ أقطع فرات بن حيان العجلي أرضاً باليمامة)[٤٢] وذكر ابن الأثير أن هذه الأرض (تغل أربعة آلاف)[٤٣].

هو فرات بن حيان بن ثعلبة العجلي ــ كان عيناً أي جاسوساً لعدو محمد الأول أبي سفيان وقائد صناديد قريش في حربها ضد محمد[٤٤].

إذن فرات كان شخصية حربية على درجة من الأهمية لدى العدو، ويؤكد ذلك ابن الأثير الجزري فيصفه بأنه «دليل قريش» أي يدل قوافلها على الدروب التي تسلكها تفادياً لرصد محمد لها؛ وفي إحدى المرات (بعث رسول الله ــ ﷺ ــ سرية مع زيد بن حارثة ليعترضوا عير قريش وكان دليل قريش فرات بن حيان فأصابوا العير وأسروا فرات بن حيان فأتوا به رسول الله ــ ﷺ ــ فلم يقتله)[٤٥]، والكف عن قتل فرات يقطع بأن محمداً كان يتمتع بعقلية فذة وبصيرة نفاذة لأن فراتاً وقد كان عيناً لأبى سفيان ودليلاً لقريش لا بد أن لديه معلومات عن العدو، لا تقدر بثمن، ولذلك استحياه محمد، فقد ادّعى فرات أنه مسلم فصدقه محمد بل وزكاه (فقال رسول الله ﷺ ــ إن فيكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان)[٤٦]، ولم يكتف محمد بالتزكية بل أقطعه أرضاً بـ «اليمامة» تغل أربعة آلاف وهو مبلغ جسيم بحساب تلك الأيام.

وطرحت الخطة البارعة التي رسمها محمد ونفَّذها حيال فرات ثمرة شهية فقد أصبح فرات من أخلص جنود محمد، فعندما بدأ مسيلمة حركته الارتدادية أرسل محمد فراتاً ــ مع آخرين ــ لقتله[٤٧] و[٤٨]؛ ولا شك أن محمداً في هذه المهمة وظّف خبرة فرات كجاسوس محترف.

وتكليف محمد لفرات بهذا الأمر يفسّر لنا تساؤلاً لا بد أنه دار في

الذهن: لماذا أقطع محمد فراتاً أرضاً باليمامة تحديداً وليس بيثرب/ المدينة أو الطائف...؟ لأن حركة مسيلمة الارتدادية(٤٩) نشبت في أرض اليمامة، فكان على فرات إذن أن يدافع عن الإقطاعية ذات الدخل الوفير، وذلك بقتل رأس حركة الارتداد مسليمة، حتى لا تسيطر على اليمامة كلها بما فيها تلك الإقطاعية.

إن التنفيل هنا وإن أخذ ذات الهيئة السابقة وهي الإقطاع إلا أن هدفه كان تحويل عين «جاسوس» و«دليل» للعدو إلى تابع مخلص وصبغه بالصبغة الإسلامية وتطبيعه حتى غدا أهلاً للقيام بمأمورية ذات شأن كبير وهي اغتيال قائد حركة ارتدادية من أخطر حركات الارتداد التي ظهرت في أواخر حياة محمد وامتدت حتى عهد خليفته الأول أبي بكرٍ بن أبي قحافة.

* * *

هناك مصرف آخر وجهه محمد بحنكة لخدمة هدفه وهو تطويع الصحابة ووضعهم في خدمة الدين الذي بشر به والدولة التي أقامها وهو «تأليف القلوب» وهو أحد مصارف الزكاة ولكننا سوف نرى فيما بعد أن منح «المؤلفة قلوبهم» النفحات الجزيلة لم يكن من الزكاة فحسب بل كان من الغنائم والفيء لأنَّ محمداً كما قلنا مطلق اليد في هذا المجال فهو القائد والمشرِّع في آن واحد وما يفعله تشريع لا يسع المؤمنين إلا إتباعه؛ فقوله وفعله وإقراره سنة والسنة هي المصدر الثاني في الإسلام.

هناك تعريفات متعددة لـ «المؤلفة قلوبهم» سنورد بعضها ثم نذكر رأينا والتعريف الصحيح أو الأقرب إلى الصحة: ــ

١ ــ يعرّف سفيان الثوري «المؤلفة قلوبهم» أنهم (من يُدفع لهم

سهم من الزكاة اتقاءً لشرهم أو تحبيباً لهم بالإسلام)[٥٠]، وسفيان الثوري من علماء القرن الثاني الهجري، ونلاحظ أنه حدد المصدر وهو الزكاة، ولكنه ذكر سببين للنفح الأول: باتقاء الشر والآخر: تحبيب الإسلام لهم.

٢ ــ أما الفرّاء وهو أيضاً من علماء القرن الثاني الهجري وإن جاء متأخراً عن الثوري، فيذهب إلى أن المؤلفة قلوبهم هم أشراف العرب، كان رسول الله ــ ﷺ ــ يعطيهم ليجترّ إسلام قومهم)[٥١] فالفرّاء هنا علل عطاء محمد لـ «المؤلفة قلوبهم»: ليقوموا بإدخال قبائلهم في الإسلام ولكنه لم يذكر المصدر كما فعل الثوري[٥٢].

٣ ــ تشيع النكهة الفقهية في تعريف محمد بن إدريس شيخ مذهب الشافعية فهو يقول (والمؤلفة قلوبهم مَنْ دخل الإسلام ولا يُعطى مشركٌ يتألف على الإسلام)[٥٣] فهو هنا يلتزم التزاماً صارماً بـ «النص» ويقرر بحزم (ولا يُعطى من الصدقة مشرك)[٥٤]، ولكنه يصطدم في هذا التعريف بما أعطاه محمد لبعض المشركين من الغنائم التي احتازها بـ «غزوة حنين» لمن أطلق عليهم «المؤلفة قلوبهم»، فيحل الشافعي هذا المشكل بقوله (فتلك العطايا من الفيء ومن مال النبي ــ ﷺ ــ خاصة لا من مال الصدقة ومباح له أن يعطي من ماله)[٥٥]؛ وهنا نذكر بما قلناه إن ما يفعله محمد ــ في هذه الخصوصية بالذات ــ يعد تشريعاً، وعلى الفقهاء من أمثال محمد بن إدريس الشافعي أن يخرّجوه ويقعّدوه... الخ.

٤ ــ ثم نصل إلى المتأخرين من الفقهاء، بعد أن استقرت المذاهب الفقهية على أربعة وانقطع وجود المجتهد المطلق، ولنأخذ مثالاً منهم شمس الدين المقدسي من علماء القرن الثامن الهجري (هذه الحقبة يطلق عليه بعض الباحثين عصر الانحطاط والبعض الآخر يسميها الاجترارية أو

المدرسية التي تدرس فقه فترة الازدهار وتجتره وتشتغل عليه تعليقاً أو اختصار أو تحشية دون إبداع جديد).

يعرِّف شمس الدين المقدسي «المؤلفة قلوبهم» بأنهم (السادة المطاعون في عشائرهم ممن يرجى إسلامه ويخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه أو إسلام نظيره أو جباية الزكاة ممن لا يعطيها أو الدفع عن المسلمين... وأن حكمهم انقطع)[٥٦]، وهو تعريف أعرض من سابقيه ولم يلتزم بالأفق الفقهي مثلما فعل محمد بن إدريس الشافعي بل ضمّنه البعد التاريخي السياسي الذي مارس فيه محمد عملية تأليف القلوب.

والذي نراه من استقراء الواقعات التاريخية المتعلقة بهذا الشأن ومن جُمَّاع التعريفات السابقة، أن: «المؤلفة قلوبهم هم سادة وقادة لهم تأثير على تابعيهم من أتباع القبائل والأفخاذ والبطون... وكان لهم موقف سلبي، والعطاء والمنح لهم من قِبَل محمد كان الهدف منه كسر شوكة هذا العداء وتحويله من السلب إلى الإيجاب وما يستتبعه ذلك من آثار عليهم وعلى من خلفهم».

ولعل هذا يتضح من ذات اللفظ «المؤلّفة قلوبهم» أي الذين كانت قلوبهم مخالفة أو مغايرة أو متنافرة مع دين محمد ودولته وتناولهم تلك العطايا التي كثيراً ما كانت جزيلة تألفت مع محمد ودعوته ودولته وتحولت من النقيض إلى النقيض، وكان الإسلام آنذاك في أمس الحاجة إلى عطف قلوبهم عليه وهذا الخطاب كان من أجرأ الصحابة على الإفصاح عما يرى أنه حق وحتى ولو في حضرة محمد: ــ

وموجز الواقعة أن الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وهما من

«المؤلفة قلوبهم» وسنورد أخبارهما مفصلة بعد قليل جاءا إلى أبي بكر بن أبي قحافة وهو خليفة واستقطعاه أرضاً فأقطعهما إياها وكتب لهما كتاباً ولكن عمر (بصق في الكتاب فمحاه وقال: إن رسول الله كان يتألفكما والإسلام يومئذٍ ذليل وإن الله قد أعز الإسلام فاذهبا واجهدا جهدكما)(٥٧).

إذن الهدف الرئيس هو إزالة العداء من نفوس أولئك وتحويلهم من أعداء إلى أصدقاء وحلفاء مناصرين وما يستتبع ذلك بالضرورة من إدخال أقوامهم حظيرة الإسلام وصبغتهم بصبغته ويتم ذلك بطريق سهل ميسور وهو العطايا الجسيمة بدلاً من المحاربة والمواجهة ولم تكن الظروف مواتية لها؛ ولكنْ قد تتحقق بعض المقاصد الجانبية مع الهدف المنشود أساساً.

* * *

إذن فهذا الصنف من الناس ــ بخلاف من ذكرنا مَنْ قبل مثل: بلال بين الحارث وفرات بن حيان، وسوف نلحظ في الوقائع التي سنوردها أن محمداً كان يبالغ في عطائهم مبالغة أدارت رؤوسهم وجعلت أحدهم يصيح: هذا عطاء مَنْ لا يخشى الفقر ــ مع أنه كان وقت النفح مشركاً:

جـ ــ (فإن النبي ــ ﷺ ــ يوم فتح مكة أعطى صفوان بن أمية الأمان واستصبره صفوان أربعة أشهر لينظر في أمره وخرج معه إلى حنين، فلما أعطى النبي ــ ﷺ ــ العطايا، قال صفوان: مالى؟ فأومأ النبي ــ ﷺ ــ إلى وادٍ فيه إبل محملة، فقال هذا لك، فقال صفوان: هذا عطاء من لا يخشى الفقر)(٥٨) وصفوان بن أمية شخصية متآمرة، فقد دبّر مؤامرة في مكة لاغتيال محمد في يثرب/ المدينة وأرسل شيطاناً من مردة قريش وهو عمير بن وهب بن خلف الجمحي ليفتك بمحمد، وضمن له أن

يؤدي عنه دينه وأن يخلفه في أهله وعياله ولا ينقصهم شيء ما بقوا[٥٩]، فجهزه صفوان وأمر له بسيف فسمّ وصُقل وقدم يثرب/ المدينة ولكن أمره انكشف لأنَّ لمحمد عيوناً «جواسيس» في مكة يرصدون بدقة كل حركة ويبلغونه بها فوراً، وحرساً يقظاً شديداً اختاره من بين الصحاب ووضع على رأسه مهاجراً قرشياً من مجلس «العشرة المبشرين بالجنة» هو عمر بن الخطاب، لذا فما إن رأى عميراً يخطو نحو المسجد حتى أسرع إليه ولبّبه (أخذ بخناقه) وجرّه إلى محمد ونشر (= عمر) سرية الحرس حول محمد محذراً إياهم من عمير وأمرهم بحزم أن (ادخلوا على رسول الله ـ ﷺ ـ واحترسوا من عمير)[٦٠]، وأسقط في يد عمير الذي لم يكن يتوقع شيئاً من ذلك وأخفقت المؤامرة، واضطر صفوان إلى أن يبتلع خيبته ويجترها.

إذن صفوان بن أمية كان موقفه من محمد شديد العداوة بلغ حد تدبير مؤامرة للفتك بن غيلة وغدراً وخيانة وخسة، فتأليف محمد قلبه خطوة لازمة كان على محمد أن يخطوها، خاصة بعد إصرار صفوان على شِرْكه حتى بعد فتح مكة في حين أن أغلب الصناديد أسلموا آنذاك بعد أن تيقنوا أن محمداً صار سيد العرب وأن الوقوف في وجهه عبث ـ ولكن لما عرض محمد الإسلام على صفوان راوغ وماطل وطلب مهلة مدتها أربعة أشهر فلم يعد أمام محمد من سبيل إلاّ التأليف بالعطية الوافرة التي تعد حتى بمقياس هذه الأيام ثروة طائلة وفعلت (= العطية) فعل السحر في نفس صفوان وفوراً أسلم ودخل دين محمد، يخبرنا الواقدي أن محمداً بعد أن قال له (هو لك وما فيه، فقال: أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلاّ نبى وأشهد أنك رسول الله)[٦١].

وعلة العداوة الدفينة التي كان يكنها صفوان لمحمد أنه (= محمد)

قتل بيده عمه أبيّ بن خلف، طعنه فصرعه فمات من جرحه وذلك في عركة بدر كما أن أباه أمية بن خلف قتل فيها[٦٢] وجرّوا جيفته من رجليه وألقوها في القليب، إذن صفوان موتور من محمد بصورة مضاعفة.

وسبب آخر يضاف إلى علة تأليفه هو أنه كان (أحد أشراف قريش في الجاهلية وكان أحد المطعمين، فكان يقال له: سداد البطحاء وكان أفصح قريش)[٦٣].

وحتى بعد إسلامه كان محمد يوالي تأليفه حتى يضمن تمام صباغته بالصبغة الإسلامية فكان يقربه ويدنيه منه ويناديه بكنيته «أبا وهب» والنداء بالكنية وقتذاك بل حتى الآن عند العرب من علامات الوداد والإعزاز.

* * *

د ــ (فجمعت الغنائم بين يدى النبي ــ ﷺ ــ فجاء أبو سفيان بن حرب وبين يدي النبي الفضة فقال: يا رسول الله أصبحتَ أكثر قريش مالاً، فتبسم رسول الله ــ ﷺ ــ وقال: أبو سفيان أعطني من هذا المال يا رسول الله، قال: يا بلال زن لأبى سفيان أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل، قال أبو سفيان: ابني يزيد أعطه، قال رسول الله ــ ﷺ ــ زنوا ليزيد أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل، قال أبو سفيان: ابني معاوية يا رسول الله قال: زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل، قال أبو سفيان: إنك لكريم فداك أبي وأمي، ولقد حاربتك فنعم المحارَب كنت ثم سالمتك فنعم المسالم أنت جزاك الله خيراً)[٦٤] و[٦٥].

وأبو سفيان سيد قريش وزعميها وقائد صناديدها في قتالهم لمحمد، وتأليفه ومن معه من البنين لا يحتاج منا إلى تحليل.

هـ ــ (قال: حدثني معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، قالا: حدثنا حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ــ ﷺ ــ بـ «حُنين» مائة من الإبل فأعطانيها ثم سألته مائة فأعطانيها ثم سألته مائة فأعطانيها)[٦٦] و[٦٧].

وكان حكيم ضالعاً في حرب محمد وشارك في غزوة بدر الكبرى مع مشركي قريش (وكان من أشراف قريش ووجوهها في الجاهلية والإسلام) و(قال مصعب: جاء الإسلام ودار الندوة بيد حكيم بن حزام)[٦٩]، ودار الندوة هي مقر حكومة «ملأ قريش» وقد بناها قصيّ بن كلاب المؤسس الأول لدولة قريش[٧٠].

مثل هذا الشخصية البارزة في قريش لا يغيب عن محمد أن يتألفها، هذا بالإضافة إلى أن حكيماً هو ابن أخي خديجة الزوجة الأولى لمحمد وقد عرف عنه إكرام كل من يمت لها بصلة حتى صديقاتها ولا غرو فهي على حد تعبيره التي واسته بمالها وقد ذكرنا أن ذلك أتاح له فرصة الاعتكاف والتأمل والدراسة والاختلاط بأهل الكتاب وملازمة المتحنفين... الخ.

وأتى تأليف محمد لحكيم بنتائج مبهرة فقد حسن إسلامه (وحج ومعه مائة بدنة قد جللها بالحبرة وكفها عن أعجازها وأهداها)[٧١].

و ــ (وأعطى في العرب: الأقرع بن حابس التميمي مائة من الإبل وأعطى عيينة بن بدر الفزاري مائة من الإبل)[٧٢] و[٧٣].

وأعطى غيرهم من العرب ومن قريش منائح متفاوتة ولكننا نكتفي بهما لنختم هذه الدراسة عن «التأليف» و«المؤلفة قلوبهم» إذ الباقون لا يختلفون عنهما:

الأقرع بن حابس التميمي من أشراف تميم وهي القبيلة التي ظهرت فيها حركة ارتداد قادتها سجاح وساهمت بدور كبير فيما بعد فيما عُرف بـ «حروب الردة» حتى إن خالد بن الوليد لم يدع بني تميم حتى قضى في ديارهم على كل نافخ نار للفتنة أو في رمادها، وهي من القبائل التي عرفت المسيحية طريقها إليها مثل تغلب وقضاعة وطيئ ومذحج وغسّان وربيعة، ولعل صلابة تميم وعنادها في «حروب الردة» وخروج واحدة من قواد حركة الارتداد منها مرجعه إلى انتشار المسيحية فيها خاصة وقد ذُكر أن تلك الزعيمة وهي سجاج قد تنصّرت قبل إعلان ارتدادها وقيادتها للحركة[٧٤].

والذي لا مرية فيه أن محمداً بما له من أرصاد وعيون، كان يعلم كل ذلك عن تميم نعني فشو المسيحية فيها فأراد أن يتألفها في شخص أحد أشرافها وهو الأقرع الذي كان مفرط الثقة في نفسه ومكانته لدى قومه بل ربما لدى عرب الجزيرة فنراه يقول لمحمد (إن مدحي زين وذمي شين)[٧٥].

وكان من رؤوس الوفد الذين دخلوا مسجد محمد ونادوه بصوت مرتفع من وراء الحجرات: ــ أن اخرج إلينا يا محمد (فآذى ذلك من صياحهم النبي ــ ﷺ ــ فخرج إليهم فقالوا يا محمد جئنا ننافرك ونزل فيهم القرآن «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون»)[٧٦] وكان معهم شاعرهم وخطيبهم اللذان نافرا خطيب محمد وشاعره وساهم الأقرع نفسه في هذه المنافرة وألقى أبياتاً من الشعر في الفخر تدل على النرجسية المفرطة منها: ــ

وإنا رؤوس الناس من كل معشر   وأنْ ليس في أرض الحجاز كدارم[٧٧]

وهذه الواقعة بجميع فصولها من المناداة خلف الحجرات إلى المَنافرة بين الخطيبين والشاعرين تقطع بأن قبيلة تميم تعتز بنفسها وتشعر بمكانتها وحسبها ونسبها وسطوتها.

فتأليف محمد للأقرع يدخل ضمن الخطة التي رسمها لتطويع مثل هذا الرئيس وكسبه لصفه وتحويله من منافر إلى تابع مطيع وبالتالي قبيلته، ونجحت الخطة فيما يتعلق بالأقرع نفسه، دون قبيلته فقد شهد الأقرع مع خالد بن الوليد حرب أهل العراق وشهد معه فتح الأنبار وكان (على مقدمة خالد بن الوليد)[٧٨]، أما القبيلة فلم تنفع معها خطة التأليف فكما ذكرنا كانت في مقدمة الضالعين في حركة الارتداد التي ترجع في رأينا لأسباب معقدة متشابكة: عصبية، اقتصادية، ودينية ونعني تفشي المسيحية في العديد من القبائل التي قامت بالحركة وهو ملمح غفل عنه الباحثون أو ربما تجاهلوه لحساسيته البالغة.

* * *

أما الآخر فهو عيينة بن حصن بن بدر الفزاري:

فقد كان أحد قائدي قبيلة غطفان المتحالفين مع قريش في حصار يثرب/ المدينة في غزوة الخندق وهي من أشد الغزوات وقعاً على محمد والمسلمين فحتى يخلخل محمد الأحلاف المتعاونين على استئصاله، فاوض غطفان على أن تأخذ ثلث ثمار يثرب/ المدينة وتخلع[٧٩] حلفها مع قريش ولكن السعدين: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رفضا ذلك العرض[٨٠].

وكان ابن حصن شديد الاعتزاز بنسبة وحسبه إذ «يقول: أنا ابن الأشياخ الشُم»[٨١] ووصفه محمد بأنه (الأحمق المطاع سيد قومه)[٨١]،

وكان في (الجاهلية!) يقود عشرة آلاف، وكان يوصف من يفعل ذلك أنه «جرّار» وهو لقب يوازي «فيلد مارشال» في الجيوش الحديثة.

وكان من إدراكه لأهميته وخطره في نظر نفسه أنه كان لا يستأذن عند دخوله على محمد[٨٢] فلما عاتبه في ذلك قال له (ما كنت استأذنت على أحد من مضر)[٨٣] وبلغت به الصفاقة والجلافة والبداوة أن عرض على محمد أن ينزل له عن أجمل زوجاته مقابل أن يتزوج عائشة بنت أبي بكرٍ بعد أن رآها جالسة بجواره[٨٤] وكان محمد يقول: (إنى أداريه لأني أخشى أن يفسد عليّ خلقاً كثيراً)[٨٥]. وهكذا دلّ هذا الحديث نفسه على علة تأليف قلب عيينة، ولكنه كان ماكراً خبيثاً فكل ما فعله معه محمد لم يؤت ثمرته المرجوة حتى تزويج عثمان من إحدى بناته وما فى ذلك من إيماء لعلو مكانته لأنَّ عثمان تزوج اثنتين من بنات محمد حتى هذه المصاهرة الإيحائية أو الموحية برفع شأنه لم تنجح معه فلقد كان ممن ارتد وتبع طلحة الأسدي وقاتل معه وأخذ أسيراً وحمل إلى أبي بكرٍ ــ رض ــ فكان صبيان المدينة يقولون: يا عدو الله أكفرت بعد إيمانك فيقول: (ما آمنت بالله طرفة عين)[٨٦] ولكنه أسلم فأطلق أبو بكر إساره، ولعل حالة عيينة من الحالات النادرة التي لم تفلح معها جهود التأليف ولكنه مع ذلك معدود من «المؤلفة قلوبهم» أما سائرهم فقد رأينا كيف نجح محمد بصورة فذة في تحويلهم من المنافرة والمنابذة والخصومة والعداوة إلى التفاني في العون والنصرة والتأييد.

٤

ترك المهاجرون وخاصة من قريش أموالهم وديارهم عندما هاجروا إلى يثرب فاستولى أهلوهم من المشركين عليها واستغلوها أو باعوها، وكان الذي تصرف في أموال بني هاشم ممن هاجر هو عقيل بن أبي طالب

أخو عليّ[٨٧]، ولذلك في فتح مكة عندما سأل أسامة بن زيد محمداً و(قال يا رسول الله أين تنزل غداً؟ أتنزل في دارك؟ فقال وهل ترك لنا عقيل من دار؟)[٨٨].

وأراد الصحابي صهيب بن سنان الرومي أن يفلت من هذه القاعدة الصارمة فأخذ ماله معه لما عزم على الهجرة ولكن القرشيين تصدوا له وخيَّروه بين الهجرة والمال فاختار الهجرة وترك لهم ماله ولذلك لما وصل إلى يثرب قال له محمد: «ربح البيع يا أبا يحيى»، وتلا بشأنه قرآناً (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد) وهي الآية ٢٠٧ من سورة البقرة[٨٩] و[٩٠].

فقد المال مصيبة تزلزل الكيان وتشغل البال وتشتت الذهن وتورث الهم فأسرع محمد إلى علاج هذا الداء حتى لا يتمكن من رجاله الأوفياء وأتباعه المخلصين فيعوقه عن صبغهم بالصبغة التي كرّس نفسه لها ليضيفها على صحبه، حتى يكونوا طوع بنانه: دعاة للدين الذي بشر به وأعمدة للدولة التي طفق ينشئها في يثرب ــ بعد أن استجدَّتْ ظروف عديدة ساعدت على إقامتها فيها بدلاً من مكة كما كان يأمل مؤسسها الأول قصَيٌّ بن كلاب.

لجأ محمد إلى الطريقة المحببة إليه وهو الإقطاع، ومن العسير حصر الوقائع كافة في هذه الخصوصية لأننا لسنا بصدد كتابة مُؤلف عن سيرة محمد وصحابته ولذا نكتفي ببعض الأمثلة والتي تتعلق بأعيان الصحابة المهاجرين منهم خاصة للتدليل على ما نذهب إليه في هذه الفقرة وهو استخدام محمد طرائق التنفيل والتغنيم... في منحى آخر من مناحي مراوضة الصحاب أو تطويعهم وتطبيعهم وهو منحى «التعويض» عما خسروه من أموال:

أ ــ (حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، قال: لما قدم رسول الله ــ ﷺ ــ المدينة أقطع أبا بكر وعمر ــ رض)[٩١].

وبَدْء محمد بأبي بكرٍ وعمر بالإقطاع في غنى عن توضيح فهما أخلص معاونيه على الإطلاق ــ خارج بن هاشم ويهمه أن تقرَّ عينهما وتهدأ نفساهما فما إن أقام بيثرب حتى بادر بمنح كلٍّ منهما إقطاعية ليرفع عنهما همّ الرزق وليتفرغا لنشر الإسلام والاضطلاع بمهام الدولة القرشية الوليدة.

إنما يبدو أن الناحية المالية لدى عمر بن الخطاب كانت على درجة من التوهج أكثر مما هى عند ابن أبي قحافة، واسترعى ذلك نظر محمد وكان لمّاحاً فأخذ يوالي ابن الخطاب بالمنائح والعطايا حتى تضلع منها لدرجة أنه ترجى محمداً أن يتحول بها عنه للآخرين:

ب ــ (عن سالم عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب قال: كان رسول الله ــ ﷺ ــ يعطيني العطاء فأقول: إعطه من هو أفقر مني، فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ: إذا جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، ومالأ، فلا تتبعك نفسك)[٩٣].

الحديث يدلنا على أن محمداً لم يُجز اعتذار عمر بل أصر على قبوله منائحه لأن محمداً خبير بالنفوس وطبها.

والحديث كما يتضح من سياقه كان متداولاً ومعروفاً في بيت عمر وأسرته وكما يقول القرآن (وشهد شاهد من أهلها)[٩٤].

وقد يعترض أحد بأن هذا مضاد لما عرف عن عمر بالزهد.

والرد يسير وهو أن هذه الشهرة بالزهد ظهرت في العصور المتأخرة

التي تعمدت إخفاء النظر الموضوعية وإعلاء الرؤية التفخيمية التبجيلية ولا أدل على ذلك من أن هذه الوقائع ثابتة في مصادر الثقة والاطمئنان.

وهناك رد آخر هو أنه من أقرب الأمور إلى الاحتمال أن نزعة الزهد التي نسبت إلى ابن الخطاب قد انتابته في أخريات عمره وهو أمر كثير الحدوث فعندما يرى المرء إدبار الحياة وانحسارها يزهد ويتخفف.. الخ.

أما هذه الأحاديث ما سلف منها وما يجيء فهي ترصد عمراً وهو في طور الرجولة أو الكهولة[٩٥] أي في إقباله على الدنيا، ومما يساندها ما سنراه في الفصل الخاص بـ «الصحابة والأموال» والفصل الذي يتناول «الصحابة والزواج» ولعمر في كل منهما أخبار ووقائع منها: أن ابن الخطاب تزوج أم كلثوم إحدى بنات عليّ بن أبي طالب وهي في سن حفيداته وقد ألح على أبيها ثم عرض عليه مهراً كبيراً حتى قبل:

(روى أبو حفص بإسناده أن عمر بن الخطاب أصدق أم كلثوم ابنة عليّ بن أبي طالب أربعين ألفاً)[٩٦] و[٩٧] ومن تلك الوقائع أيضاً:

أن عمر بن الخطاب تنافس هو وثلاثة من الصحابة منهم ابنة عبد الله على خطبة امرأة واستطاع هو أن يظفر بها ويتزوجها[٩٨].

وواصفو عمر بالزهد والتقلل والتبتل.. الخ لا يدافعون عن الإسلام الصحيح بل على النقيض، وما فعله عمر من توفية كل حقبة من العمر حقها هو الفهم الأمثل للإسلام.

وواصل محمد نفح عمر:

جـ ــ (عن ابن عمر ــ رض ــ قال: أصاب عمر بـ خيبر أرضاً فأتى

النبي ــ ﷺ ــ فقال: أصبحت أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس منه)[٩٩].

وهذه الأرض التي تملكها ابن الخطاب هي نصيبه في خيبر.

د ــ (حديث عمر أنه أصاب مائة سهم من خيبر واستأذن النبي ــ ﷺ ــ فيها فأمره بوقفها)[١٠٠].

هـ ــ (قال حسن بن صالح: سمعت جعفر بن محمد قال: أعطى رسول الله ــ ﷺ ــ علياً بئر قيس والشجرة)[١٠١].

وجعفر بن محمد راوي الحديث هو جعفر الصادق من سلالة علي بن أبي طالب وهو شخصية تحظى باحترام الفرعين الكبيرين للإسلام: السنة والشيعة. ولا يفهم من لفظة «بئر قيس» أو كلمة «الشجرة» أنها مجرد بئر أو شجرة مفردة بل هما اسم لمكان أو مكانين.

و ــ (حدثنا أبو معاوية عن هشام عن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكرٍ أن رسول الله ــ ﷺ ــ أقطع الزبير أرضاً بخيبر فيها شجر ونخل)[١٠٢].

هذا أيضاً حديث عائلي فراوي الحديث هو هشام بن عروة بن الزبير (وعروة كان فقيهاً فاضلاً وهو أحد الفقهاء السبعة المدنيين، وقال الدارقطني: وروى عن أبيه الزبير وأمه أسماء وخالته عائشة وأخيه عبد الله وخلق آخرين)[١٠٣] وأسماء بنت أبي بكر أخت عائشة وهي من فضليات النساء ونقلته عن زوجها الزبير ــ وفوق الصبغة العائلية للحديث ورد في مصدر ثقة وتؤيده أحاديث أخرى بروايات مختلفة منها:

ز ــ (عن ابن عمر أن النبي ــ ﷺ ــ أقطع الزبير حُضْر فرسه حتى قام ثم رمى بسوطه فقال أعطوه من حيث بلغ السوط)[١٠٤] و[١٠٥].

ومما هو جدير بالذكر أن الزبير عندما وصل المدينة/ يثرب ــ كما روت عنه زوجه أسماء ــ لم تكن له سوى فرس واحدة وإذ لم يكونوا مستطيعين استئجار خادم فإن أسماء علاوة على خدمة البيت والزبير وأولاده كانت تسير ثلاثة أميال لتحضر نوى تعلف به الفرس(١٠٦).

ثم صار الزبير بن العوام من الأثرياء الأماثل، وعند وفاته قدرت ثروته بـ عشرات ومئات الألوف من «الناطق» أي الجواري والعبيد و«الصامت» أي العقار والمنقول: (عبد الله بن جعفر بن أبي طالب له صحبة أسلفه الزبير بن العوام ألف ألف درهم، فلما قتل الزبير، قال ابنه عبد الله بن الزبير لعبد الله بن جعفر إني وجدت في كتب أبي أنه له عليك ألف ألف درهم، فقال: هو صادق فاقبضها إذا شئت)(١٠٧)، فكم تبلغ ثروة الشخص الذي يقرض آخر مليوناً؟؟؟

واستمر هذا الثراء الطائل في عقب الزبير بن العوام حتى إن حفيده حمزة بن عبد الله بن الزبير كانت له أرض بناحية «الفرع» ــ بضم الفاء والراء ــ من جهة يثرب ــ المدينة وفيها عينان يقال لهما «الربض» و«النجف» يسقيان عشرين ألف نخلة(١٠٨).

* * *

الذين أقطعهم محمد ونفحهم في الأخبار المدونة فيما سبق «أبو بكر وعمر وعلي والزبير» جميعهم من قريش ومن «العشرة المبشرين بالجنة» أي «مجلس الشورى» الذي حل محل «ملأ قريش»، ولقد استقرت نفوس الصحاب بتلك الإقطاعات والأموال؛ وهؤلاء الأربعة قدمناهم كمثال لسياسة محمد التعويضية التي باشرها مع المهاجرين، فغدوا من أشد أعوانه حماسة لدينه ودولته ــ بداهة نحن لا ننفي وجود عوامل أخرى تزيد من الحماس وتقويه ــ ولكن من البديهات ــ التي لا يماري

فيها أحد أن الاستقرار المالي ضرورة لازمة لا غنى عنها لشد أزر الرجال المعاونين وتقوية عزائمهم، وهذا ما طبقه محمد مع المهاجرين باقتدار لا مثيل له.

* * *

خلاصة الكلام في هذا الفصل أن التغنيم والتنفيل والنفح والمنح والعطاء... وإن تباينت صورها وتعددت أشكالها واختلفت هيئاتها كانت أسلحة ماضية في يد محمد لتطويع الصحاب وتطبيعهم وصبغهم بالصبغة التي تغيَّاها وهو يحارب صناديد قريش ورؤساء العرب في سبيل نشر الدين الذي بشر به وترسيخ قواعد الدولة التي أقامها في يثرب/ المدينة، والوقائع التي أوردناها وكلها موثقة أشد ما يكون التوثيق تقطع بأن محمداً حقق أهدافه جميعها بصورة رائعة تستحق الإعجاب.

المصادر والهوامش

١ ــ مَنْ يدرس الفقه الإسلامي دراسة متأنية يكتشف أن الفقهاء أجهدوا أنفسهم بشدة لإيجاد حلول لتعقد «النصوص» وتشابكها وتداخلها... الخ ولكن بعض حلولهم أو أكثرها يبدو عليه الافتعال الواضح وعدم الإقناعية والمصداقية.

٢ ــ **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

٣ ــ **مختار الصحاح** للرازي.

٤ ــ **المعجم الوسيط** ــ مجمع اللغة العربية.

٥ ــ نقلاً عن **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** للإمام فخر الدين الرازي، في تفسيره لـ سورة (الأنفال) ــ المجلد السابع ــ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ــ دار الغد العربي/ مصر.

٦ ــ الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي في **الأم** ص ٦٨ ــ الجزء الرابع طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ــ كتاب الشعب ــ دار الشعب/ القاهرة.

٧ ــ كلمة **السلب** هي الوحيدة التي لها مدلول واضح وربما يرجع لأسباب تاريخية أى أنها كانت معروفة تحديداً وتعييناً قبل الإسلام.

٨ ــ هذا الحديث لا يكاد يخلو منه ديوان من دواوين السنة أو كتب الفقه حتى من غير المذاهب الأربعة المعروفة بل وفقه ما قبل نشوء المذاهب.

٩ ــ قال أبو داود هذا حديث حسن ــ وورد في **صحيح ابن حبّان** ــ وفي المستدرك للحاكم: أن الذي فعل ذلك هو أبو قتادة. وورد في **السنن الكبرى** للبيهقى. وأخرجه مالك في **الموطأ**، وذكره البخاري في **الصحيح**. ومسلم في **الصحيح** والترمذي في **الصحيح** والإمام أحمد في **مسنده**. وابن ماجه في **السنن** والطبراني في **المعجم الكبير**. وأورده السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ــ العدد/ ١٥ ــ الجزء الرابع ــ ص ١٨٩٩ من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية بـ الأزهر ــ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٠ ــ ابن هشام في **السيرة النبوية** ــ الجزء الثالث ــ ص ٧٢.

١١ ــ أبو الحسن الواحدي النيسابوري في **أسباب النزول** ص ١٥٥/ ١٥٦ ــ طبعة ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م ــ الناشر: مؤسسة الحلبي بمصر.

١٢ ــ السيوطي في كتــــاب **أسباب النزول** كتاب التحرير/ ٢ طبعة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م دار الشعب بـ مصر.

١٣ ــ ابن هشام في **السيرة النبوية** ص ٧٣ ــ مصدر سابق.

١٤ ــ الواقدي في كتاب **المغازي** ــ تحقيق مارسدن جونز ــ الجزء الأول ص ١٣١ ــ منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.

١٥ ــ **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** للإمام فخر الدين الرازي ــ المجلد السابع ــ ص ٤٣١ ــ طبعة دار الغد العربي بمصر.

١٦ ــ عز الدين بن الأثير الجزري في **أسد الغابة في معرفة الصحابة** المجلد الثالث ص ٧١ ــ طبعة دار الشعب بـ مصر، وقال: أخرجه ابن منده وأبو نعيم.

١٧ ــ جاء هذا الخبر مختصراً في كتاب **الأموال** لأبى عبيد بن القاسم ــ ص ٣٩٦.

١٨ ــ أبو عبيد بن القاسم بن سلام في كتاب **الأموال** ص ٣٨٧. ورواه أبو داود وأحمد والنسائي مختصراً. وابن هشام في **السيرة النبوية** الجزء الرابع ص ١٥٣. والواقدي في **كتاب المغازي** ــ الجزء الثالث ــ ص ٩٤٢ ــ تحقيق مارسدن جونز ــ د. ت ــ منشورات مؤسسة الأعلمي ــ بيروت.

١٩ ــ السهيلي في **الروض الأنف** ــ الجزء الرابع ــ ص ١٦٦.

٢٠ ــ الواقدي في كتاب **المغازي** ص ٩٤٢ وص ٩٤٤ ــ مصدر سابق.

٢١ ــ في **مختار الصحاح** للرازي ــ **الخلة** بالفتح الحاجة والفقر.

٢٢ ــ **سنن الأوزاعي** للإمام عبد الرحمن الأوزاعي ــ تصنيف الشيخ مروان محمد الشعار، ص ٤١١ ــ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ــ دار النفائس ــ بيروت والأوزاعي من أصحاب مذاهب الفقه المندرسة.

٢٣ ــ كتاب **المغازي** ــ للواقدي ــ الجزء الثالث ــ ص ٩٤٤ ــ مصدر سابق.

٢٤ ــ كتاب **الأم** للشافعى جـ ٤.

٢٥ ــ **المصدر نفسه** ص ٩٠٠.

٢٦ ــ **مختار الصحاح** للرازي.

٢٧ ــ السهيلي في **الروض الأنف على هامش السيرة النبوية** لابن هشام ــ الجزء الرابع ص ١٤١ ــ مصدر سابق.

٢٨ ــ **سورة التوبة** ــ الأية ٢٥.

٢٩ ــ ابن هشام **السيرة النبوية** ــ الجزء الرابع ــ ص ١٢٤ ــ مصدر سابق.

٣٠ ــ مثل كثير من **فقهاء التبرير** يقول السهيلي «لم يجمع العلماء على أنه من الكبائر إلا يوم

٣١ ــ **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** للإمام فخر الدين الرازي ــ المجلد السابع ص ٤٣١ ــ مصدر سابق.

٣٢ ــ كتاب **المغازي** لـ الواقدي ــ الجزء الأول ــ ص ٣٣٧ ــ مصدر سابق.

٣٣ ــ الآية السابعة من **سورة الحشر**.

٣٤ ــ كتاب **المغازي** لـ «الواقدي» ــ الجزء الأول ــ ص ٣٧٧ ــ مصدر سابق.

٣٥ ــ كتاب **المغازي** لـ «الواقدي» ــ الجزء الأول ــ ص ٣٧٧ ــ مصدر سابق.

٣٦ ــ لمعرفة النظم والأعراف والتقاليد التي أخذها الإسلام من الفترة السابقة عليه يمكن الرجوع إلى **الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية** تأليف خليل عبد الكريم ــ الطبعة الأولى ١٩٩٠م ــ دار سينا بمصر.

٣٧ ــ **القاموس المحيط** في مادة الصفو؛ والتعريف ذاته ورد في **مختار الصحاح** للرازي.

٣٨ ــ **التعريفات** لـ أبي الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بـ السيد الشريف.

٣٩ ــ كتاب **الخراج** لأبي يوسف قاضي القضاة وصاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة طبعة المكتبة السلفية بمصر. ورُوي الخبر بطرق متعددة أوردها كل من: أبو داود في السنن والحاكم في المستدرك والطبراني في الكبير وغيرهم.

٤٠ ــ **الاستيعاب في معرفة الصحاب** لابن عبد البر ــ تحقيق علي محمد البجاوي ــ المجلد الأول ــ ص ١٨٣ ــ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م ــ دار الجيل بيروت.

٤١ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ عز الدين بن الأثير الجزري ــ المجلد الأول ــ ص ٢٤٢ ــ د. ت. ن. ــ كتاب الشعب ــ دار الشعب بمصر.

٤٢ ــ **كتاب الأموال** لأبى عبيد بن القاسم بن سلام ص ٣٤٨ ــ مصدر سابق.

٤٣ ــ **أسد الغابة في معرفة الأصحابة** ــ عز الدين بن الأثير ــ المجلد الرابع ــ ص ٣٥٢ ــ مصدر سابق.

٤٤ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ــ أبو عمر يوسف بن عبد البر ــ تحقيق علي محمد البجاوي ــ المجلد الثاني ــ ص ١٢٥٨ ــ مصدر سابق.

٤٥ ــ **أسد الغابة** ص ٣٥١ مصدر سابق.

٤٦ ــ **الاستيعاب** نفس الصفحة السابقة.

٤٧ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الرابع ص ٣٥٢ ــ مصدر سابق.

٤٨ ـ **الاستيعاب** ـ المجلد الثالث ـ ص ١٢٥٨ ـ مصدر سابق.

٤٩ ـ حركات الارتداد التي قام بها مسيلمة والأسود العنسي وطليحة بن خويلد الأسدي وسجاح التميمية لم تدرس دراسة موضوعية إنما يتم تناولها من الناحية السهلة المجانية باستثناء بحوث قليلة منها بحث أصدرته جامعة عدن بعنوان «حركة عبهلة العنس» بقلم محمد سعيد شكري ضمن بحوث «الندوة العلمية حول اليمن عبر التاريخ» سبتمبر ١٩٨٩م.

٥٠ ـ **موسوعة فقه سفيان الثوري** ص ٧٣٩، تجميع د. محمد رواس قلعة جي ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ـ دار النفائس/ لبنان.

٥١ ـ أبو زكريا الفرّاء في كتابه **معاني القرآن** في سورة براءة أو التوبة.

٥٢ ـ سفيان الثوري (٩٧/ ١٦١هـ) وأبو زكريا الفرّاء (١٤٤/ ٢٠٧هـ).

٥٣ ـ محمد بن إدريس الشافعي في كتاب **الأم** ـ الجزء الثاني ـ ص ٦١ طبعة كتاب الشعب/ القاهرة.

٥٤ ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٥٥ ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٥٦ ـ **الشرح الكبير** لـ شمس الدين المقدسي ـ المجلد الثالث ـ ص ٢٦٤ ـ على هامش **المغنى** ـ طبعة المحرم ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ـ دار الغد العربي بـ مصر.

٥٧ ـ ورد هذا الخبر في المصادر الآتية: **سنن البيهقي** ـ ٧/ ٢ ـ **الأموال** لأبى عبيد بن القاسم ص ٢٧٦. **تفسير الطبري** ـ ١٤/ ٣١٥. نقلاً عن **موسوعة فقه عمر بن الخطاب** ـ تجميع د. محمد روّاس قلعة جي ـ ص ٣٧٦ ـ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ـ دون ناشر.

٥٨ ـ **الشرح الكبير** لـ شمس الدين المقدسي ـ المجلد الثالث ص ٢٦٤ ذاتها.

٥٩ ـ **الاستيعاب** ـ ص ١٢٢٢ من المجلد الثالث ـ مصدر سابق.

٦٠ ـ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ عز الدين بن الأثير ـ المجلد الرابع ـ ص ٣٠١.

٦١ ـ الواقدي في كتاب **المغازي** ـ المجلد الثالث ـ ص ٩٤٦ ـ مصدر سابق.

٦٢ ـ **الاستيعاب** ـ المجلد الثاني ص ٧١٩ مصدر سابق.

٦٣ ـ **أسد الغابة** ـ لـ ابن الأثير الجزري ـ المجلد الثالث ص ٢٤ مصدر سابق.

٦٤ ـ كتاب **المغازي** للواقدي ص ٩٤٥ ـ الجزء الثالث مصدر سابق.

٦٥ ـ **السيرة النبوية** لـ ابن هشام ـ الجزء الرابع ـ ص ١٥٤ ـ مختصراً ـ مصدر سابق.

٦٦ ــ كتاب **المغازي** للواقدي ــ ص ٩٤٥ ــ المجلد الثالث ــ مصدر سابق.

٦٧ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** المجلد الثاني ــ ص ٤٥ ــ طبعة كتاب الشعب، ولكنه ذكر أن محمداً أعطاه مائة بعير فقط.

٦٨ ــ **المصدر السابق** ذات المجلد والصفحة.

٦٩ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لـ عبد البر ــ المجلد الأول ــ ص ٣٦٢ ــ مصدر سابق.

٧٠ ــ لمزيد من التفصيلات عن «دار الندوة» وأهميتها ووظائفها انظر كتاب **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية** خليل عبد الكريم ــ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م دار سينا بمصر.

٧١ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لـ ابن عبد البر ــ المجلد الأول ــ ص ٣٦٣ ــ مصدر سابق.

٧٢ ــ ذات المصدر والصفحة نفسها.

٧٣ ــ **السيرة النبوية** لـ ابن هشام ــ الجزء الرابع ص ١٥٤.

٧٤ ــ **قريش من القبيلة للدولة المركزية** ــ خليل عبد الكريم ــ الفصل الثالث قبائل كبيرة فشت فيها النصرانية ــ ثانياً: تميم ص ١١٢ وص ١١٣ ــ مرجع سابق.

٧٥ ــ **الاستيعاب** لـ ابن عبد البر ــ المجلد الأول ــ ص ١٠٣ ــ مصدر سابق.

٧٦ ــ المصدر ذاته والصفحة نفسها.

٧٧ ــ **أسد الغابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الأول ص ١٢٩ ــ مصدر سابق.

٧٨ ــ **أسد الغابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الأول ص ١٣٠ ــ مصدر سابق.

٧٩ ــ في **القاموس المحيط/ تخالفوا:** نقضوا الحلف بينهم.

٨٠ ــ **السيرة النبوية** لـ ابن هشام ــ الجزء الثالث ص ٢٦٢ ــ مصدر سابق. وفي رأينا أن رفض السعدَيْن مرده إلى أن الأنصار وحدهم ــ دون المهاجرين ــ هم الذين كانوا سيضارون لو نُفذ اتفاق محمد/ غطفان وهم الذين كانوا سوف يسددون فاتورة الحساب لأنهم أصحاب الحيطان (= الكروم والبساتين) التي تغل الثمار موضوع المراوضة بين محمد وغطفان.

٨١ ــ **الاستيعاب** لـ ابن عبد البر ــ المجلد الثالث ــ ص ١٢٥٠ ــ مصدر سابق. المصدر ذاته والصفحة نفسها.

٨٢ ــ **أسد الغابة** لـ ابن الأثير ــ ص ٣٣١ ــ المجلد الرابع ــ مصدر سابق.

٨٤ ــ **الاستيعاب** لـ ابن عبد البر ــ المجلد الثالث ــ ص ١٢٥٠ ــ مصدر سابق.

٨٥ ــ السهيلي في **الروَض الأنف على هامش السيرة النبوية** لـ ابن هشام ــ المجلد الثالث ــ ص ٢٧٦ ــ مصدر سابق.

٨٦ ــ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ ص ٣٣١ ــ مصدر سابق.

٨٧ ــ عقيل بن أبي طالب شخصية أثارت في حياتها عدة علامات استفهام فهو علاوة على بيعه دور بني هاشم المهاجرين، انحاز إلى صف معاوية ضد أخيه عليّ وكان يصرّح أنه بذلك يبتغى الدنيا فضلاً عن أنه كان خبيراً في معايب قريش ومساوئها ومثالبها وكان عالماً بالأنساب وأيام العرب.

٨٨ ــ **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** ــ الشهير بـ **السيرة الحلبية** لـ على برهان الدين الحلبي ــ ص ٢٨ من الجزء الثالث ــ المطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ــ الناشر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٨٩ ــ **الاستيعاب** ابن عبد البر ــ المجلد الثاني ــ ص ٧٢٩ ــ مصدر سابق.

٩٠ ــ **أُسد الغابة** ابن الأثير الجزري ــ المجلد الثالث ص ٣٧ مصدر سابق

٩١ ــ كتاب **الخراج** ــ أبو يوسف قاضي القضاة ص ٦٧ مصدر سابق.

٩٢ ــ في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي: **تضلع** أي امتلأ شبعاً أو رياً حتى بلغ الماء أضلاعه.

٩٣ ــ **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي ــ الجزء الأول ــ ص ٤٨٨ ــ إصدار مجمع البحوث الإسلامية ــ الأزهر ــ القاهرة.

٩٤ ــ **سورة يوسف** الآية ٢٦.

٩٥ ــ في **المعجم الوسيط** لـ مجمع اللغة العربية ــ **الكهل:** من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين.

٩٦ ــ **المغنى** لـ ابن قدامة المقدسي ــ المجلد الثامن ص ٦٣ مصدر سابق.

٩٧ ــ في ذلك الوقت كان عمر يقف على المنبر ويحض «الرعية» على تخفيض المهور وعدم المغالاة فيها حتى وقفت امرأة وخطّأته والحكاية مشهورة وكثيراً ما يتم الاستشهاد بها على ديموقراطية عمر. ولكن يبدو أن لكل طبقة خطاب فللرعية خطابها وللسادة خطابها أو كما يقول المثل: لكل حادث حديث!!!.

٩٨ ــ **المغنى** لـ ابن قدامة المقدسي ــ ص ٥٨٥ من المجلد السادس ــ ص ٣٥٦ ــ مصدر سابق.

٩٩ ــ أخرجه الستة في **الصحاح**. نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** الجزء الثاني ــ ص ٩١ للكاندهلوى ــ مصدر سابق.

١٠٠ ــ **المغنى** لـ ابن قدامة المقدسي ــ المجلد السادس ــ ص ٣٥٦ مصدر سابق.

١٠١ ــ **الخراج** لقاضى القضاة أبي يوسف ــ ص ٨٩ مصدر سابق.

١٠٢ ــ كتاب **الأموال** لـ أبي عبيد بن القاسم بن سلام ــ ص ٣٤٨ مصدر سابق.

١٠٣ ــ **الرياض النضرة في مناقب العشرة** لـ أبي جعفر أحمد الشهير بـ المحب الطبري تحقيق حمزة النشرتي وآخرين دون تاريخ نشر وبغير ناشر.

١٠٤ ــ أورده السيوطي في **الجامع الكبير أو جمع الجوامع** برقم ٣٠٧٢ الجزء الثالث من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية ــ الأزهر ــ القاهرة.

١٠٥ ــ في رأينا أن هذا الحديث يهم علماء «الانثروبولوجيا الدينية» لأنه أوضح طريقة الإقطاع وكيف كان يتم، وتفسر معاجم اللغة عبارة «حُضْر فرسه» ــ بضم الحاء وسكون الضاد المعجمة ــ أي بقدر ما تعدو عدوة واحدة.

١٠٦ ــ انظر الحديث مطولاً في **صحيحي البخاري ومسلم**.

١٠٧ ــ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الثالث ــ ص ١٩٩ مصدر سابق.

١٠٨ ــ **السيرة النبوية** لـ ابن هشام ــ الجزء الثالث ــ ص ١٤٣ مصدر سابق.

الفصل الثالث

التلقيب

«سيد البطحاء»، «سداد البطحاء»، «ساقي الحجيج»، «زاد الركب»، «مطعم الطير»، «شبيه الحمد»، «مُجمِّع»، «الفيض»، «الغوث»، «الكامل»، «الأمين»، «أقداح النضار»... الخ، ألقاب كانت تطلق قبل ووقت ظهور الإسلام على رجال تمتعوا بميزات خُلقية أو خلقية، وحمل اللقب كان يعتز به المرء ومن بعده يفتخر به بنوه وأَحفاده، والمدح والفخر وجهان لعملة واحدة فالمدح خطاب الغير والفخر خُطاب النفس وكان البعض يسعى لنيل لقب ليتباهى ويمتاز به على أقرانه:

(قال العباس: فقلت يا رسول الله: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً (وفي رواية أخرى: فاجعل له ما يفخر به) قال: نعم مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو أمن ومن دخل المسجد فهو آمن...)[١].

إن حب المدح من شيم النفوس جميعها، تهوى الاستماع إليه وتطرب له وتهتز وتنتشى، ولكن هذا المنزع النفسي كان لدى عرب الجزيرة عامة والحجاز خاصة متجذراً مغروساً بعمق في وجدانهم

يولونه شطراً وسيعاً من تطلعاتهم، كما يسعى الطموحون من أبناء الأمم المتحضرة إلى الحصول على الإجازات العلمية والدرجات الأكاديمية.

ومحمد كما رددنا مراراً عاش في صميم مجتمع الحجاز وخالط أفراده وتعامل معهم إذ كان (يمشس في الأسواق)[٢] ولا شيء يعرّف الشخص بطبائع مجتمعه وقيمه وأخلاقه وعاداته... قدر «المشي في الأسواق» أي التعامل بيعاً وشراءً وقرضاً وإقراضاً وإجارة ورهناً ومقايضة وسواماً... الخ، ومحمد إذ كان ذلك حاله فقد أدرك أهمية «اللقب» وكيف أنه يُدخل على الشخص البهجة والانشراح والانبساط فإذا وصل إلى هذه الأحوال ــ وهو لا بد واصل إليها ــ أصبح في يد مَنْ تفضل عليه به أطوع من عجينة الصلصال في يد المثّال وتفانى في الإخلاص لمانحه إياه حتى يضفي عليه آخر فيزداد تيهاً هو وخَلَفه، هذا من ناحية، ومن أخرى فإنه يعلم أن الواهب قد يتقلب مانعاً فلا أقل من أن يحافظ على ما ظفر به منه.

ومن هنا نجد أن محمداً اتخذ من إطلاق الألقاب «بداهة في جانب الإطراء» وسيلة فعّالة في تطويعهم وتطبيعهم وصبغهم وقولبتهم بقالب الإسلام.

والقارئ لكتب السيرة ومدونات أخبار الصحاب قد يدهشه هذا الكم الكثير من الألقاب والذي أضفاه محمد على الصحبة، عشرات وعشرات فربما خرج الواحد منهم بعدة منها.

ولكن الاندهاش لذلك إحساس عجل وأوشكت أن أكتب: نزق، لأنه لا يحيط بالأمر من كل أقطاره، فالمأمورية التي اضطلع محمد بها معقدة وعسيرة وخيوطها متشابكة وعبر عنها القرآن بأنّها (قولاً ثقيلاً)[٣]،

وفي رأينا أن الثقل ليس في الوزن المادي بالطبع ولكن في الوجه المعنوي والتوقيت والتحديد أو التعيين المكاني أي العبد أي البعد الزماني، إذ من الثابت أن التجربة الإسلامية التي تحققت على يد محمد من أكثر التجارب ندرة على طول التاريخ التي تتجح هذا النجاح المذهل، في حين أن القائم بها فرد واحد لم يكن وراءه نظام حاكم يؤازره ولا حزب ولا قبيلة ولا جمعية ولا هيئة... الخ بل العكس فالنظام الحاكم والقبيلة حارباه بضراوة.

وقف محمد وحيداً أمام كل الطواغيت ولكنه كان واسع الأفق فلم يعد مستغرباً أن يلجأ إلى «التلقيب» يسكبه على الصحاب بغزارة ووفرة فهو من جانب لا يكلف مالاً ك «التغنيم والتنفيل» ومن جانب آخر فإن نتائجه مضمونة وأكيدة الأثر.

فلا مجال إذن للدهشة والاستغراب عندما نرى محمداً يراكم الألقاب طرف صحابته بل العكس هو الصحيح، أي لو أنه كان شحيحاً في المنائح الألقابية لغدا ذلك مثار عجب. وكما استعمل محمد اللفظ من وجهه الإطرائي في حفز همم الصحبة ودفعهم لمزيد من التفاني في خدمة الإسلام ودولة قريش، وظّفه كذلك في الانتقاص من رتبة الذين ناصبوه العداء فيما مضى:

(حديث فاطمة بنت قيس: فأمرها أن تعتدّ في بيت أم شريك ثم قال لها: تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم.. فإذا حللت وآذنيني... ثم استشارته فيمن تقدم لخطبتها، فاستعرضهم ثم قال: وأما معاوية فصعلوك لا مال له...)[٤]، وصحح هذا الحديث وأخذ به شيخ الإسلام ابن تيمية (وأما النصيحة فمثل قوله ـ ﷺ ـ لفاطمة بنت قيس لما استشارته فيمن خطبها، فقالت: خطبني أبو جهم ومعاوية، فقال: أما معاوية فصعلوك لا مال له...)[٥].

ومعاوية طالما حارب محمداً وكاد له واشترك في المعارك ضده وعاون والده أبا سفيان في محاولات استئصال شأفته.

وقد بدأنا بهذا الشق لنثبت أن محمداً استخدم «التلقيب» بوجهيه ولكن هذا الجانب قليل، أما الغالب عليه فهو جانب المدح.

٢

حظى الأربعة الكبار من الصحابة الذين أصبحوا فيما بعد «الخلفاء الراشدين»: أبو بكر ــ عمر ــ عثمان ــ عليّ بأكبر حصة من ألقاب الإطراء وبعدهم باقي «العشرة المبشرين بالجنة» ثم المهاجرون القرشيون ثم المهاجرون من غير قريش ثم الأنصار وبعض العشائر والقبائل.

وكان من البديهي أن يستأثر بنصيب وفير:

١ ــ أبو بكر بن أبي قحافة:

ــ (أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ما خلا النبيين والمرسلين)[٦].

ــ (أبو بكر في الجنة وعمر وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة بن الجراح)[٧].

وجميعهم بلا استثناء من قريش من «مجلس العشرة المبشرين بالجنة» ولكن لم يرد في الحديث اسم عثمان ولا اسم عليّ.

ــ (أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر من الرأس)[٨].

ــ (أبو بكر وعمر من هذا الدين كمنزلة السمع والبصر من الرأس)[٩].

من الحديث الأخير: أبو بكر وعمر (من هذا الدين) وفي السابق

عليه (مني)، وهكذا بصراحة لا لبس فيها سوَّى محمد بينه وبين الدين، وهذا ما سبق أن رفعناه في وجوه (منكري السنة) أو المشككين في حجيتها، ومذهبنا أن السنة بعمومها هي «التطبيق العملي» للإسلام وهى «ديوان الإسلام» ولا تتم معرفة الإسلام معرف تامة إلاّ بدراستها بأنواعها الثلاثة: القولية والفعلية والتقريرية، والفعلية أشد إبانه وأكثر توضيحاً لأنها مغموسة في الواقع معجونه بمائه في حين أن القولية أشبه بالمثاليات المجردة أما التقريرية فإن الظروف والملابسات الحافّة بالنازلة تعطي أكثر من تفسير لها فهى إذن ليست قاطعة.

ــ (عن ابن عباس ــ رض ــ قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: خير الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربعمائه، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يغلب اثنا عشر من قلة إذا كانت كلمتهم واحدة)[١٠].

(وقد قالوا في التعليق على خير الصحابة أربعة: بأن هذا إشارة إلى الخلفاء الراشدين الأربعة وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، وهذا يدل على أن فى غيرهم خيراً كثيراً وإن كان دون ما فيهم من خير)[١١].

ــ (ما لأحد عندنا يدٌ إلاّ وقد كافيناه، خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة وما نفعني أحد قط ما نفعني مال أبي بكرٍ ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ألا وإن صاحبكم خليل الله)[١٢].

ــ (أخذ جبريل بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي، فقال أبو بكر: وددت أني كنت معك حتى أراه، قال: أما إنك أول من يدخل الجنة من أمتي)[١٣].

ــ (عن عبد المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبيه عن جده،

سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول: أبو بكر وعمر ــ رض ــ بمنزلة السمع والبصر)[١٤].

ــ (عن أنس بن مالك أن النبي ــ ﷺ ــ صعد أحُداً فتبعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم، فضربه النبي ــ ﷺ ــ برجله وقال: أثبت أحد فما عليك إلاّ نبي وصدّيق وشهيدان)[١٥].

هذا الحديث حمل لقب الـ «صدّيق» الذي لازم أبا بكر فلا يكاد يُذكر أو يكتب اسمه إلاّ وألحق هذا اللقب به، و(الصدّيق هو الذي لم يدع شيئاً مما أظهره باللسان إلاّ حققه بقلبه وعمله)[١٦] أما (الصدّيقون فهم قوم دُون الأنبياء في الفضيلة)[١٧] ووصف القرآن الأنبياء إبراهيم وإدريس ويوسف بأنهم صدّيقون أما خارج دائرة المرسلين والنبيين فلم يصف القرآن أحداً بالصدّيقية سوى السيدة مريم أم المسيح (وأمه صدّيقة)[١٨].

ولذلك فمن رأينا أن محمداً لم يمنح واحداً من الصحابة أرفع من هذا اللقب على كثرة الألقاب التي كان يُضفيها عليهم وهذا يفسر لنا أموراً كثيرة منها مواساة ابن أبي قحافة له بالمال وشدة التصاقه به وبالغ إخلاصه له حتى إنه (ابن أبي قحافة) كان على استعداد لقتل أكبر أبنائه في غزوة بدر الكبرى لولا أن محمداً بثاقب بصره نهاه عن ذلك لأنه كان سيُخلّف عواقب وخيمة، وتقديمه ابنته عائشة زوجة له.. الخ، فهل كان لقب «الصديق» كِفاء (مكافأة) لكل ذلك؟

ــ (نعم الــرجل أبو بكر وعمر وأبو عبــيدة بن الجراح وأسيد بن الحضير وثابت بن قيس بن شماس ومعاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو بن الجموح وسهل بن بيضاء)[١٩].

ــ (في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ــ ﷺ ــ أنه قال في مرضه الذي مات فيه:

«إن مِنْ أمَنِّ الناس عَليّ في ماله وصحبته أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة في الإسلام ومودة، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سُدّت إلا خوخة أبي بكرٍ)[٢٠].

حتى في اللحظات الأخيرة من عمره واصل محمد تزكية ابن أبي قحافة ليكمل من بعده المسيرة وقد فعل فسعى بكل طاقته في المحافظة على دين محمد ودولته.

تلك كانت أمثلة سريعة للألقاب التي وهبها محمد لأبي بكرٍ ونقرأ في كتب السيرة أنه كان الساعد الأيمن لمحمد سواء في نشر دينه أو دعم الدولة، ويرى عدد من الباحثين في الأحاديث السابقة وما على شاكلتها دليلاً على استخلاف محمد له ــ ولو أننا لا نذهب إليه ــ وعلى كلٍ فبعد انتقال السلطة إلى ابن أبي قحافة دافع عن الإسلام وعن الدولة القرشية دفاعاً مستميتاً ولولا وقفته الصلبة تلك لتغيرت خريطة المنطقة باختلاف مسارها التاريخي جذرياً.

إذن هو يستحق الألقاب التي أضافها إليه محمد أو بمعنى أدق برهن على أنه يستحقها ويمكن بالمقابل أن يقال إنها من جانبها فعلت فعلها المأمول منها بدرجة فائقة:

٢ ــ عمر بن الخطاب:

ــ (عن ابن عباس قال: نظر رسول الله ــ ﷺ ــ إلى عمر ذات يوم وتبسم وقال:.... وجعلك الله مفتاح الإسلام)[٢١].

ــ (قال النبي ــ ﷺ ــ: عمر أول من يُسلِّم عليه الحق يوم القيامة وكل أحد مشغول بأخذ الكتاب وقراءته)[٢٢].

والحديث بنصّه هذا مشكل فلم يستثن محمداً الأنبياء والرسل،

فهل الحق سيبدأ عمراً بالسلام دونهم أم أن استثناء هؤلاء أمر بديهى لا حاجة للنص عليه؟

ــ (عن أبي هريرة أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال: إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه)[٢٣].

ــ (عن ابن عمر قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة)[٢٤].

ــ (عن عمر فوالله ما سلك عمر وادياً قط فسلكه الشيطان)[٢٥].

ــ (عن عائشة قالت: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: قد كان يكون في الأمم مُحدثون فإن يكن في أمتي أحد فهو عمر)[٢٦].

ــ (عن عقب بن عامر قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: لو كان نبي بعدي كان عمر بن الخطاب)[٢٧].

ــ (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء بعد النبيين خيراً منك يا عمر)[٢٨].

والأحاديث في ألقاب عمر كثيرة نكتفي بما أسلفنا وقد تلقاها عمر راضياً وقابلها بمزيد من الإخلاص حتى إنه من شدة تفانيه قتل خاله في إحدى المعارك وسوف يجيء الخبر موثقاً في الفصل الخاص بـ «قتل المحارم» وكان مثل باقي أقرانه من حملة الألقاب لزيقاً[٢٩].

لمحمد في حربه وسلمه وبعد وفاته واصل معاضدة الخليفة الأول ثم لما تولى الخلافة عمل على نشر الديانة الإسلامية في كل البلاد الموطوءة ووسَّع أطراف الدولة القرشية وكانت هذه التوسعات نواة لما عرف بـ «الإمبراطورية الإسلامية» أو القرشية حتى إن هناك من يعده المؤسس الفعلى لها.

٣ ــ عثمان بن عفان:

ــ (عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: إن عثمان بن عفان أشبه بي خلقاً وخلقاً وديناً وسمتاً وهو ذو النورين زوجْته ابنتيّ وهو معي في الجنة كهاتيْن وحرك السبابة والوسطى)[٣٠].

ــ (أشد أمتي حياءً: عثمان بن عفان)[٣١].

ــ (عن أنس بن مالك عن النبي ــ ﷺ ــ أنه قال: أصدق أمتي حياءً: عثمان)[٣٢].

ــ (لو أن عندي عشراً لزوجتكهن واحدة بعد واحدة وإنى عنك لراضٍ قاله لعثمان)[٣٣].

ــ (عن مسلم بن يسار قال: نظر رسول الله ــ ﷺ ــ إلى عثمان فقال: شبيه بإبراهيم وإن الملائكة لتستحي منه)[٣٤].

ــ (عن الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة)[٣٥]، وبهذا الحديث أعطى محمد لعثمان «صك براءة» وبذلك حمل عثمان لقب «المغفور له ذنبه» أو «المغفورة له خطاياه».

ــ كذلك منحه محمد شرفاً لم ينفحه أحداً من صحبه وهو أنه بايع عنه (بإحدى يديه) من «بيعة الرضوان» وهذه البيعة رتبة عالية في مجتمع الصحابة وفي بيعة محمد نيابة عن عثمان وهذا التشريف يقول ابن عمر: (يد رسول الله ــ ﷺ ــ لعثمان خير من يد عثمان لنفسه)[٣٦].

تلك كانت قطرات من فيض الأحاديث التي حملت ألقاب ابن

عفّان، وقد عُرف عنه حياؤه الشديد ومن صفات الحييّ أن من يصنع فيه معروفاً يحاول جاهداً أن يرده وهذا ما حدث بالفعل إذ قابل هذه الألقاب والتشريفات التي نفحه إياها محمد بالعرفان إذ اشترى من يهودي بئراً بعشرين ألف درهم وجعلها للمسلمين وضمن له بها محمد «مشرباً في الجنة»[٢٧] و(عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ــ ﷺ ــ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ــ ﷺ ــ جيش العسرة فصبها في حجر النبي ــ ﷺ ــ فجعل النبي ــ ﷺ ــ يقلّبها بيده ويقول: ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم يرددها مراراً)[٣٨] وهذا «صك براءة» آخر من الذنوب منحه محمد ابن عفان بعد أن جهد جهده في رد جميل محمد بإضافة تلك الألقاب عليه ولكن محمداً كان أجود منه، و(عن عبد الرحمن بن خباب السلمي قال: خرج رسول الله ــ ﷺ ــ فحث على جيش العسرة فقال عثمان: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال ثم حث فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث فقال عثمان بن عفان عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، فقال: فرأيت النبي ــ ﷺ ــ يقول بيده هكذا يحركها كالمتعجب ويقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذا)[٣٩] وللمرة الثالثة يحصل ابن عفان على «صك البراءة» من الذنوب والخطايا والآثام وأنه مهما عمل فلن يضره شيئاً ــ ولكن هذه الأحاديث الأخيرة ــ على وجه الخصوص ــ تؤكد أن عثمان بذل غاية ما يملك من وسع وطاقة في أن يضع تحت أنظار محمد البراهين السواطع على أنه أهل للألقاب التي منحه إياها.

٤ ــ عليّ بن أبي طالب:

لم يكن نصيب عليّ من الألقاب بأقل من أنصبة الثلاثة السابقين بل ربما زاد عليهم لأنه من بني هاشم وسنرى أن منزلة هؤلاء عند محمد لا

تعدلها منزلة وكان ربيبه وزوج أصغر بناته وأحبهن إليه وعاشت معه حتى وفاته ثم لأنه والد حفيدته اللذين كان يحبهما حباً جماً وسعد بهما سعادة غامرة عوضته عن فقد الولد الذكر: ــ

ــ (عن البراء قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: عليّ مني بمنزلة رأسي من جسدي)[٤٠].

ــ (عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ــ ص ــ يا عليّ معك يوم القيامة عصا من عصى الجنة تذود بها المنافقين عن الحوض)[٤١].

ــ (جاء أبو بكر وعليّ يزوران قبر النبي ــ ﷺ ــ بعد وفاته بستة أيام، قال علي لأبي بكرٍ: تقدم يا خليفة رسول الله، فقال أبو بكر: ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول عليّ مني بمنزلتي من ربي)[٤٢].

هذا الخبر يتعارض مع ما هو معروف من أن علياً ظل ستة أشهر ــ بعد وفاة محمد ــ ملازماً بيته وممتنعاً عن بيعة ابن أبي قحافة ــ بحجة أنه يجمع أيْ يحفظ القرآن؛ وسوف نرى أن بني هاشم خاصة والفروع الكبرى من قريش مثل بني أمية وبنى مخزوم وبنى المغيرة عامة كان لهم موقف محدد من أبي بكرٍ وعمر ك «خليفتين» وأن الأخير كان يعمل جاهداً على استرضائهم وخاصة بني هاشم للعدول عن أو على الأقل التخفيف من موقفهم حياله وذهب البعض إلى أن عليّ بن أبي طالب لم يبايع أبا بكر إلاّ بعد وفاة زوجته فاطمة بنت محمد لأنها خاصمت ابن أبي قحافة لأنه حرمها من ميراث أبيها وعطّل آية صريحة قاطعة في القرآن ب «أحاديث آحاد» ومع ذلك فإن ابن أبي قحافة كان في ذلك مجتهداً لأنه

لم يأخذ شيئاً من موروث محمد بل أضافه لبيت مال المسلمين.

ــ (حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن أبي حازم عن سهل بن سعد (= الساعدي) أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال يوم «خيبر»: لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله... ثم أعطى الراية علياً)(٤٣).

ــ (عن القاسم بن جندب عن أنس قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: يا أنس أسكب لى وضوءاً ثم قام فصلى ركعتين ثم قال: يا أنس أول من يدخل عليك من هذا الباب: أمير المؤمنين وسيد المرسلين وقائد الغرِّ المحجَّلين وخاتم الوصيين؛ قال أنس: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار وكتمته، إذ جاء عليّ فقال: من هذا يا أنس؟ فقلت: علي، فقام مستبشراً فاعتنقه)(٤٤).

عندما قرأت هذا الخبر وتمنّي أنس بن مالك أن يكون «أمير المؤمنين» من الأنصار تعجبت من طيبة قلبه وطيبة قلوب الأنصار ومنهم أحد زعمائهم سعد بن عبادة، إذ كيف لم يدركوا أن الدولة التي زرعها محمد في مدينتهم يثرب (سماها بعد ذلك المدينة) هي دولة قريش وحدها ومن المستحيل أن يكون أميرها من غيرها!!!.

ــ (عن أنس بن مالك قال: بعثني النبي ــ ﷺ ــ إلى أبي برزة الأسلمي فقال له وأنا أسمع: يا أبا برزة إن رب العالمين عهد إليّ عهداً في عليّ بن أبي طالب، فقال: إنه راية الهدى ومنار الإيمان وإمام أوليائي ونور جميع من أطاعني، يا أبا برزة عليّ بن أبي طالب أمين غداً في القيامة وصاحب رايتي في القيامة على مفاتيح خزائن ربي)(٤٥).

ــ (عن سعيد بن المسيب قال: قلت لـ سعد بن مالك ــ رض ــ:

إنى أريد أن أسألك عن شيء وإنى أهابك، فقال: لا تهبني يا ابن أخي إذا علمت عندي علماً فسلني عنه، قال: قلت: قول رسول الله ـ ﷺ ـ لـ عليّ في غزوة تبوك حين خلفه؟ قال سعد: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يا عليّ أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى)(٤٦).

ـ (عن سعد بن أبي وقاص قال: خلَّف رسول الله ـ ﷺ ـ علياً في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ قال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)(٤٧).

ـ (عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال له: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً ـ رض ـ فقال: ما يمنعك أن تسب أبا تراب، فقال: أما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله ـ ﷺ ـ لأن تكون لى واحدة أحب إلىّ من حُمر النعم: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول له وخلفه في بعض مغازية فقال له علىّ: يا رسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطينّ الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله قال: فتطاولت لها، قال: ادعو لي علياً فأتى به أرمد فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله، ولما نزلت هذه الآية «فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم» دعا رسول الله ـ ص ـ علياً وفاطمة والحسن والحسين ـ رض ـ ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي)(٤٨).

ـ (غزوة تبوك قال رسول الله ـ ﷺ ـ لـ عليّ: أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى)(٤٩).

ـ (آخى رسول الله ـ ﷺ ـ علياً مرتين... وقال في كل واحدة منهما: أنت أخي في الدنيا والآخرة)(٥٠).

وإذا كان عثمان ــ وهو من الأغنياء ــ قد اجتهد في أن يردّ جميل محمد ــ في الألقاب التي خلعها عليه بالبذل السخيّ والعطاء المضاعف أثلاثاً، فإن علياً وإن كان قليل المال في البداية إذ سوف نرى أن الأموال المستصفاة من أهل البلاد الموطوءة قد ناله منها شيء كثير فهو ذو باع طويل في ميدان القتال.

وحتى يثبت لمحمد أنه أهل للمؤاخاة ولسائر الألقاب التي أطلقها عليه فقد أثخن في أعدائه قتلاً وحصدهم حصداً، حتى قيل إنه في غزوة بدر الكبرى وحدها قتل عشرين من المشركين ولا يهم أنهم كانوا من قريش قبيلته، إنما الأهم في نظره أن يؤكد لمحمد أنه يستحق أن يكون بالنسبة إليه بمنزلة محمد من ربه وهارون من موسى والرأس من الجسد (عمر عليّ لما شارك في غزوة بدر سبع وعشرون سنة، وغاية ما ذكره ابن هشام وقبله موسى بن عقبة وكذلك الأموي، جميع ما ذكروه عن الذين قتلهم عليّ: أحد عشر نفساً واختلف في ستة أنفس هل قتلهم هو أو غيره وشارك في ثلاثة ــ هذا جميع ما نقله هؤلاء الصادقون)[٥١] و(عن أبي اسحق قال: سأل رجل البراء وأنا أسمع: أشهد علي بدراً؟ قال: بارز وظاهر)[٥٢] وظاهر أى ناصر وأعان، وكان قتاله ظاهراً لكل من شارك في العركة و(عن سعد قال: لقد رأيت علياً يخطر بالسيف هام المشركين) وخطر بسيفه: رفعه مرة ووضعه أخرى، وهام المشركين أي رؤوسهم.

وتواصلت أدلة الثبوت من عليّ أنه جدير بكل لقب يناله من محمد فما من مرة أعطاه الراية حتى حقق الهدف. (عن عمر بن حبشي قال: خطبنا الحسن حين قتل عليّ فقال: لقد فارقكم رجل أن كان رسول الله ــ ﷺ ــ ليعطيه الراية حتى يفتح عليه)[٥٤].

وفي غزوة أحد قرأنا له عن وقفة بالغة الشجاعة: كان من الصامدين

ولم يفر مع الفارين ونتيجة لذلك مزقت الجراح جسده (لقد أصابت علياً يوم أحد ست عشرة ضربة كل ضربة تلزمه الأرض)[٥٥].

وفي غزوة خيبر رغم شكايته من وجع في عينيه لم يتوان عن إنفاذ أمر محمّد فحمل الراية وحارب يهوداً حتى تم الفتح على يديه ولم يبال برمده (فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأدفعن/ لوائي إلى رجل لم يرجع حتى يفتح الله عليه، فصلى رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة الغداة ثم دعا باللواء فدعا علياً وهو يشتكي عينيه فمسحهما ثم دفع إليه اللواء)[٥٦] ولم يخيّب عليّ رجاء محمد فيه فقاتل ونازل أبطال يهود وهزمهم حتى تحقق النصر، ولم يجرؤ أحد على القول إن ألقاب محمد التي كدّسها فوق عليّ كانت في غير موضعها.

(وشهد عليّ بدراً والحديبية وسائر المشاهد وإنه أبلى ببدر وأحد وبالخندق وبخيبر بلاءً عظيماً وإنه أغنى في تلك المشاهد وقام فيها المقام الكبير)[٥٧]؛ ورأينا فيما سلف أن علياً كان من «النفر» القليل الذي صبر مع محمد في حنين ولم يولّ مدبراً ويسابق الريح منهزماً كما فعلت الأغلبية.

خلاصة القول إنه إذا كان عثمان قدم لمحمد أموالاً جسيمة تعينه في أمر دينه وتدبير دولته فإن علياً قاتل قتالاً صادقاً وأظهر إقداماً وشجاعة تفوق الوصف في وجه أعداء دين محمد ودولته.

واستراحت نفس عليّ لأنه أثبت لنفسه قبل الآخرين أنه كفءٌ للألقاب التي صبها عليه محمد صباً، كما أن تلك الألقاب الفخيمة كانت من أهم البواعث لدفع بطولة عليّ للظهور والتشيء على أرض الواقع بهيأة أذهلت معاصريه وكانت مفخرة لبنيه وأحفاده وشيعته.

٣

بقية العشرة المبشرين بالجنة:

بعد أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعليّ، كان نصيب باقي «العشرة المبشرين بالجنة» مناسباً فهم قرشيون وأهل شورى محمد الذين خلفوا «ملأ قريش» حاكم مكة وقت ظهور الإسلام ومن السابقين الأولين في الإيمان بالدين الذي دعا إليه، وحُسبت لهم مواقف محمودة في تأييده ونصرته، فالألقاب التي أغدقها عليهم كانت تحية منه إليهم وشكراً عما بذلوه ومدعاة لهم لمواصلة الدعم؛ واختلفت صور المساندة فتارة بـ العطاء وأخرى بالقتال:

١ ــ طلحة بن عبيد الله:

ــ (عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة قال: سماني رسول الله ــ ﷺ ــ يوم أحد «طلحة الجود»)[٥٨].

ــ وروي أن رسول الله ــ ﷺ ــ نظر إلى طلحة بن عبيد الله فقال: من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة)[٥٩].

ــ (قال طلحة: كان النبي ــ ﷺ ــ إذا رآه قال: سلفي في الدنيا وسلفي في الآخرة، وأخرج من طريق ابن منده عن طلحة قال: سماني رسول الله ــ ﷺ ــ يوم أحد «طلحة الخير وفي غزوة العسرة: طلحة الفياض، ويوم حنين: طلحة الجود)[٦٠].

ــ (وعن سلمة بن الأكوع قال: ابتاع طلحة بئراً ناحية الجبل ونحر

جزوراً فأطعم الناس فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: أنت «طلحة الفياض»)[٦١].

٢ ــ الزبير بن العوام:

(عن الزبير أنه قال: جمع لي رسول الله ــ ﷺ ــ أبويه مرتين: يوم قريظة فقال: إرمِ فداك أبي وأمي، ويشهد الزبير بدراً وكانت عليه يومئذٍ عمامة صفراء معتجراً بها فيقال: نزلت الملائكة يوم بدر على سيماء الزبير)[٦٢].

ــ عن مطيع بن الأسود قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول الزبير ركن من أركان الإسلام أخرجه السدي ورفعه ابن عمر إلى النبي ــ ﷺ ــ ولفظه قال: قال رسول الله ــ ص ــ: الزبير بن العوام ركن من أركان المسلمين)[٦٣].

ــ (وكان الزبير أول من سل سيفاً في سبيل الله عز وجل. عن سعيد بن المسيب قال: إن النبي ــ ﷺ ــ دعا له بخير والله لا يضيع دعاءه.

وروي عن النبي ــ ﷺ ــ أنه قال: لكل نبي حواريّ وحواريِّيَ الزبير)[٦٤].

٣ ــ عبد الرحمن بن عوف:

ــ (عن عبد الله بن عمر أن عبد الرحمن بن عوف قال لأصحاب الشورى: هل لكم أن اختار وأنتقي منها؟ قال عليّ: أنا أول من يرضى فإني سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول: أنت أمين في أهل السماء، وأنت أمين في أهل الأرض)[٦٥].

ــ (عن الزبير بن بكار قال: كان عبد الرحمن بن عوف أمين النبي ــ ﷺ ــ على نسائه)[٦٦].

وسوف نرى أثر هذا اللقب على ابن عوف، حتى بعد وفاة محمد طفق يثبت جدرانه على التشرف بهذا اللقب بأن أخذ يجزل المنائح على نساء محمد وعندما كنّ يعتزمن الحج كان هو على رأس الحراسة الخاصة التي تحيط بهن من كل جانب.

ــ (عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: عبد الرحمن بن عوف دليل الله في الأرض)[٦٧].

ــ (عن أديس بن أبي أديس عن النبي ــ ﷺ ــ قال لـ عبد الرحمن بن عوف: أنت وليي في الدنيا والآخرة)[٦٨].

٤ ــ سعد بن أبي وقاص:

ــ (عن أبي بكرٍ ــ رض ــ سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول لسعد: اللهم سدد سهمه وأجب دعوته وحببه)[٦٩].

ــ (عن أبي هريرة أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال: يا سعد أنت ناصر الدين حيث كنت)[٧٠].

ــ (عن سعد بن مالك (= سعد بن أبي وقاص) قال: إني أول العرب رمى بسهم في سبيل الله: وذلك في سرية عبيدة بن الحارث)[٧١].

ــ (فخرج عبيدة بن الحارث في ستين راكباً فلقى سفيان بن حرب على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ وأبو سفيان في مائتين فكان أول من رمى بسهم في الإسلام: سعد بن أبي وقاص)[٧٢].

ــ «(إرم أيها الغلام الحزور» قاله لـ سعد بن أبي وقاص يوم أحد)[٧٣].

والحزور هو الذي قارب البلوغ، وسنرى كيف أن هذا اللقب أعجب ابن مالك أيما إعجاب وطرب له وانتشى به وشمّر عن ساعديه وبالغ في الرمى حتى يثبت أنه كما قال محمد.

ــ (عن سعد بن مالك أن النبي ــ ﷺ ــ قال: اللهم استجب لـ سعد إذا دعاك)[٧٤].

ولذا كان سعد يلقب بـ «مستجاب الدعاء».

٥ ــ أبو عبيدة بن الجراح:

ــ (قوله ــ ﷺ ــ: لكل أمة أمين، وأمين أمتي أبو عبيدة بن الجراح)[٧٥].

ــ (عن الحسن قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: ما من أصحابي أحد إلاَّ لو شئت لوجدت عليه إلا أبا عبيدة)[٧٦].

ــ (أخرج ابن عساكر عن مسلم قال: بعث أبو بكر إلى أبي عبيدة ــ رض ــ هلم حتى استخلفك فإنى سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول: لكل أمة أمين وأنت أمين هذه الأمة)[٧٧].

هنا يحاول ابن أبي قحافة أن يرد الجميل لأبي عبيدة ويهم باستخلافه لأن لقب «أمين الأمة» كان من بين أهم العوامل الحاسمة فى ظفر أبي بكرٍ بالإمامة العظمى أو الخلافة في سقيفة بني ساعدة كما سنوضح بعد قليل.

ــ (لما ولّى عمر بن الخطاب الخلافة عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة، فقال خالد: وُلّيّ عليكم أمين هذه الأمة، وقال أبو عبيدة: سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول: إن خالداً لسيف من سيوف الله)[٧٨].

ــ (عن أنس بن مالك ــ رض ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال: إن لكل أمة أميناً وإن أميننا أيتها الأمة: أبو عبيدة بن الجراح)[٧٩].

٦ ــ سعيد بن زيد:

ذكرنا فيما سبق أن محمداً قسّم له من غنائم بدر هو وطلحة ولذلك كانا معدودين من البدريين وفي أصح أحاديث التبشير بالجنة هو عاشر المبشرين بها، وآخى محمد بينه وبين أبيّ ابن كعب الأنصاري عندما آخى بين المهاجرين والأنصار، ولم أقف له على لقب اختصه به محمد سوى أنه روى حديث ارتجاف جبل أحد وأنه كان مع محمد والآخرين آنذاك أي أنه شهيد[٨٠] في حين أنه مــات على فراشــه، وأن محمداً منح أباه زيد بن عمرو بن نفيل ــ عم عمر بن الخطاب وأحد أكابر حنفاء مكة ــ لقب «أمَّة»:

ــ (وأتى سعيد بن زيد رسول الله ــ ﷺ ــ فقال: إن زيداً كان كما قد رأيت وبلغك فاستغفر له ــ قال: نعم، فاستغفر له فإنه يبعث يوم القيامة «أمَّة» وحده)[٨١].

وسعيد بن زيد لم يشارك في الأحداث العامة ولذلك لم يتردد اسمه في كتب السير والتواريخ كثيراً لأنه انصرف إلى الاهتمام بأملاكه التي احتاز بعضها في أراضى المستعمرات التي اقتحمها العرب، فقد أقطعه عثمان إقطاعية بالكوفة ــ سوف نرى أن عثمان فعل ذلك مع عدد من أعيان الصحبة ــ، واختلف سعيد مع امرأة تدعى أروى بنت أويس على مساحة من أرضه التي بـ «الشجرة» فاستعدت عليه مروان بن الحكم فأوجب عليه اليمين فلم يحلف وتركها لها[٨٢]، وكانت له أرض ثالثة بـ «العقيق»[٨٣] و[٨٤] وسبق أن ذكرنا أن وادي العقيق من أخصب بقاع يثرب/ المدينة وهكذا شغلته أمواله في الكوفة والشجرة والعقيق عن الانخراط فى

الشئون العامة. إنَّ ضم محمد لإثنين «عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد» من بني عديّ لـ «مجلس العشرة المبشرين بالجنة» أو «مجلس شوراه» بديل «ملأ قريش»، مسألة لم تلفت انتباه الباحثين من قبل وبالتالي لم يقدموا إجابة على هذا السؤال الملحِّ:

لماذا اختار محمد اثنين من بني عديّ في ذلك المجلس وهم ليسوا من ذؤابة قريش ولا من فروعها الكبيرة، ولماذا لم يفعل ذلك مع بني هاشم أو بني أمية أو بني مخزوم أو بني المغيرة؟ وإذا كان عمر ذا مواهب فذة نادرة تبلغ حد العبقرية بشهادة محمد نفسه له فإن ذلك لم يُعرف عن سعيد بن زيد، الأمر الذي يجعل انضواء «مجلس العشرة» على اثنين من رهط متواضع في قريش مثل بني عديّ مُشكل يبحث عن حل؛ أم أن إلحاق محمد لسعيد بن زيد بالمجلس كان تقديراً منه لوالده زيد بن نفيل لتحنفه وتوحيده الله ولإتيانه أو التزامه ببعض القيم مثل تحريم شرب الخمر واستحياء الموؤدة والغُسل من الجنابة... وأنه في إحدى المرات استرعى نظر محمد لعدم الأكل مما يذبح على النُصُب (مرّ زيد بن عمرو بن نفيل بالنبي ـ ﷺ ـ: يا ابن أخي إني لا آكل مما ذبح على النصب، قال (= راوي الحديث) فما رُؤي النبي ـ ﷺ ـ من يومه ذاك يأكل مما ذبح على النصب حتى بعث ـ ﷺ ـ)[٨٥] وأياً كان أمر سعيد بن زيد فإن حظه من الألقاب كان شبه معدوم ولعل هذا يفسر لنا ندرة ذكر كتب السيّر والتواريخ لأية مأثرة من مآثره، إذْ أنه لو نال من محمد لقباً لأثبت أنه كفاءه[٨٦].

ولعل إحجام محمد عن تلقيب سعيد بن زيد هو الاستثناء الذي يؤيد القاعدة أو أن محمداً كان ينفح ألقابه مَنْ يستحقها ومَنْ يتوسم فيه أن اللقب سيطرح ثمرته عنده.

٤

أفلحت خطة محمد في التلقيب مع بقية «العشرة المبشرين بالجنة» مثلما نجحت مع الأربعة، فمنهم من أعانه بماله، ومنهم من صمد فى القتال إبَّان المعارك واستمر ذلك العطاء حتى بعد وفاته فبعضهم كان يواسي زوجاته بالمنائح، وغالبيتهم اشتركت في غزو المستعمرات (العراق/ إيران ــ الشام/ مصر/ أفريقيا...) وهذه أمثلة قليلة تؤكد ما نذهب إليه: ــ

١ ــ طلحة:

ليغدو طلحة عند حسن ظن محمد به وليثبت له جدارته بما أغدقه عليه من الألقاب التي سردناها فيما سلف، كانت له وقفة شجاعة يوم أحد:

ــ (عن عائشة قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك يوم طلحة)[٨٧].

ــ (قال أبو بكر:... ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار فإذا فيه بضع وسبعون ما بين طعنة ورمية، فإذا قد قطعت أصبعه فَأصلحنا من شأنه)[٨٨].

ولم يكتف بذلك بل قدم المال الكثير:

ــ (عن سُعدى بنت عوف امرأة طلحة قالت: لقد تصدق طلحة يوماً بمائة ألف)[٨٩].

٢ ــ الزبير:

بعد ما أصاب المسلمين ما أصابهم على جبل أُحد وكان سببه الإقبال

النهم على الغنائم وما يقال خاصة في مؤلفات المحدثين إن علة الهزيمة مخالفة الرماة لأمر محمد وتركهم موقفهم الحسّاس هو ذكر لأحد جوانب الحقيقة وإغفال لباقي وجوهها لأن الرماة لم يفعلوا ذلك إلاّ لأنهم رأوا أصحابهم قد انهمكوا في احتياز الأغنام والأسلاب ونسوا أنهم في معركة فحذوا (= الرماة) حذوهم فكيف يعودون من العركة بُخفىّ حنين وغيرهم يؤوب بالقدر الوفير من الغنائم والأسلاب ــ هذا ما حدث فى غزوة أحد وذكرته كتب التاريخ التراثية ولكنَّ المؤلفين المحدثين يغطرشون[٩٠] عليه لأنه لا يجرؤون على تسطيره، بعد هذه الاستطرادة نعود للسياق: لما انصرف المشركون ــ منتصرين ــ من أحد، انتدب محمد ــ وكان شديد الحنكة في السياسة والحرب ــ بعض صحبه ليمشي في أثرهم لمعرفة وجهتهم: يثرب أم مكة؟ وكان ممن وكل إليه تلك المهمة الثقيلة: الزبير.

ــ (عن عروة بن الزبير عن عائشة ــ رض ــ قالت لى: أبواك (تعني أبا بكر وكان جد عُروة لأمه والزبير من الذين استجابوا لله وللرسول «من بعد ما أصابهم القرح»)[٩١].

واستمر الزبير يقدم براهين كفايته لحمل الألقاب حتى بعد وفاة محمد:

ــ (عن عروة أن أصحاب النبي ــ ﷺ ــ قالوا للزبير يوم «اليرموك»: ألا تشد فنشد معك، فحمل عليهم فضربوه ضربتين على عاتقه)[٩٢].

كما شارك في غيرها من معارك الفتوح.

٣ ــ عبد الرحمن بن عوف:

كان ذا مال وفير أي مليونير بالتعبير الحديث وكان محمد كلما لقيه قال له: «لن تدخل الجنة إلاّ زحفاً أو إلاّ حبواً يا ابن عوف»، وكان يسميه

«الصادق البار»[٩٣]، وقدم المال الوفير لمحمد ولزوجاته من بعده ولغيرهن ليؤكد للقاصي والداني أنه لم يقصر وأنه أهل للمكرمات الألقابية التي نفحه إياها محمد:

ــ (أما عبد الرحمن فجاء إلى النبي ــ ﷺ ــ بأربعة آلاف درهم صدقة وقال: كان عندي ثماني آلاف فأمسكت أربعة آلاف درهم لنفسي وعيالي وأربعة آلاف أقرضها ربي عزّ وجلّ، فقال، ــ ﷺ ــ بارك الله لكَ فيما أمسكت وفيما أعطيت ونزلت الآية «والذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله». الآية ٦٢، من سورة البقرة)[٩٤]. ثم توالت تقدماته الجسيمة لمحمد:

(عن الزهري قال: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ــ ﷺ ــ بشطر ماله أربعة آلاف ثم تصدق بأربعين ألف دينار ثم حمل على بأربعين ألف دينار ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله عز وجل ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله)[٩٥]، وبعد وفاة محمد كان ابن عوف يبر زوجاته ويصلهن:

ــ (تقول عائشة لأبي سلمة بن عبد الرحمن: سقى الله أباك من سلسبيل الجنة، وصل أزواج النبي ــ ﷺ ــ بأربعين ألفاً)[٩٦].

ــ (وأوصى عبد الرحمن بحديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربعمائة ألف)[٩٧].

ونذكِّر هنا بأن عبد الرحمن أمين محمد على نسائه ــ ولعله بهذه التبرعات بالغة الجسامة يقول لمحمد: ها أنذا قد أويت الأمانة ووفيت بها على أكمل وجه وكنت كفءاً لها. إلى هذا الحد نجحت سياسة محمد لصحابه بالتلقيب وكان حصادها وفيراً سواء في حياته أو بعد مماته.

٤ ــ سعد بن مالك أو سعد بن أبي وقاص:

كان من الصامدين مع محمد يوم أحد مثل طلحة، وخرج بعد أحد مع طلحة وآخرين في الذين (أصابهم القرح) كما عبر عنهم القرآن يتبعون أبا سفيان وجيشه.

وبلغ من إعجاب محمد بموقفه في أحد أن فداه بأبيه وبأمه وأنعم عليه بلقب «الحزور»:

ــ (عن سعيد بن المسيب قال: قال عليّ بن أبي طالب: ما جمع رسول الله ــ ﷺ ــ أباه وأمه لأحد إلاّ لـ سعد بن أبي وقاص، قال له يوم أحد: إرمِ فداك أبي وأمي ــ إرم أيها الغلام الحزور)(٩٨) و(٩٩).

فعل هذا اللقب الأخَّاذ فعله واستولى على لُبّ ابن مالك فرمى ألف سهم ولا يستهولن قارئٌ هذا العدد ويزعم استحالة تحقيقه فإن الألقاب كلها كان لها من قلوب أهل الحجاز ونفوسهم خاصة والجزيرة العربية عامة موقع لا يداينه موقع ولها عليهم تأثير لا ينافسه تأثير آخر.

ودفع التشريف الذي منحه محمد لابن أبي وقاص ومنه اختصاصه بجمع والديه له أن يتفانى في خدمة محمد فيعيِّنه أحد أهم الرموز التي تتولى حراسته في الغزوات وفي مكامن الخطر، وذكرنا أن ابن الخطاب كان مُقدم حراسه في السلم.

بعد موت محمد عزم ابن مالك على أن يحظى بشهادة الناس له بأنه ما زال «الحزور» الذي كانه يوم أحد فنراه في الغارات التي شنت على البلاد المتاخمة لفتحها ووطئها أحد القادة المرموقين:

ــ (وهو الذي كوّف «الكوفة» ولقي الأعاجم وتولى قيادة فارس

وأمّره عمر بن الخطاب ــ رض ــ على ذلك ففتح الله على يده أكثر فارس، وله كان فتح القادسية وغيرها)[١٠٠].

٥ ــ أبو عبيدة بن الجراح:

لم يكن أحد من المسلمين ــ خاصة المشيخة ــ يجهل لقب أبي عبيدة: «أمين الأمة» وطرب عامر لهذا اللقب وسُرَّ به سروراً عظيماً وظل حتى آخر نفس من حياته عارفاً بالتزاماته ومؤدياً لموجباته ولعب هذا اللقب الباذخ الشامخ في «سقيفة بني ساعدة الأنصار» التي عقد فيها أول مؤتمر سياسي مدني لانتخاب أول خليفة للمسلمين وكانت تلك اللحظات من أحرج اللحظات في تاريخ المسلمين وخاصة دول قريش التي غرزها محمد في يثرب ــ لعب لقب «الأمين» دوراً خطيراً في تزكية ابن أبي قحافة لتولي المنصب، لأن أعيان الأنصار أوسهم وخزرجهم والمتنفذين فيهم وذوي الصدارة منهم جميعهم سمعوا محمداً طالما ردد أن أبا عبيدة أمين هذه الأمة وترسخ ذلك وترسب في أعماق يقينهم ومستقر قناعتهم لأنهم كانوا يعتبرون أحاديث محمد لها الرتبة التالية لآيات القرآن، فإذا بايع (أمين الأمة) أحداً للإمامة العظمى أو الخلافة فمن يجرؤ بعد ذلك أن يقدح فيه أو يماري في صلاحيته لذلك، إن من يفعل ذلك يكون قد شكّك في مصداقية اللقب ولاحى من أطلقه عليه، وهذا بعينه هو المروق من الملة.!!!

ففى حياة محمد قدم ابن الجراح البرهان على استحقاقه للقب:

ــ (عامر بن الجراح هو الذي انتزع من وجه رسول الله ــ ﷺ ــ حلقتيْ الدرع يوم أحد فسقطت ثنيتاه)[١٠١].

بعد ذلك أبلى «أمين الأمة» في «فتوح الشام» بلاء عظيماً وكانت له

اليد الطولى في استعمارها واستيطانها وإخضاع أهلها وفلّ شوكتهم وتحويلهم إلى موالى وخول وأتباع كما حدث بالنسبة لأهالى المستعمرات الأخرى: فارس والعراق ومصر وأفريقيا وأذربيجان.. الخ وكانوا يسمونهم الـ «علوج» وهي تسمية تشي بنظرة الاستعلاء والاستكبار والغطرسة[١٠٢].

لما عزل عمرُ خالدَ بن الوليد من القيادة العامة لجيوش الفتح ولىّ أبا عبيدة الذي اجتهد جهده لإثبات كفاءته[١٠٣].

وإحقاقاً للحق فإن من النقاط المضيئة التي يتعين ذكرها لصالح عامر بن الجراح أنه لم يعبّ من الأموال المستنزفة من البلاء الموطوءة مثلما عبّ بل تضلع غيره من الصحبة، فقد عاش متقللاً زاهداً وهذا بشهادة ابن الخطاب نفسه عندما زاره في منزله وهو أمير فلم يجد فيه إلا متاعاً رثاً لرجل في غاية الفقر والمسغبة:

ــ (فقال عمر غرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة)[١٠٤].

وهنا يعترف عمر ويقر صراحة أن الدنيا غرَّت الصحاب «كلهم»(١٠٥) وهي صراحة محمودة لابن الخطاب تؤيدها الوقائع المثبوتة في دواوين السير والتواريخ.

وفي مذهبنا أن لقب «أمين الأمة» كان أحد الدوافع الهامة في سلوك عامر لمسلك الزهد، لأنه لا يليق بـ «الأمين» غير ذلك، وإلاَّ حكم بنفسه على نفسه بفقدان الأهلية والصلاحية لحمل ذلك اللقب العالي.

تلك لمحات سريعة خاطفة للتأثير والتأثر التبادليين لألقاب محمد على نفوس بقية العشرة المبشرين بالجنة ــ باستثناء سعيد بن زيد ــ تؤكد حصافة محمد في منحه الألقاب بكثافة لمن كانوا يلزقون به لزوقاً.

٥

سار محمد مع باقي الصحاب مهاجرين وأنصاراً على النهج عينه في خطة «التلقيب» ومن المتعذر إن لم يكن من المستحيل حصر الألقاب والملقبين بها ولا هو من هدف هذا البحث، ومن ثم نكتفي بضرب أمثلة لتقديم الدليل على صحة الفكرة التي خرجنا بها من دراسة علاقة محمد بالصحابة وكيف أنه وظَّف «اللقب» كأداة لرياضتهم وتطبيعهم وقولبتهم بقالب الإسلام وبصمهم بخاتمه، ولذا فإن إحصاء عدد مَنْ حظى بالألقاب منهم وحصرها (= الألقاب) فهما نافلة أو زيادة لا موجب لها واختلفت بواعث محمد في «التلقيب» كما تنوعت الوسائل التي شكلها في ذلك: فمرة يكون الدافع هو مكافأة الفئة القليلة التي ذاقت العذاب والنكال لانضوائها تحت رايته واتباع دينه الذي دعا إليه فلا أقل من أن تحظى بلقب يبلّ معها النشف[١٠٦] ويأسو جراحها التي ما زالت آثارها واضحة على جسومهم.

١ ــ عمّـــار:

ــ (ما خُيّر عمار بين أمرين إلاّ اختار أرشدهما)[١٠٧].

ــ (من حديث عليّ بن أبي طالب ــ رض ــ: جاء عمار يستأذن النبي ــ ﷺ ــ يوماً فعرف صوته، فقال: مرحباً بـ الطيّب، المطيّب)[١٠٨].

علاوة على الحديث المشهور (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة) وقوله لعمّار خاصة:

ــ (تقتلك الفئة الباغية يا عمار)[١٠٩]. وهو ممن نال «صكَّ دخول الجنة»:

ــ (عن أنس عن النبي ــ ﷺ ــ أنه قال: اشتاقت الجنة إلى: عليّ

وعمّار وسلمان وبلال رض)[١١٠].

٢ ــ بــلال:

ــ (حدثنا قتادة عن القاسم بن ربيعة عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: نعم المرء بلال وهو سيد المؤذنين)[١١١].

وهو أيضاً ممن ضمن لهم محمد دخول الجنة، ورد ذلك في أكثر من حديث:

ــ (روى أبو هريرة أن النبي ــ ﷺ ــ قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإنِّى سمعت دق نعليك بين يدى الجنة)[١١٢].

ــ (أخبرنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: أصبح رسول الله ــ ﷺ ــ فدعا بلالاً فقال: يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلاَّ سمعت خشخشتك أمامي)[١١٣]. والخشخشة حركة لها صوت.

ــ (روى ابن القاسم عن مالك قال: بلغنى أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال لبلال: إنى دخلت الجنة فسمعت فيها خشفاً أمامى قال: والخشف الوطء والحس، فقلت: من هذا؟ قيل بلال، فكان بلال إذا ذكر ذلك بكى)[١١٤] و[١١٥].

ومن حديث سابق أخبرنا محمد أن بلالاً ممن تنتظرهم الجنة فى شوق ولهفة. وفي الحديث الآتي يوصي محمد زوجة بلال ألا تغضبه وأنها إن فعلت حبطت جميع أعمالها وأن بلالاً صادق لا يكذب:

ــ (عن امرأة بلال أن النبي ــ ﷺ ــ أتاها فسلّم فقال: ثمّ بلال؟ فقالت: لا، فقالت: فلعلك غضبت على بلال، فقالت: لا، إنه يحبني

كثيراً فيقول (= راوي الحديث): قال رسول الله ــ ﷺ ــ لها: ما حدثك عنى بلال فقد صدق، بلال لا يكذب، لا تغضبي بلالاً، فلا يقبل منك عمل ما أغضب بلالاً)[١١٦].

٣ ــ صُهيب:

لم يُعذّب كبلال وعمّار ولكنه ضحى بماله عندما عزم على الهجرة من مكة إلى يثرب، هذه التضحية لا بد أن يقابلها محمد بقدر من التحية الطيبة المتمثلة في منحه لقباً وكنية:

ــ (رُوي عن النبي ــ ص ــ أنه قال: صهيب سابق الروم وسلمان سابق فارس وبلال سابق الحبشة)[١١٧].

ــ (قال صهيب: وأما اكتنائي بأبي يحيى فإن رسول الله ــ ﷺ: كناني بأبي يحيى فلن أتركها)[١١٨].

٤ ــ أبو ذر الغفاري:

من السابقين الأولين، قيل إنه رابع أو خامس مَنْ أسلم وكان يفتخر أنه في وقت من الأوقات كان «ربع الإسلام»، وهو إن لم يكن قد أوذي بسبب ذلك إلاّ أن صلابته في دينه وتمسكه به أدهشت محمداً؛ فأبو ذر آمن مبكراً ثم عاد إلى مضارب قبيلته غفار وعاش بين أفرادها عاضاً بنواجِذه على دينه ولم يهاجر إلى يثرب (المدينة) إلاَّ بعد وقعة الخندق وهذا الثبات النادر على العقيدة لا يدعه محمد دون مكافأة سخية من الألقاب: ــ

ــ (عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من أبي ذر)[١١٩].

ـ (عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء في ذي لهجة أصدق من أبي ذر)(١٢٠) و(١٢١).

ـ (رُوي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال أبو ذر في أمتي شبيه عيسى بن مريم في زهده وبعضهم يرويه: من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي ذر)(١٢٢).

ـ وفى رواية أخرى (أبو ذر يمشي في الأرض في زهد عيسى بن مريم)(١٢٣).

٥ ـ سلمان الفارسي:

نحن أمام شخصية بالغة الثراء والتعقيد ولا نقصد الثراء المادي بل الروحي الذي تمثل في البحث عن الحقيقة والتعطش إلى المطلق، طوفت على عدد من العقائد والملل وعلى الديانتين الإبراهيميتين الساميَّتين الأخريين (= اليهودية والمسيحية) ثم استقرت أخيراً على الإسلام تفضيلاً له عليهما جميعها.

هذا الموقف حمده محمد لسلمان الفارسي فمنحه لقب «سابق الفرس».

ـ (عن أبي هريرة أنه قال: قال ناس من أصحاب رسول الله ـ ص ـ: يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا استبدلوا بنا ثم لم يكونوا أمثالنا؟ وكان سلمان بجنب رسول الله ـ ﷺ ـ قال: هذا وأصحابه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لناله رجالٌ من فارس(١٢٤).

وتقديراً من محمد لسلمان لاختياره الإسلام وتفضيله على سائر الأديان والعقائد (قيل إنه طوّف على أربع عشر ديناً وقرأ كتبها) منحه صك براءة من العذاب:

ــ (عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان)[١٢٥].

وكان عليّ يقول: سلمان منا آل البيت[١٢٦] وفي رواية أخرى نسب هذا القول إلى محمد نفسه[١٢٧]

ومن أثر تجوال سلمان على العقائد والملل والنحل المختلفة تراكمت لديه ثقافة دينية طويلة وعريضة وعميقة وثرَّة:

ــ (سئل علي عن سلمان، فقال: عَلِمَ العلم الأول والعلم الآخر وهو بحر لا ينزف)[١٢٨] هذه شهادة واحد من علماء الصحابة وكان يقال في حقه «باب مدينة العلم» وهي بذاتها تقطع بغزارة علم الفارسي سلمان الديني واحاطته بما لا يُحصى من العقائد والمذاهب الدينية، وهذا يُفسّر لنا علة الجلسات الطويلة بل البالغة الطول التي كان يختلي فيها محمد بسلمان في الليل حيث لا يزعجهما أحد:

ــ (قالت عائشة: كان لسلمان مجلس من رسول الله بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله)[١٢٩] و[١٣٠].

من ناحية: هذا خبر موثق بعد أن أطبق عليه مصدران من أوثق المصادر التي كتبت عن الصحابة «أسد الغابة والاستيعاب» ومن ناحية أخرى فإن ناقل الخبر أو روايته هي عائشة أصغر زوجات محمد وأجملهن وأحبهن إلى قلبه وهي تصرح بأن الفارسي أوشك ــ في ليلتها المخصصة لها ــ أن يغلبها ويستأثر بـ محمد دونها في الجلسات الطوال التي كانا يعقدانها في هدأة الليل وبعيداً عن المشاغل وسائر الصحاب وما ذاك إلاَّ لأن الفارسي يحمل في صدره كنزاً معرفياً عقائدياً لا يُقدر بثمن وكان محمد شديد الحرص على الإطلاع على هذا الكنز الثمين.

* * *

ونال عدد من المهاجرين القرشيين حظاً من الألقاب:

ــ (عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ومنزلي ومنزل إبراهيم تجاهين فى الجنة ومنزل العباس بن عبد المطلب بيننا مؤمن بين خليلين)(١٣١).

ــ (ثم قال رسول الله ــ ﷺ ــ: أبشروا أتاني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسول الله)(١٣٢).

ــ (نعم ترجمان القرآن أنت) مخاطباً عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

ــ (قال ابن عباس قال لى رسول الله ــ ﷺ ــ: نعم الترجمان أنت ودعا لى جبريل مرتين)(١٣٤).

ــ (نعم عبد الله وأخو العشيرة: خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه على الكفار والمنافقين)(١٣٥).

ــ (ذُكر عن رسول الله قال: خير أمراء السرايا زيد بن حارثة أقسمه بالسوية وأعدّ له في الرعية)(١٣٦) و(١٣٧).

وزيد وإن لم يكن قرشياً إلاَّ إنه كان في عدادهم فهو قرشي بالولاء إذ أنه في بداية الأمر كان عبداً لخديجة أولى زوجات محمد فأهدته إليه فتبناه فكان يقال «زيد بن محمد» فلما حُرّم التبني، اعتبر مولاه لأن القاعدة أن «الولاء لمن أعتق»، و«مولى القوم منهم» وكان محمد يحبه كثيراً حتى كان يقال عنه «الحِبّ» وكذلك أحب أسامة بن زيد فكان يقال له «الحِبّ

بن الحِبّ» وعيَّنه قائداً على آخر سرية يجهزها وكان فيها عدد من أكابر الصحابة وأعيانها مثل عمر بن الخطاب جعلهم مقودين لأسامة ولم يكن قد بلغ العشرين من عمره.

* * *

الأنصار هم الذين آووا محمداً وآزروه ونصروه وكانوا جنوده الأوفياء وأعوانه الخلص، ولذا فإنّ تقديره لهم كان عالياً حتى أنه صرح أنه لو سلك الأنصار وادياً وسلك الناس وادياً لسلك هو وادي الأنصار ودعا لهم له بالرحمة والمغفرة وأوصى بهم كثيراً، ومن ثم فكان من البديهى أن يكيل لعدد منهم الألقاب الفخيمة كيلاً، خاصة الكبراء والمتنفذين منهم ومن الصعب استقصاء ما ورد من أحاديث في هذا المجال ونكتفي ببعض الأمثلة التي تغني عن الحصر والتعداد:

ــ أعطى محمد سعد بن معاذ سيد الأوس «صك دخول الجنة» (روى أن جبريل عليه السلام نزل إلى النبي ــ ﷺ ــ معتجراً بعمامة من استبرق فقال: يا نبى الله، من هذا الذي فُتحت له أبواب السماء واهتز له العرش فخرج رسول الله سريعاً يجر ثوبه فوجد سعداً قد قبض)[١٣٨] و[١٣٩].

ــ (روى من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ــ ﷺ ــ أنه قال: لقد نزل من الملائكة في جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفاً ما وطئوا الأرض قبل)[١٤٠] و[١٤١].

وافتخر الأنصار بكل ما حدث عند موت سعد بن معاذ فقال شاعرهم:

وما اهتز عرش الله من موت هالك سـمعنا به إلاّ لسـعدٍ أبي عمرو

وبذلك وضع محمد سعداً في موضع السيادة عند وفاته بالأحاديث التي ذكرناها كما كان قد سيّده إبَّان حياته:

ــ (عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن جده قال: كنا جلوساً عند رسول الله ــ ﷺ ــ فجاء سعد بن معاذ فقال: هذا سيدكم)(١٤٢) و(١٤٣).

* * *

ــ (آمن كل شيء من معاذ بن جبل حتى خاتمه)(١٤٤). أي كل عمله صادر عن إيمان.

وروي من حديث أبي قلابة عن أنس ومنهم من يرويه مرسلاً وهو الأكثر:

(أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال: أرحم أمتي بأمتي أبو بكر... وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل)(١٤٥).

ــ (روي عن النبي ــ ﷺ ــ أنه قال: اقرأ أمتي أُبيّ (بن كعب بن قيس الخزرجي)(١٤٦).

ــ (عن قتادة عن أنس أن النبي ــ ﷺ ــ دعا أبيّاً فقال: إن الله أمرني أن أقرأ القرآن عليك، قال: الله سماني لك؟ قال: نعم فجعل أُبيّ يبكى)(١٤٧).

* * *

ــ (نعم العبد من عباد الله الرجل من أهل الجنة: عويمر بن ساعدة)(١٤٨).

ــ (حدثني عمارة بن خزيمة بن ثابتة عن أبيه أن رسول الله ــ ﷺ ــ ابتاع فرساً من سواء بن قتيل المحاربس فجحده، فشهد له خزيمة، فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ وما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضراً،

قال: صدقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلاَّ حقاً، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ من شهد له خزيمة أو شهد عليه، فحسبه)[١٤٩].

وأصبح خزيمة بن ثابت الأنصاري من ذلك الوقت يلقب بـ «ذى الشهادتين» ولم يتكرر في الإسلام أن شهادة رجل واحد مهما سما قدره تعدل شهادة رجلين سواه.

* * *

ـ (نعم الرجل: عبد الله بن رواحة)[١٥٠].

وكان شاعراً مجيداً وقد أتى اللقب ثمرته فقد قاتل حتى استشهد فى غزوة مؤتة.

ـ (روينا عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: خير فرساننا أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع).

وابن الأكوع أسلمي (من بني أسلم) وكان ممن بايع تحت الشجرة وله حكايات تدل على شجاعته وسرعة عدوه، ولا شك أن اللقب ضاعف من تفانيه وإقدامه وسرعته في الجري.

* * *

ـ (أعلم أمتي بالفرائض زيد بن ثابت)[١٥٢].

* * *

ـ كان يقال لـ عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الأنصاري: «ابن الغسِّيل» لأن أباه حنظلة قتل يوم أحد فقال النبي ـ ﷺ ـ: إن الملائكة تغسله ـ فقيل لابنه: «ابن الغسيل»، وله صحبة أيضاً)[١٥٣] و[١٥٤].

ــ (الأخرم الأسدي كان يقال له: فارس رسول الله ــ ﷺ ــ وكذا قتادة الأنصاري)[١٥٥].
والأخرم أسدي أي من بني أسد أما أبو قتادة فهو أنصاري بلا خلاف.

* * *

وكان محمد يلقب بعض الصحب لمناسبة مخصوصة فعلى سبيل المثال كان عبد الله بن سلام يهودياً ومن كبار الأحبار مسموع الكلمة لدى اليهود، فأسلم فشهد له محمد بدخول الجنة:

ــ (قال معاذ بن جبل: التمسوا العلم عند أربعة رهط... وعند عبد الله بن سلام الذي كان يهودياً فأسلم فإني سمعت رسول الله ــ ص ــ يقول: إنه عاشر عشرة في الجنة)[١٥٦].

وصحابي آخر آمن بمحمد فاضطهده قومه فغافلهم وهرب والتجأ إلى محمد فقابله بترحاب ومنحه لقباً مكافأة له على صموده:

ــ (عبد الله ذو البجادين لقبه رسول الله ــ ﷺ ــ ذو البجادين لأنه لما أسلم عند قومه جردوه من كل ما عليه وألبسوه بجاداً وهو الكساء الغليظ الجافي فهرب منهم إلى رسول الله ــ ﷺ ــ، فلما كان قريباً منه شق بجاده اثنين فأتزر بأحدهما وارتدى بالآخر)[١٥٧].

* * *

وإذا تفانى صحابي في خدمة محمد والصحاب وأظهر ذلك، فلا يجد محمد منحة ينفحه إياها سوى لقب يعتز به أكثر من اسمه الذي أطلق عليه أبوه بل إنه ينسى هذا الاسم ولا يتذكر إلاّ اللقب المحمدي ويلتفت عما سواه:

ــ (حدثنا سعيد بن جهمان قال: سألت «سفينة» عن اسمه فقال إنى مخبرك: كان اسمي قيساً فسماني رسول الله ــ ﷺ ــ سفينة، قلت: لم سماك سفينة؟ قال: خرج ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم، فقال: ابسط كساءك فبسطته، فجعل فيه متاعهم ثم حمّله عليّ فقال: احمل ما أنت إلاّ سفينة فقال لو حملت يومئذٍ وقر بعير أو بعيرين أو خمسة أو ستة ما ثقل عليّ)(١٥٨).

ــ (عن عمران البجلي عن مولى لأم سلمة قال: كنت مع النبي فى سفر فانتهينا إلى وادٍ فجعلت أعبر الناس وأحملهم فقال رسول الله ــ ص ــ لى: ما كنت اليوم إلاّ سفينة أو ما أنت إلاّ سفينة)(١٥٩).

وكان محمد يهدي ألقابه إلى البطون والأفخاذ والقبائل فقد رأينا فيما سبق مدحه للأنصار ودعاءه لهم ومعروف قوله الحكمة يمانية وأهل اليمن أرق قلوباً وأفئدة:

ــ (نعم الحي: الأزد والأشعريون لا يفرون في القتال ولا يغلون، هم مني وأنا منهم)(١٦٠). وفي حديث آخر مدح الأشعريين لأنهم إذا أرملوا أو قل طعامهم جمعوا ما لديهم من طعام واقتسموه بالسوية بينهم وذكر أنه منهم وهم منه.

ومدح غفار قبيلة أبي ذر لأنه ــ في رواية ــ أن أبا ذر عندما هاجر إلى يثرب/ المدينة كان معه جمع من قبيلته أسلموا على يديه من قبيلة مجاورة لها تسمى «أسلم» فلما رآهم محمد قال:

ــ (غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله)(١٦١). وفي رواية الحاكم زيادة:

ــ (أما أني لم أقله ولكن الله قاله)[١٦٢].

ــ (أسلم وغفار وأشجع ومزينة وجهينه ومن كان من بني كعب موالي دون الناس، الله ورسوله مولاهم)[١٦٣].

ــ (وجيء بنعم الصدقة لبني سعد فلما رآها راعه فقال:

هذه نعم قومي ــ فجعلهم قومه ــ وقال: هم أشد الناس قتالاً فى الملاحم)[١٦٤] وبنو سعد هؤلاء هم الذين استرضع فيهم محمد.

* * *

تلك كانت لقطات يمكن أن نصفها بأنها سريعة ولكنها تفي بالغرض وهو الكشف عن توظيف محمد لسلاح التلقيب في وجهه الإطرائي ــ لرياضة صحبه وقبائلهم وتطويعهم وصباغتهم بصبغته وحفز هممهم واستفراغ أقصى ما فى أعماق نفوسهم من دوافع ونوازع لاستخدامها في صالح الدين الذي دعاهم إلى اعتناقه ولتدعيم دولته القرشية التي أقامها في يثرب/ المدينة.

وعلى قدر ما قرأنا من سير الأنبياء والزعماء والقادة والمصلحين لم نرَ واحداً منهم التفت إلى أداة التلقيب التي تثمر مفعولاً أشبه بالسحر الحلال وأغدق على حوارييه ونصرائه وشيعته وتابعيه كماً وافراً من ألقاب المدح ونعوت الإطراء وصفات التقدير مثلما فعل محمد مع صحابته، وهو بلا شك كان ملهماً في ذلك بقدر ما كان موفقاً غاية التوفيق.

المصادر والهوامش

١ ــ **السيرة الحلبية** ــ الجزء الثالث ــ ص ١٩ ــ مصدر سابق.

٢ ــ **سورة الفرقان**، الآية السابعة.

٣ ــ **سورة المزمل**، الآية الخامسة.

٤ ــ **الجامع الصحيح** ــ مسند الإمام الربيع بن حبيب الأزدي البصري ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٤ ــ مصدر سابق.

٥ ــ **منهاج السنَّة النبوية** لـ ابن تيمية ــ الجزء الثالث ــ ص ٣٦ ــ مصدر سابق.

٦ ــ رواه أحمد في **المسند** والترمذي في **السنن** والطبراني في **الأوسط** وابن عساكر ــ عن **جميع الجوامع أو الجامع الكبير** جـ ١ ــ ص ٦٧ مصدر سابق.

٧ ــ الحديث في **مصنف** ابن أبي شيبة **ومسند** أحمد **والمختارة** للضياء المقدسي **والحلية** لـ أبي نعيم. نقلاً عن **جمع الجوامع** للسيوطي ــ جـ ١ ــ ص ٦٨ ــ سابق.

٨ ــ رواه أبو نعيم في **الحلية**، وابن عساكر، وأبو يعلي ــ المصدر نفسه وذات الصفحة.

٩ ــ المصدر ذاته والصفحة ذاتها، رواه الخطيب في **التاريخ** وابن النجار عن ابن عباس.

١٠ ــ رواه الترمذي والإمام أحمد في **مسنده** وأبو داود في السنن وأخرجه الحاكم على شرط الشيخين: البخاري ومسلم. نقلاً عن كتاب **السير الكبير** للإمام محمد بن الحسن الشيباني بشرح الإمام السرخسي ــ ص ٢١٩ ــ الجزء الأول تعليق الشيخ محمد أبي زهرة ــ تحقيق مصطفى زيد ــ الطبعة الأولى ١٩٥٨ ــ مطبعة جامعة القاهرة.

١١ ــ تعليق بقلم الشيخ محمد أبي زهرة على هامش الصفحة ٢١٩ من المصدر السابق.

١٢ ــ أخرجه الترمذي في **السنن** وقال: حسن غريب ــ **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** الجزء الثالث ــ العدد التاسع عشر ــ ص ٥٢٧.

١٣ ــ رواه الحاكم في **المستدرك** عن أبي هريرة ــ جمع الجوامع ــ الجزء الأول ــ ص ٢٦٣.

١٤ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الثاني ص ٦٢ ــ مصدر سابق.

١٥ ــ **الرياض النضرة في مناقب العشرة** لـ المحب الطبري ــ ص ٨١ ــ مصدر سابق.

١٦ ــ **التعريفات** لـ أبي حسن الجرجانى، المعروف بـ السيد الشريف ــ مصدر سابق.

١٧ ــ **المفردات في غريب القرآن** للراغب الأصفهاني ــ مصدر سابق.

١٨ ــ **سورة المائدة** ــ الآية الخامسة والسبعون.

١٩ ــ خرجه البخاري وفي **التاريخ** وابن سعد في **الطبقات** والترمذي وقال عنه: حسن صحيح والحاكم في **الكُنى** وأبو نعيم في **الحلية** والحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ــ نقلاً عن السيوطي في **جمع الجوامع** الجزء الرابع ــ العدد/ ٢٥ ــ ص ٣١١٠.

٢٠ ــ رواه ابن عباس في **الصحيحين**، عن منهاج **السنة النبوية** لابن تيمية ــ ص ٩ مج/ ٣ ــ مصدر سابق.

٢١ ــ **الرياض النضرة** لـ المحب الطبري ــ ص ٣٤٤ ــ مصدر سابق.

٢٢ ــ رواه أبو بكر أحمد بن أبي بكرٍ أبي عاصم الضحاك صاحب كتاب **الآحاد والمثاني من فضائل الصحابة** ــ نقلاً عن **الرياض النضرة** ص ٣٤٥ ــ مصدر سابق.

٢٣ ــ أخرجه أحمد والترمذي وصححه ــ وكذا أبو حاتم.

٢٤ ــ أخرجه في **الصفوة والملاء** في سيرته ــ نقلاً عن **الرياض النضرة** ص ٣٤٨ ــ مصدر سابق.

٢٥ ــ **جمع الجوامع للسيوطي** ــ ج/ ٤ ــ ع ٢٤ ــ ص ٢٩٦٤ ــ مصدر سابق.

٢٦ ــ أخرجه أحمد في **المسند**، ومسلم في **الصحيح**.

٢٧ ــ أخرجه أحمد في **المسند** والترمذي وقال: حسن غريب.

٢٨ ــ الحديث ورد في **كنز العمال** ونقله السيوطي في **الجامع الكبير** ج ٢ ص ١٩٨٠.

٢٩ ــ **لزيق ولسيق ولصيق** بمعنى واحد في **مختار الصحاح** فلان لزيقي أى بجنبي.

٣٠ ــ أخرجه الملاء في سيرته ــ نقلاً عن **الرياض النضرة** ص ٤٧٩ ــ مصدر سابق.

٣١ ــ عن ابن عمر في **حلية الأولياء** لـ أبي نعيم ــ نقلاً عن **الجامع الكبير** للسيوطي ج ١ ص ١٠١٣.

٣٢ ــ خرجه في **المصابيح الحسان** نقلاً عن **الرياض النضرة** ــ ص ٤٧٩ ــ مصدر سابق.

٣٣ ــ رواه الطبراني في **الكبير** عن ابن عباس ــ نقلاً عن **جمع الجوامع** للسيوطي ج ٣ العدد/ ١١٤٤٩.

٣٤ ــ أخرجه المخلص الذهبي والبغوي في **الفضائل**.

٣٥ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الثالث ــ ص ٥٨٨ ــ مصدر سابق.

٣٦ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لـ ابن عبد البر ــ المجلد الثالث ص ١٠٣٨ ــ مصدر سابق.

٣٧ ــ **المصدر نفسه** ص ١٠٤٠.

٣٨ ــ أورده الحاكم في **المستدرك** ــ عن جمع **الجوامع للسيوطي** ع ١٩ ج ٣/ ص ٢٣٢٨ ــ مصدر سابق.

٣٩ ــ الحديث في **مسند أحمد** وفي **حلية الأولياء وتفسير ابن كثير ومجمع الزوائد** والطبراني الكبير ــ عن **الجامع الكبير** للسيوطي ــ نفس الجزء والعدد والصفحة ــ مصدر سابق.

٤٠ ــ **الرياض النضرة** ــ ص ٥٨٣ وقال عنه المحب الطبري مؤلف الكتاب: أخرجه الملاء.

٤١ ــ **الرياض النضرة** ــ ص ٦٥٣ ــ أخرجه الطبراني.

٤٢ ــ **الرياض النضرة** ــ ٥٨٥ ــ أخرجه ابن السمان في الموافقة.

٤٣ ــ **حلية الأولياء** ــ للحافظ أبي نعيم الأصفهاني ــ المتوفى ٤٣٠هـ ــ المجلد الأول ــ الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ــ مطبعة السعادة ــ بـ مصر.

٤٤ ــ **المصدر السابق** ــ الصفحة رقم ٦٣.

٤٥ ــ **المصدر السابق** ــ ص ٦٦.

٤٦ ــ أخرجه ابن عبد البر في العلم وابن سعد في **الطبقات** عن كتاب **حياة الصحابة** لـ الكاندهلوي ــ جزء/ ٣ ــ ص ١٥٨.

٤٧ ــ أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وأبو حاتم وابن اسحق وأخرج معناه الحافظ الدمشقي في معجمه ــ نقلاً عن كتاب **الرياض النضرة** ص ٥٨٤ مصدر سابق.

٤٨ ــ أخرجه أحمد ومسلم والترمذي ــ نقلاً عن **حياة الصحابة** جـ ٢ ص ٢٨٩، سابق.

٤٩ ــ **السيرة النبوية** لـ ابن هشام ــ ج/ ٤ ــ ص ١٧٥ ــ **مصدر سابق.**

٥٠ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الرابع ص ٩١. فى **تحفة الأحوذي** في أبواب المناقب ــ **باب مناقب عليّ** ــ وقال الترمذي: حديث غريب.

٥١ ــ **منهاج السنة النبوية** لشيخ الإسلام ابن تيمية ــ ج ٤ ــ ص ١٦٨ ــ ١٦٩ ــ مصدر سابق.

٥٢ ــ رواه البخاري في **الصحيح** في كتاب **المغازي.** نقلاً عن **أسد الغابة** لـ ابن الأثير ــ المجلد الرابع ــ ص ٩٦.

٥٣ ــ **المصدر السابق** ص ٩٧ ــ (الجزء الرابع).

٥٤ ــ **الرياض النضرة في مناقب العشرة** لـ المحب الطبري ــ ص ٦٢٢ ــ مصدر سابق.

٥٥ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** عز الدين بن الأثير الجزري ــ المجلد/ ٤ ص ٩٧ ــ مصدر سابق.

٥٦ ــ **المصدر السابق** ــ ص ٩٨ (المجلد الرابع).

٥٧ ــ **الاستيعاب في معرفة الصحاب** لـ ابن عبد البر ــ المجلد الثالث ــ ص ١٠٩٦/ ١٠٩٧ ــ مصدر سابق.

٥٨ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لابن الأثير ــ مج/ ٣ ــ ص ٨٦ مصدر سابق.

٥٩ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لـ ابن عبد البر المجلد الثاني ــ ص ٧٧٧ ــ مصدر سابق.

٦٠ ــ ورد الحديث في **تهذيب تاريخ دمشق الكبير** عن الطبراني، وابن عساكر في تاريخه عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ــ ص ٢٠٢٨ ــ مصدر سابق.

٦١ ــ رواه الدارقطني، عن الجامع الكبير ــ ص ٢٠٢٩ ــ مصدر سابق.

٦٢ ــ **الاستيعاب** ــ مج/ ٢ ــ ص ٥١٣ ــ مصدر سابق.

٦٣ ــ أخرجه الملاء في سيرته ــ جاء ذلك في **الرياض النضرة** ص ٧٤٠ ــ مصدر سابق.

٦٤ ــ **الاستيعاب** مج/ ٢ ــ ص ٥١١ ــ مصدر سابق.

٦٥ ــ **الرياض النضرة** ص ٧٦٠ ــ مصدر سابق. وقال: أخرجه أبو عمر.

٦٦ ــ أخرجه أبو عمر ــ المصدر السابق ــ نفس الصفحة.

٦٧ ــ أخرجه الملاء في سيرته ــ **المصدر السابق** ــ ص ٧٦١.

٦٨ ــ أخرجه الملاء في سيرته ــ **المصدر السابق** ــ ص ٧٦٣.

٦٩ ــ أخرجه ابن عساكر وابن النجار. وعند الترمذي وابن حبان والحاكم عن سعد مرفوعاً. عن **حياة الصحابة** جـ ٣ لـ الكاندهلوي ــ مصدر سابق.

٧٠ ــ أخرجه الملاء في سيرته ــ **الرياض النضرة** ــ ص ٧٨٥.

٧١ ــ أخرجه البخاري ومسلم كما أخرجه أبو عمر ــ **الرياض النضرة** ص ٧٧٧.

٧٢ ــ كتاب **المغازي** لـ الواقدي ــ الجزء الأول ــ ص ١٠ ــ تحقيق مارسدن جونز ــ مصدر سابق.

٧٣ ــ رواه الترمذي وقال حسن صحيح. أورده السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ــ جـ ١ ــ ص ٩٣١ ــ مصدر سابق.

٧٤ ــ أخرجه الترمذي ورواه أيضاً عن قيس ــ نقلاً عن **الرياض النضرة** ص ٧٧٧ ــ مصدر سابق.

٧٥ ــ **الاستيعاب** لـ ابن عبد البر ــ مج/ ٢ ص ٧٩٣ ــ مصدر سابق.

٧٦ ــ **المصدر السابق** ــ ذات المجلد ونفس الصفحة.

٧٧ ــ **حياة الصحابة** لـ الكاندهلوي ــ جزء ٢ ــ ص ٩ ــ مصدر سابق.

٧٨ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ مج/ ٣ ــ ص ١٢٨٠.

٧٩ ــ أخرجه البخاري ومسلم وأخرجه الترمذي وأبو حاتم ولفظهما: لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح. نقلاً عن **الرياض النضرة** صفحة ٨٠٠.

٨٠ ــ أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ــ **أسد الغابة** مج/ ٢ ــ ص ٣٨٩ ــ مصدر سابق.

٨١ ــ **الاستيعاب** لـ ابن عبد البر ــ ج/ ٢ ــ ص ٦١٧، مصدر سابق.

٨٢ ــ **المصدر السابق** ص ٦١٨.

٨٣ ــ **المصدر السابق** ٦٢٠.

٨٤ ــ **أسد الغابة** ــ مج/ ٢ ــ ص ٣٨٩، مصدر سابق.

٨٥ ــ **الاستيعاب** لـ ابن عبد البر ج/ ٢ ــ ص ٦١٧ ــ مصدر سابق.

٨٦ ــ (الكفاء النظير، وروح القدس ليس له كفاء أي جبريل ــ س ــ ليس له نظير ــ وفى حديث الأحنف: لا أقاوم من لا كِفَاء له يعني الشيطان، ومن كلامهم:

الحمد لله كفاء الواجب، وفي الشعر: فأنكحها من لا في كفاء ولا غنى). من **تاج العروس من جواهر القاموس** لـ الزبيدى ــ ص ٣٩٠ ــ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ــ الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م ــ سلسلة التراث العربي ــ الكويت ــ مطبعة حكومة الكويت.

٨٧ ــ أخرجه صاحب **الصفوة** ــ ورد ذلك في **الرياض النضرة** ص ٧١٣ ــ مصدر سابق.

٨٨ ــ أخرج أبو حاتم معناه ولفظه ــ ذات الصفحة من نفس المصدر.

٨٩ ــ المصدر نفسه ص ٧١٩.

٩٠ ــ في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي: **الغطرشة** = التعامي عن الشيء.

٩١ ــ رواه مسلم في **الصحيح** وأخرجه ابن جرير من طريق العوني عن ابن عباس وأورده السيوطي في **أسباب النزول** ــ ص ٤٥ ــ مطبعة الشعب ــ مصدر سابق.

٩٢ ــ أخرجه البخاري.

٩٣ ــ رواه الدارقطني.

٩٤ ــ **أسباب النزول** لـ الواحدي النيسابوري ــ ص ٥٥ ــ مصدر سابق.

٩٥ ــ أخرجه في **الصفوة**.

٩٦ ــ أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

٩٧ ــ أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

٩٨ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ــ الجزري ــ المجلد الثاني ــ ص ٣٦٧ ــ مصدر سابق.

٩٩ ــ هنا مشكل لأنَّ علياً يقطع بأن محمداً ما جمع لأحد أبويه إلاّ لسعد بن مالك أو سعد ابن أبي وقاص مع أننا رأينا الزبير يؤكد أن محمداً جمع له أبويه يوم أُحد ويوم قريظة فأما أن علياً لم يسمع محمداً يجمع أبويه للزبير وإما أنه ضنّ بهذا الشرف على الزبير لأنه ناوأه استحقاقه للخلافة وحاربه في وقعة «الجمل».

١٠٠ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ــ ابن عبد البر ــ المجلد الثاني ــ ص ٦٠٨ ــ مصدر سابق.

١٠١ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ــ ابن عبد البر ــ المجلد الرابع ــ ص ١٧٦٠ ــ مصدر سابق.

١٠٢ ــ **الغطرسة:** الإعجاب بالنفس والتكبر والتطاول على الأقران وتعسف الطريق والتبختر في المشية ــ من **القاموس المحيط** للفيروزآبادي. والحق أنها صفات

العرب الفاتحين تجاه مواطني البلاد التي فتحوها وكانوا يعتبرونهم موالى لهم، والمقياس في هذا الأمر بما تحقق على أرض الواقع لا بما ورد في بعض آيات القرآن أو عدد من أحاديث محمد.

١٠٣ ــ من النقاط التي عتّم عليها المؤرخون القدامى: موضوع عزل ابن الخطاب لابن الوليد من القيادة الذي مروا عليه مرور الكرام، ولم يمحصوا دوافعه ولم يحللوا بواعثه واكتفوا بالتعليل البسيط الذي قاله عمر وهو خيفه الناس الافتتان بخالد، ولم يتعمق أولئك المؤرخون ولم «يحفروا» ليكشفوا الكوامن وراء هذه القولة العبيطة (في **مختار الصحاح: العبيط** من الدم هو الخالص الطري، وفي «المعجم الوسيط»: لحم عبيط أي طري غير ناضج): هل لأنَّ ابن الخطاب من فرع شديد التواضع من قريش بينما خالد من بني المغيرة وهم «درة قريش» كما كان يصفهم محمد، فكيف يتألق خالد هذا التألق الباهر في ميادين القتال فيجمع بين عراقة المحتد ونباهة الذكر؟ أم هي تصفية حسابات للمنافسة القديمة بينهما وقت أن كانا شابين في مكة؟ أم أن عمر ما زال على رأيه وهو ضرورة توقيع حد الزنا على ابن الوليد لأنه فيما عرف بحروب الصدقة أو الزكاة أيام ابن أبي قحافة قتل خالد ظلماً وعدواناً وبشهادة عدد من الصحابة الذين شهدوا الواقعة مالك بن نويرة وتزوج امرأته أم متمم فائقة الحسن والتي كانت صاحبة أجمل ساقين في الجزيرة كلها حتى كان يضرب بهما المثل فيقال: «أجمل من ساقي أم متمم» وقبل أن يستبرئها ولو بحيضة واحدة ودخل أو بنى بها في ميدان القتال على خلاف ما استقر عليه العرف سواء في الإسلام أو قبله وقيل إن خالداً كان يتعشقها، وطلب عمر توقيع حد الزنا على خالد ورجمه ولكن أبا بكر رفض لأن خالداً «سيف مسلول» على رقاب المشركين! فلما حانت الفرصة رجم عمر بن الخطاب خالد بن الوليد رجماً معنوياً بعزله ــ دون جريرة وهو في قمه انتصاراته ــ من القيادة العامة وحوله من «فيلد مارشال» إلى «نفر» بسيط. أيا كانت العلل وراء إصدار ابن الخطاب قراره ذاك والذي هو بكل المقاييس مشامسة «أي معاداة ومعاندة» لـ أبي سليمان أو خالد بن الوليد فإننا ندعو الباحثين والدارسين إلى الالتفات لهذه المسألة وبحثها وتحليلها.

١٠٤ ــ **الرياض النضرة** لـ المحب الطبري ــ ص ٨٠٦ ــ مصدر سابق.

١٠٥ ــ يُدخل عمر نفسه في هذا الاعتراف فهو قد دفع أربعين ألف درهم صداقاً لأم كلثوم بنت عليّ، وهو مبلغ يدل على أن صاحبه يحتاز ثروة جسيمة، وكان بميزان تلك الأيام صداق الأثرياء الأماثل والمتمولين المتضلعين من الأموال.

١٠٦ ــ في **مختار الصحاح** للرازي: **أرض نشِفة** بكسر الشِين بيِّنة النَّشَف بفتحتين إذا كانت تنشف الماء أي تشربه.

١٠٧ ــ أورده الترمذي وقال حسن غريب؛ وعن عائشة في المستدرك للحاكم وابن عساكر. عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ــ للسيوطي ــ ص ٢٢٣٨ ــ عدد/ ١٨ ــ ج/ ٣ ــ مصدر سابق.

١٠٨ ــ **الاستيعاب** ــ مج/ ٣ ــ ص ١١٣٨ ــ مصدر سابق.

١٠٩ ــ **تحفة الأحوذي في المناقب** وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

١١٠ ــ **الاستيعاب** ــ مج/ ٣ ــ ص ١١٣٨ ــ مصدر سابق.

١١١ ــ من أحاديث الآحاد.

١١٢ ــ متفق عليه واللفظ للبخاري ــ من **المغنى** لـ ابن قدامة ــ مج/ ٢ ص ١٨١ مصدر سابق.

١١٣ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الأول ــ ص ٢٤٥ ــ مصدر سابق.

١١٤ ــ **الاستيعاب** ــ المجلد الأول ــ ص ١٨٠ ــ مصدر سابق.

١١٥ ــ هذه الأحاديث التي ضمن فيها محمد لبلال دخوله الجنة تثير مشكلاً وهو: أن عمر بن الخطاب ــ أحد العشرة المبشرين بالجنة ــ في مسألة تقسيم أراضي السواد وما عليها من «العلوج» أو الفلاحين وأهم أهل البلاد الموطوءة، كان لبلال ــ المضمونة له الجنة ــ رأي في تلك المسألة لم يرُق لعمر فدعا على بلال فلم يُحل عليه الحول ومات في طاعون عمواس. فكيف يجوز لمبشَّر بالجنة أن يدعو على من ضمن دخول الجنة بالهلاك لمجرد الاختلاف في الرأي!

١١٦ ــ عن ابن عساكر في تاريخه ــ وفي **تهذيب تاريخ دمشق** للشيخ عبد القادر بدران **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ــ للسيوطي ــ العدد/ ١٨١ ــ ج/ ٣ مصدر سابق.

١١٧ ــ **الاستيعاب** ــ ابن عبد البر ــ مج/ ٢ ــ ص ٧٢٩ ــ مصدر سابق.

١١٨ ــ **أسد الغابة** ــ ابن الأثير الجزري ــ مج/ ٣ ــ ص ٣٩ ــ مصدر سابق.

١١٩ ــ **أسد الغابة** ــ ابن الأثير الجزري ــ مج/ ١ ــ ص ٣٥٧ ــ مصدر سابق.

١٢٠ ــ **الاستيعاب** ــ ابن عبد البر ــ مج/ ١ ص ٢٥٥ ــ مصدر سابق.

١٢١ ــ الحديث ذاته في **تحفة الأحوذي** شرح الترمذي ــ وفي **سنن ابن ماجه** وفي **مسند الإمام أحمد** وفي **الطبقات الكبرى** لابن سعد وفي **حلية الأولياء** لأبى نعيم وفى **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبّان.**

١٢٢ ــ **الاستيعاب** ــ لابن عبد البر ــ مج/ ١ ــ ص ٢٥٥ ــ مصدر سابق.

١٢٣ ــ **أسد الغابة** ــ ابن الأثير الجزري ــ مج/ ١ ــ ص ٣٥٧ ــ مصدر سابق.

١٢٤ ــ الحديث في **مسند أحمد وصحيحى البخاري ومسلم** وفي **حلية الأولياء**. ذكر ذلك السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ص ١٢٥٨ ــ العدد/ ١٠ ــ الجزء/ ٣ ــ مصدر سابق.

١٢٥ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الثاني ــ ص ٤٢٠ ــ مصدر سابق.

١٢٦ ــ **المصدر نفسه** والمجلد والصفحة.

١٢٧ ــ لم تشفع شهادة عليّ أو محمد لسلمان أنه من آل البيت في الإصهار إلى عمر بن الخطاب فقد خطب إحدى بناته ولكن لم يتوفق له ذلك! لماذا؟ لأن العرف الاجتماعي الذي كان سائداً قبل الإسلام وانتقل إليه والذي يتمثل في أن «الأعجمى لا يتزوج العربية وغير القرشي لا يتزوج قرشية» ــ هذا العرف كان أقوى وأمضى من تلك الشهادة التي فهم عمر بن الخطاب (حين رفض المصاهرة) أنها شهادة معنوية لا تذهب إلى أكثر من تطييب الخاطر.

١٢٨ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الثاني ــ ص ٤٢٠ ــ مصدر سابق.

١٢٩ ــ **المصدر نفسه** والمجلد والصفحة.

١٣٠ ــ **الاستيعاب** ــ المجلد الثاني ــ ص ٦٣٦ مصدر سابق.

١٣١ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الثالث ــ ص ١٦٦ مصدر سابق.

١٣٢ ــ كتاب **المغازي** ــ لـ الواقدي ــ الجزء الأول ــ ص ٢٩٠ مصدر سابق.

١٣٣ ــ أخرجه أبو نعيم في **حلية الأولياء** نقلاً عن السيوطي **في جمع الجوامع** ع/ ٢٥ جـ ٤ ص ٣١١٨.

١٣٤ ــ أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير** وكذا في **مجمع الزوائد** للهيثمى عن السيوطي نفس المصدر والصفحة.

١٣٥ ــ الحديث في **مسند** أحمد، والبغوي، والطبراني الكبير، وأخرجه البخاري بمعناه عن أنس، والحاكم في **المستدرك** عن عبد الله بن أبي أوفى، والترمذي عن زيد بن أسلم عن أبي هريرة. نقلاً عن السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ــ العدد الخامس والعشرون ــ الجزء الرابع ــ مجمع البحوث الإسلامية ــ القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٣٦ ــ كتاب **السير الكبير** ــ ص ٢٢١ ــ للإمام الشيباني بشرح السرخسي ــ تعليق الشيخ محمد أبي زهرة ــ تحقيق زيد ــ مصدر سابق.

١٣٧ ــ زيد بن حارثة هو الوحيد بين الصحابة الذي ذُكر بالاسم في القرآن عندما قصَّ زواج محمد بـ زينب بنت جحش.

١٣٨ ــ **أسد الغابة** ــ ابن الأثير ــ المجلد الثاني ــ ص ٣٧٥ ــ طبعة الشعب ــ مصدر سابق.

١٣٩ ــ **الاستيعاب** ــ ابن عبد البر ــ المجلد الثاني ــ ص ٦٠٥ مصدر سابق. ويذكر صاحب **الاستيعاب** أنه «حديث رُوي من وجوه عدة كثيرة متواترة رواها جماعة من الصحابة».

١٤٠ ــ **المصدر السابق** ــ ذات المجلد والصفحة نفسها.

١٤١ ــ جاء بالحديث أن عدد الملائكة الذين حضروا جنازة سعد بن معاذ سبعون ألف ملك وللرقم سبعة ومضاعفاته شأن كبير في الديانة الإسلامية فالأرضون سبع والسموات سبع وأشواط الطواف حول الكعبة سبعة وأشواط السعي بين الصفا والمروة سبعة والجمرات التي ترمى في كل مرة سبع «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام «وسبعة» إذا رجعتم والسبع المثانى، «إن تستغفر لهم سبعين مرة» و«سبع طرائق» و«ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم» و«اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا» و«لها سبعة أبواب» و«سبعاً شداداً» و«سبع سنبلات خضر وأخر يابسات» و«سبع ليال وثمانية أيام حسوماً» و«يأكلهن سبع عجاف». إن ترداد رقم سبعة ومضاعفاته بكثافة يحتاج إلى لفتة من علماء الأنثروبولوجيا الدينية.

١٤٢ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ الأثير الجزري ــ المجلد الثاني ــ ص ٣٧٥ ــ طبعة الشعب ــ مصدر سابق.

١٤٣ ــ الذي نرجحه أن موقف سعد بن عبادة زعيم الخزرج من قريش يوم فتح مكة ثم مواقفه من دولة قريش: طلب المبايعة لنفسه بالخلافة في سقيفة بني ساعدة ثم عدم مبايعته لابن أبي قحافة ثم لابن الخطاب بعده كل هذه لها أثر واضح في اختفاء أحاديث محمد في تلقيب سعد بن عبادة والإشادة بمناقبه مع أنه لا يقل تدعيماً وتأييداً لمحمد عن سعد بن معاذ. كما أننا نرجح أن موقف سعد بن عبادة من دولة قريش الذي شرحناه آنفاً باختصار وراء حادثة موته الغامضة وللتغطية عليها أشيعت أسطورة أن الجن هي التي قتلته وقالت في ذلك شعراً: ــ

نحن قتلنا سيد الخزرج   سعد بن عبادة
رميناه بسهمين   فلم نخطئ فؤاده!!!

١٤٤ ــ رواه ابن سعد في **الطبقات** ــ عن السيوطي في **جمع الجوامع** جـ ١ ــ ص ٢٦ مصدر سابق.

١٤٥ ــ **الاستيعاب** ــ ابن عبد البر ــ المجلد الأول ــ ص ٦٨ ــ مصدر سابق.

١٤٦ ــ **نفس المصدر** والمجلد ــ ص ٦٦.

١٤٧ ــ **نفس المصدر** والمجلد ــ ص ٦٧.

١٤٨ ــ **مسند الفردوسي** للديلمي، نقلاً عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** ع ٢٥ ــ ج ٤ ــ ص ٣١٠٢ ــ مصدر سابق.

١٤٩ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الثاني ــ ص ٤٨٣ ــ مصدر سابق.

١٥٠ ــ رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ــ كذا في **كنز العمال** ــ نقلاً عن: **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي ــ ع ٢٥ ــ ج ٤ ــ ص ٣١١٢ ــ مصدر سابق.

١٥١ ــ رواه النسائي وابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح والحاكم في **المستدرك** عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي ــ الجزء الأول ــ ص ١١١٧ ــ مصدر سابق.

١٥٣ ــ **أسد الغابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الثالث ــ ص ٣٦١ ــ مصدر سابق.

١٥٤ ــ كان حنظلة قد ألم بأهله أي جامع امرأته ليلة وقعة أُحد فلما سمع الهيعة أو الهائعة أي صيحة الحرب أو النداء للمعركة بادر إليها دون أن يغتسل من الجنابة وهذا سوف يأتي مفصلاً في فصل «طاعة الصحابة المطلقة لمحمد» فلما قتل في المعركة أخبر محمد باقي الصحاب أنه رأى الملائكة تغسّل حنظلة (أي عوضاً عن غسل الجنابة لأن القاعدة أن الشهيد المقتول لا يغسل غسل الجنازة) إذن غسل الملائكة لحنظلة كان للجنابة الذي تركه تلبية لنداء محمد بالاشتراك في القتال.

١٥٥ ــ **الاستيعاب** لـ ابن عبد البر ــ المجلد الأول ــ ص ٧٣ ــ مصدر سابق.

١٥٦ ــ **أسد الغابة** لـ ابن الأثير ــ المجلد الثالث ــ ص ٢٦٥ ــ مصدر سابق.

١٥٧ ــ **المصدر السابق** ــ المجلد الثاني ــ ص ٢٢٦.

١٥٨ ــ أخرجه أبو نعيم في **الحلية** والحاكم في **المستدرك.**

١٥٩ ــ أخرجه أحمد في المسند والهيثمي في **مجمع الزوائد** وابن منده وأبو نعيم. عن **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** الجزء الثالث ــ العدد ١٩ ــ ص ٥٢٦ ــ مصدر سابق.

١٦٠ ــ أخرجه أحمد في **المسند** والترمذي وأبو يعلي والحاكم في **الكنى** والبغوي والطبراني الكبير والحاكم في **المستدرك** وقال حديث صحيح ولم يخرجاه. عن **الجامع الكبير** للسيوطي ــ ج/ ٤ ــ عدد/ ٢٥ ص ٣١٠٩ ــ مصدر سابق.

١٦١ ــ **صحيح مسلم** في كتاب فضائل الصحابة.

١٦٢ ــ الحاكم في **المستدرك** وقال إن للزيادة شاهداً آخر بإسناد صحيح.

١٦٣ ــ أورده الحاكم في **المستدرك** وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

١٦٤ ــ أخرجه الحاكم في **المستدرك** وقال: صحيح على شرط مسلم.

الفصل الرابع

التغيير

دخول الصحابة ديانة الإسلام التي بشَّر بها محمد، عامل فارق فى مسيرة عمرهم صدعه مرحلتين ما قبل وما بعد، إنهم باعتناقهم إياها ولجوا طوراً جديداً لا عهد لهم به ولا رباط له بحياتهم السابقة.

تلك قاعدة أصولية كان محمد يعلّمهم إياها قولاً وعملاً ويرسّخها في نفوسهم وعقولهم وقلوبهم جميعاً حتى لا يلتفتوا إلى الماضي وليرموه في دائرة النسيان فهو «جاهلية» وهو وصف مُبشّع أي مُنفّر يجمع بين الجهل والجهالة، وهو ضد العقل والحكمة والرزانة والاتزان ويعنى التسرع والطيش والخفة وانعدام البصر بالأمور وبعواقبها.

كان من أبرز مبادرات محمد في ذلك السبيل هو التغيير: تغيير أسماء الأشخاص رجالاً ونسوة وأسامي الأماكن والبلاد التي كانوا يستقرون فيها أو التى يعبرونها إذا كانت (= الأسماء) تعيد إلى الذاكرة عقيدة أو عقائد الزمن الغابر أو تبعث على الشؤم والتشاؤم.

سبق أن ذكرنا أن محمداً غيّر اسم القرية التي هاجر إليها، من «يثرب» أو «أثرب» إلى «المدينة» وأنه فرض عقوبة جزائية أو جزاء عقابياً

على من ينطق بالاسم الممحوّ. (قال رسول الله ــ ﷺ ــ: من قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات هي طيبة هي طيبة هي طيبة. وقال عيسى بن دينار أحد أئمة المالكية: من سمّى «المدينة» «يثرب» كُتبت عليه خطيئة، وبذلك جزم الإمام العلاّمة الشيخ كمال الدميري في منظومته في «كتاب الحج» حيث قال: ومن دعا يثرب يستغفر فقوله خطيئة لتنظر)[١]؛ أي أن الخطيئة لا تلحق بمن عاصر محمداً فقط بل بجميع المسلمين إلى آخر الدهر. ولكن لماذا غرّب محمد الاسم القديم «أثرب» أو «يثرب» بل نفاه نفياً.؟

كما ذكرنا: لتهجر الأمة الجديدة التي شرع في تشكيلها هناك ــ وخاصة الأثاربة ــ تاريخها كله وتحتقره وتزدريه بل وتتبرأ منه كلية ــ هذه واحدة وربما كانت هي الأكثر تميُّزاً أما الأخرى فإن (المُثرب هو القليل العطاء وبالتشديد المخلّط والمُفسد)[٢] فحتى لا يقول صناديد مكة الذين دفعوا محمداً للنفي الاختياري إنه لم يجد إلاّ بلداً قليل العطاء أو مفسداً يؤويه، وهذا أمر كان يُوليه عناية فائقة فالقارئ الواعي المتفحص لسيرته قراءة مستأنية ناقدة يدرك أن عينه كانت دائماً على مكة وما يقوله عنه المكيون لو أنه فعل كذا أو أحجم عن كذا، وهذا ملمح اجتماعي يضيء الدوافع الحافّة لكثير من أعمال محمد وإحجاماته.

وأورد صاحب السيرة الشامية علّة ثالثة (وسبب الكراهة إما لكون ذلك مأخوذاً من الثرب بالتحريك وهو الفساد أو من التثريب وهو المؤاخذة بالذنب وكان ــ ﷺ ــ يحب الاسم الحسن)[٣].

أما الرابعة فهى أنه: لتظل مهجره أو مهاجره «مدينةً» له بما أغدقه عليها من فضل، وما أشاعه فيها من هداية ونور.. الخ مما يثبّت «مديونية» الأتباع أو الأصحاب له وبالتالي يضاعف ولاءهم وانقيادهم له

ويسارع في عملية «التصبيغ» التي يضعها محمد كما قلنا في مركز اهتمامه.

وبعد ذلك يكون قد آن الأوان لضرب بعض الأمثلة على تغيير أسامي الأشخاص أبو بكر بن أبي قحافة أخلص أعوان محمد وأقرب مساعديه كان اسمه «عبد الكعبة» وهذا إقرار بألوهية الكعبة مما يتنافى مع ديانة الإسلام التي يدعو إليها محمد لذا سارع بنزع هذا الاسم عنه وأبدل به اسماً يتفق مع دينه، سمّاه عبد الله (كان اسم أبي بكرٍ «عبد الكعبة» فلما أسلم سمّاه النبي ــ ﷺ ــ «عبد الله»، قاله جمهور أهل النسب)(٤).

ويبدو أن اسم عبد الكعبة كان شائعاً لديهم آنذاك لِما كان لها من مكانة سامية في نفوسهم، إذ كان يعظمها العرب قاطبة حتى أهل الكتاب منهم باعتبار أنها إرث إبراهيم أبي الأنبياء الذي تنتسب إليه الأديان الساميَّة الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام. ولشدة تعظيمهم الكعبة كانوا يقسمون بها مثل ما كانوا يقسمون بـ «اللات» ــ و«العزّى» واليوم يحلف المسلمون بـ «الله» و«العزيز»، وفي هذا يقول شاعرهم:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

إذن لا عجب أن ينتشر الاسم بينهم، ومن هنا كان محمد يتعقب حامليه ويرفعه عنهم ويمنحهم أسامي لا تتنافر مع العقيدة التي يذيعها بينهم (عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس القرشي، يُكنى أبا سعيد، أسلم يوم الفتح وصحب النبي ــ ﷺ ــ وكان اسمه «عبد الكعبة» فسمّاه رسول الله ــ ﷺ ــ «عبد الرحمن»)(٥).

وكثيراً ما كان يسمي الواحد منهم ابنه عبداً لأحد الأصنام التي كانوا يعبدونها ويعظمونها مثل: «عبد وُدّ» و«عبد الأشهل» و«عبد مناف» و«عبد العزى» فكان محمد يسارع إلى محوها وإحلال أخرى محلها تتلاءم مع العقيدة التي يبشِّر بها (فلما صلى رسول الله ــ ﷺ ــ تصفح الناس، ينظر من أتاه فرأى شخصاً فقال من أنت؟ قال: أنا «عبد العزّى» فقال أنت «عبد الله»)[٦].

* * *

كانت الطبيعة في مجتمع شبه الجزيرة العربية عامة ومنطقة الحجاز خاصة موضع اهتمام العربي والأعرابى على السواء لما لها من تأثير مباشر على حياتهم وطرق معيشتهم بالإضافة إلى ما كانوا يتّسمون به من سذاجة في الفكر وبساطة في العقل وتلقائية شديدة في التدبر وكلها كانت تدفعهم إلى عبادة تلك الظواهر أو بعضاً منها، فيسمي الواحد منهم ابنه عبداً لأحد ظواهرها: (عبد الله أبي عوف البجلي كان اسمه «عبد شمس» فسماه النبي «عبد الله» وذلك لما وفد إليه قال له الكلبي)[٧] فعلاوة على أن الشمس أكبر ظواهر الطبيعة ومن أكثرها تأثيراً عليهم فإنَّ عبادتها كانت سائدة في أنحاء متفرقة من جزيرة العرب وقيل إنها اسم (صنم قديم ذكره الكلبي)[٨] وأحد فروع قبيلة قريش الكبيرة والمتمولة هم «بنو عبد شمس بن مناف» ولهم من التاريخ العربي الإسلامي مكان مرموق.

كذلك كانوا يُسمّون «عبد الحجر» لأهمية الأحجار لديهم فعلاوة على أنها مادة الجبال التي هي أعظم مكونات الطبيعة في نظرهم وكانوا ينسبون إليها أنها ترسخ الأرض وتقيم توازنها ولولاها لاختل نظامها، فإنها (= الأحجار) هي التى كانوا ينحتون منها أصنامهم المختلفة التي كانوا

يتعبدونها (عبد الحجر «بن عبد المدان» بن الديّان... وسمّى النبي ــ ص ــ «عبد الحجر» «عبد الله»)[٩].

وكان للجن في معتقداتهم مساحة وسيعة ونسجوا حولها أساطير عجيبة اعتبروها حقائق لا ترقى إليها الشكوك، ونسبوا إليها خوارق مدهشة فهى التي تتسمع أخبار السماء وتنقلها إلى أتباعها من الإنس ــ وهي التي تلهم الشعراء قصائدهم (وبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بهذا الشأن أن ذكروا لها أسماء فقالوا: إن اسم شيطان الأعشى «مسحل» وفيه يقول:

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنام، جدعاً للهجين المذمم[١٠]

حتى حسّان بن ثابت ــ شاعر الرسول ــ كان يعتقد أنّ له قريناً من الجن يقول بلسانه الشعر بل إن حسّاناً حدّد القبيلة التي ينتسب إليها ذلك الشيطان وهي قبيلة شيصبان أي أن ملهمه مُحسّب مُنسّب وليس زنيماً أو دعياً:

ولي صاحب من الشيصبان فحيناً أقــول وحينــاً هو

وشيصبان وشنقناق رئيسان عظيمان من الجن ــ بزعمهم)[١١].

ولما أسلم حسّان بن ثابت ودخل في دين محمد وأخذ يحامي وينافح عن محمد ودينه ودولته كان «روح القدس» هو الذي يسانده ويؤازره كما أخبر بذلك محمد؛ وكانوا يعتقدون أن لكل وادٍ كبيراً من الجن فإذا أرادوا البيات فيه استعاذوا واستجاروا به ليأمنوا الشرور كافة، وكانوا يذهبون إلى أنها تتشكّل في صور متباينة وأنها تكلمهم ويكلمونها

وتعلم ما لم يكونوا يعلمون ولذلك كانوا يسمّون بعض أبنائهم عبيداً لها، بل كان بعض البطون والأفخاذ يعبدها من دون الله (وكانت بنو مليح من خزاعة وهم رهط «طلحة الطلحات» يعبدون الجن وفيهم نزلت الآية ١٩٤ من سورة الأعراف «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم»)[١٢] فالتسمية التي تدل على العبودية لها إما: للإقرار بمكانتها لديهم دون عبادة وإما لعبادتها فعلاً (عبد الله بن شهاب بن عبد الله... بن زهرة الأكبر وهو حدان شهاب الزهري الكبير..اسمه «عبد الجان» فسماه رسول الله ــ ﷺ ــ «عبد الله» وهو من المهاجرين إلى أرض الحبشة)[١٣] إن تغيير محمد لأسماء عبيد شمس والحجر والجان أمر طبيعي بل بديهي فمن غيَّر المعبود لمن يظل بعض أتباعه يحمل أسامي تقطع بعبوديتهم لغير الإله الذي أرشدهم إليه وليعلن لهم بكل وضوح القطيعة الحاسمة لكل معبوداتهم السابقة والمنافية لمعبوده هو.

* * *

يقول الكلبي (وكانت العرب تسمّى بأسماء يعبّدونها لا أدري أعبّدوها للأصنام أم لا منها عبد ياليل وعبد غنم وعبد كلال وعبد رضيًّ)[١٤]، ولما كانت علة تغيير محمد للأسماء التي ذكرنا أنها تقطع بالعبودية لأصنام أو آلهة كانوا يعبدونها فإن الأسامي التي لا تدل على عبودية لغير الله تجاوز عنها فرأينا من صحبه من كان يسمّي «عبد ياليل» مثل (عبد ياليل بن عمرو بن عمير والثقفي كان من وجوه ثقيف وهو الذي أرسلته ثقيف إلى رسول الله ــ ﷺ ــ بعد قتل عروة بن مسعود وأرسلوا معه خمسة رجال بإسلامهم)[١٥] و[١٦].

وكذلك عبد عمرو، عبد عوف، عبد قيس، وعبد المطلب، ظلت أساميهم كما هي.

٢

أما أسماء القبائل والبطون والأفخاد... فقد كان محمد لا يغيرها حتى إن دلّت على عبودية لغير الله، مثل عبد «مناف» وعبد «شمس» وعبد «الأشهل» وهو صنم ورد ذكره في «جمهرة اللغة» ولم يورده الكلبي في «الأصنام» وعبد «العزى» جاء ذكره في سورة النجم وأورده الكلبي في الأصنام، وتيم «اللات»: ذكر أيضاً في سورة النجم وذكره الكلبي في الأصنام، وكانت هناك عدة تجمعات (ربما قبائل أو أفخاذ أو بطون) تسمى بـ «تيم اللات» و«زيد اللات»، وزيد «مناة»: جاء اسمه في سورة النجم وذكره الكلبي في الأصنام وعبد «وُدّ» ورد في سورة نوح وذكره الكلبي في الأصنام.

إن إحجام محمد عن المساس بها يرجع إلى معرفته العميقة بحساسية النسب لدى العرب، فالعربي أو الأعرابى قد يقبل ـ عن طيب خاطر ـ تغيير اسمه المباشر ولكنه يرفض تماماً تغيير اسم قبيلته أو رهطه لأنه يعتز بنسبه اعتزازاً لا حدود له ربما يفوق اعتزاز المواطن المعاصر بوطنه وجنسيته.

ويدل من ناحية أخرى على أن عملية التغيير هذه تتم من قِبَل محمد بميزان دقيق وأن السياسة لها ضلع فيها أي أنها ليست فريضة دينية بحت لأن المسائل الدينية كان محمد يطبقها بحزم ولا يتهاون فيها، فقد قرأنا في سيرته أن بعض القبائل طلب منه أن يخفف عنه شطراً من فرائض الإسلام أو يسمح له بالاستمرار في ارتكاب عدد من المحارم مثل الزنى وشرب الخمر ولعب الميسر.. الخ باعتبار أنهم ألفوه واعتادوا عليه ولا يطيقون فراقه فكان جوابه الرفض البات:

(وقد كانوا سألوه ــ ثقيف ــ مع ترك الطاغية ــ صنمهم ــ أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: أما كسركم بأيديكم فسنعفيكم منه وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه..)(١٧)؛ ولكن إذا وقفت قبيلة أو بطن أو فخذ أو رهط.. منها يناوئ محمداً ويعارضه في إتمام خطة التغيير التي رسمها بدقة وشرع في تنفيذها خطوة بخطوة ولكن بتصميم وصرامة، فلا يجد مناصاً من استئصال شأفة مقاومته مهما كان الثمن الذي سوف يدفعه الخصم المناوئ أو بمعنى أدق العدو والمقاوم (فلما فتح رسول الله ــ ﷺ ــ مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها، قدم عليه جرير بن عبد الله البجلي مسلماً، فقال له: يا جرير ألا تكفيني «ذا الخلصة» (= صنم بين مكة واليمن كانت تعظمه بجيلة وخثعم وأزد السراة وبطون من هوازن) فقال: بلى، فوجهه إليه فخرج حتى أتى أحمس من بجيلة فسار بهم إليه فقاتلته خثعم وباهلة ودونه، فقتل من سدنته من باهله يومئذ مائة رجل وأكثر القتل في خثعم وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر من خثعم فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان «ذي الخلصة» وأضرم فيه النار»(١٨) و(١٩).

إن قتل أكثر من ثلثمائة رجل في سبيل هدم صنم مسألة ليست ذات بال لأنهم كانوا حجر عثرة أمام التغيير وهيمنة ديانة محمد على أنحاء الجزيرة كافة والتى هي في الوقت نفسه بمثابة الهوية أو البطاقة التي يتعين حملها إعلاناً على التابعية القرشية أي الولاء لدولتها التي أقيمت فى يثرب/ المدينة، فما حاول القيام به بنو قحافة وخثعم وباهلة من الاحتفاظ بديانتهم والدفاع عن الصنم الذي كانوا يتعبدون له (ذى الخلصة) له بُعدان:

أ ــ دينى: وهو إعلان الانفصام عن الديانة التي جاء بها محمد

وأذاعها في الجزيرة العربية وأنه لا شأن لهم بها ولا يدينون بها ويتجاهلونها:

ب ــ سياسي: هو إنكار الدولة القرشية وعدم الاعتراف بها أو الانضواء تحت رايتها وما يستتبع ذلك من نتائج وآثار.

أي أنها مقاومة مسلحة للتغيير الذي يقوم به محمد في وجهيه الديني والسياسي.

لهذا قابلها بحزم وصلابة وندب لها أحد رجاله الأشدَّاء وهو جرير البجلي ممن لهم دراية بالمنطقة وأهلها وأحوالها، فضلاً عما كان يمتاز به من قسوة وضراوة، ولذلك كان يقال عن جرير أنه «الذي أدخل المذلة على نساء خثعم»(٢٠) لأنه قتل رجالهم قتلاً ذريعاً.

ومن ثم فلم تكن مصادفة أن يستعين به الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في غزو العراق بعد أن سمع بما فعله وفي وقعة هدم «ذى الخلصة» (وأمَّر جريراً على بجيلة فسار بهم من مكانه العراق)(٢١)، وكعادته لم يقصّر جرير فظهرت نزعته القتالية الشرسة وفعل الأفاعيل فى أهالى العراق الذين كانوا يدافعون عن وطنهم ومقدساتهم وذراريهم ضد الذين اقتحموها عليهم عنوة بمقولة إنهم يريدون أن يخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة الله مع أنهم لم يشتكوا إليهم من ذلك ولم يستعينوا بهم، ولذلك امتدح المؤرخون ممارسة جرير الجبارة وما أوقعه بالعراقيين المنكودين البؤساء وهذا ما عبّر عنه ابن الأثير الجزري (وكان له في حروب العراق: القادسية وغيرها أثر عظيم)(٢٢) وعبارة «أثر عظيم» لا تحتاج إلى شرح.

ولم تكن حادثة هدم «ذي الخلصة» هى الوحيدة فقد تكررت عند

هدم عدد من الأصنام في شتى بقاع الجزيرة ولكنها الأشد إبانة عن المصير الذي تلقاه مقاومة التغيير المسلحة والأكثر في عدد القتلى فعند هدم صنم «وُدّ» (كان بوادي القُرى تعبده بطون من قضاعة وتعظّمه وتسمى بعض بنيها «عبد ودّ» وقد جاء ذكره في الآية الواحدة والسبعين من سورة نوح وأورده الكلبي في كتابه «الأصنام» ولكن يبدو أن قبائل أخرى كانت تعبده أو تعظّمه) ندب محمد واحداً من أمهر قواده وأكثرهم بصراً بأمور الحرب والمعارك وهو خالد بن الوليد المخزومي القرشي لهدمه وقمع مقاومة من يحول دونه (وكان رسول الله ــ ﷺ ــ بعث خالد بن الوليد من «غزوة تبوك» لهدمه (= وُدّ) فحالت بينه وبين هدمه بنو عبد وُدّ وبنو عامر الأجدار فقاتلهم وكان فيمن قتلهم يومئذ رجل من بني عبد وُدّ يقال له قطن بن شريح.. وقتل أيضاً حسّان بن مصادر ابن عم الأكيدر صاحب «دومة الجندل» وهدمه خالد)[٢٣] ويبدو أن قطن بن شريح كان حبيباً أثيراً لدى أمه، فلما رأته مقتولاً (أكبت عليه فشهقت شهقة فماتت)[٢٤].

ولكن الظاهر أن المقتلة التي حدثت عند «ود» على يد خالد بن الوليد كانت أهون من مقتلة البجلي عند «ذى الخلصة».

وهاتان الواقعتان أوردناهما كمثلين على أن محمداً كان لا يتردد البتة في اللجوء إلى القوة المسلحة إذا لزمت لإنفاذ خطة التغيير خاصة فيما يتعلق بدينه.

٣

لما كان محمد ابن مجتمعه وربيب بيئته ــ فهو وإن ساهم كثيراً في التأثير على مجتمعه ــ إلا أنه ولا شك قد تأثر بهما (المجتمع والبيئة) وما كان يدور في جنباتهما من أعراف وعوائد وعادات وأنساق اجتماعية

وظواهر طبيعية، هذه حقيقة يؤكدها علم الاجتماع. كان العرب فى ذلك الزمان يتفاءلون ويتشاءمون فمن مظاهر تفاؤلهم أنهم كانوا يسمون الركب المسافر «القافلة» أي الراجعة التي ستعود سالمة من مخاطر الطريق المتنوعة ويسمون «الصحراء المهلكة» التي قل أن ينجو منها من يجتازها «المفازة» أى التي فيها الفوز والنجح ويسمون «اللديغ» من تلدغه حية أو عقرب «السليم» تمنياً له بالسلامة والشفاء وكانوا يضربون القداح عند بداية سفرهم فإذا خرج «الناهي» عدلوا عنه أو أرجأوه لموعد آخر وهكذا ومثلهم محمد كان يحب الفأل الحسن فإذا سمع اسماً طيباً جميلاً تفاءل به سواء في سفر أو فى غزوة، حدث ذلك وتكرر كثيراً ومؤلفات السيرة أوردت الجم الغفير من تلك الأخبار. ومن هذا المنطلق كان محمد يغيّر أسامي الصحاب القاتمة الصارمة المتجهمة أو القبيحة المزرية إلى أخرى فاتحة لباب الأمل والبشر والبشاشة:

ــ (عن سهل بن سعد قال: كان رجل من أصحاب النبي ــ ﷺ ــ اسمه «أسود» فسماه النبي ــ ﷺ ــ «أبيض» رواه ابن وهب عن ابن لهيعة ومثله قال ابن منده)[٢٥].

ــ (روى عروة بن الزبير عن عبد الله بن كعب بن مالك قال لما حفر النبي ــ ﷺ ــ الخندق قسّم الناس وكان هو يعمل معهم، وكان فيهم رجل كان اسمه «جُعيلاً» فسماه رسول الله ــ ﷺ ــ «عُمر»)[٢٦].

ــ (وقال رسول الله ــ ﷺ ــ كما حدثني مَنْ لا أتهم من رجال طيء ــ: ما ذكر رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلاَّ رأيته دون ما يقال فيه إلاّ «زيد الخيل» فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سمّاه رسول الله ــ ﷺ ــ «زيد الخير»)[٢٧] و[٢٨].

ـ (عبد الله سعيد بن العاص القرشي الأموي كان اسمه فى (الجاهلية!) «الحكم» فقال له النبي ـ ﷺ ـ ما اسمك؟ قال «الحكم»، قال: أنت «عبد الله»)(٢٩) و(٣٠) والحكم ليس اسماً سيئاً ولكن كان يُكنى به «أبو الحكم» بن هشام أعدى أعداء مُحمد ولذا كنّاه «أبا جهل» أو لأنَّ «الحكم» من أسماء إله محمد التسع والتسعين.

ـ (عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي والد عمر الشاعر المشهور كان يُكنى أبا عبد الرحمن وكان اسمه في (الجاهلية!) «بحيراً»، فسماه رسول الله ـ ﷺ ـ «عبد الله»)(٣١).

ـ (ليلى السدوسية امرأة بشير بن الخصاصية روى عنها إياد بن لقيط قالت: إن رسول الله ـ ﷺ ـ سمى زوجها «بشيراً» وكان اسمه «زخماً»)(٣٢).

ـ (مطيع بن الأسود بن حارثة بن نضلة القرشي العدوي كان اسمه «العاصى»، فسمّاه رسول الله ـ ﷺ ـ «مطيعاً»)(٣٣).

ـ (روى محمد بن عثمان بن حوشي عن أبيه عن جده قال: لما أظهر الله تعالى دينه... انتدبت في أربعين فارساً مع «عبد شر» فقدم المدينة.... فقال «عبد شر»: إن هذا لحسن فأسلم فقال النبي ـ ص ـ: ما اسمك؟ قال: «عبد شر» قال: أنت «عبد خير»)(٣٤).

ولعل في هذه الأمثلة الغَنَاء لأن هناك عشراتِ الأخبار المشابهة لها والتي تقطع بأن محمداً كان يستحسن الأسماء فينبذ ما كان منها قبيحاً ويستبدل به ما هو جميل مليح.

* * *

ولم يقتصر محمد على تغيير أسامي الرجال بل غيّر أسماء النسوان:

ــ (عن عائشة ــ رض ــ قالت: جاءت عجوز إلى النبي ــ ﷺ ــ فقال: من أنت؟ قالت: «جشامة» المزنية قال: بل أنت «حنانة» المزنية.)[٣٥].

ــ (أم كلثوم جميلة بنت عاصم بن ثابت بن حَمِيٍّ الدبر بن الأفلح الأنصارية كان اسمها «عاصية» فسمّاها رسول الله ــ ﷺ ــ «جميلة» تزوجها عمر بن الخطاب سنة سبع من الهجرة فولدت له عاصماً)[٣٦] و[٣٧] و[٣٨].

ــ (حدثنا صبيح بن سعيد النجاشي المدني قال: سمعت أمي تقول: إن اسمها كان عنبة فسماها عنقودة)[٣٩] أستصغر محمد اسم «عنبة» على هذه الصحابية فغيّره إلى «عنقودة» تكريماً لها وتيمناً بأن تصبح وفيرة الطرح والعطاء مثل العنقود».

ــ (روى حماد بن سلمة عن نافع عن ابن عمر أن ابنة لعمر بن الخطاب كان يقال لها عاصية فسمّاها رسول الله ــ ﷺ ــ جميلة)[٤٠].

ــ (زينب بنت أبي سلمة القرشية المخزومية ربيبة رسول الله ــ ﷺ ــ وأمها أم سلم زوج النبي ــ ﷺ ــ كان اسمها «بُرّة» فسماها «زينب» ــ ونقل مثل هذا عن زينب بنت جحش ــ رض ــ)[٤١].

ــ (جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار من بني المصطلق من خزاعة ــ زوج النبي ــ ﷺ ــ سباها رسول الله ــ ﷺ ــ «يوم المريسيع ــ غزوة بني المصطلق» ثم تزوجها في سنة خمس من الهجرة وكان اسمها «بُرّة» فغيّر اسمها إلى «جُويرية»)[٤٢].

ــ (ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج النبي ــ ﷺ ــ وكان اسمها «بُرّة» فسماها رسول الله ــ ﷺ ــ «ميمونة»)[٤٣] و[٤٤].

ــ في الأخبار الثلاثة الأخيرة نجد أن محمداً غيّر اسمي زوجتيْن من زوجاته التسع بالإضافة إلى ربيبة له، وهذا أمر لا غرابة فيه إذ أنه كان يغيّر أسماء النسوان اللاتي لا تربطهن به سوى رابطة الإسلام فما بالكم بمن يعشن معه تحت سقف واحد!

ولكن لم أصرَّ محمد في المرات الثلاث على رفع اسم «بُرّة» عن زوجتيه وربيبته؟ لأن كلمة «بُرّة» تدل على الصغر وقلة الشأن والتفرد والضالّة والقماءة...

وهذا ما جاء على لسان واحدة من زوجات محمد التسع وهى من أحبهن إليه وهي زينب بنت جحش التي تزوجها بتفويض أو أمر مباشر من الله:

(وكان اسم جحش بن رئاب «والد زينب بنت جحش» «بُرّة» بضم الباء فقالت زينب لرسول الله ــ ﷺ ــ: يا رسول الله لو غيّرت اسم أبي فإن «البُرّة» صغيرة، فقيل إن رسول الله ــ ﷺ ــ قال لها: لو أبوك مات مسلماً لسمّيته باسم من أسمائنا أهل البيت ولكني سمّيته «جحش» والجحش أكبر من «البُرّة»)[٤٥].

إن دلالات كلمة «بُرّة» التي ذكرناها آنفاً لا يليق أن يحملها بعض زوجه أو ربيبة له، لأنهن يعشن في بيت النبوة ومعدن الرسالة ومقر رئاسة دولة قريش، والذي كان مقصد المسلمين من كل صوب وحدب وملاذهم، والذي لا يحسن أن تتردد بين جنباته أسامي تشي بالهوان والتصاغر لأن ذلك ينال من المكانة السامية التي يتوجب على الأتباع

والصحبة أن يستشعروها نحوه، وتلك كانت شفرة عليهم أن يفكوها ثم يفهموها فتساهم بقدر وفير من المعاونة على تربيتهم التربية المثلى في نظره.

خلاصة القول أن محمداً كان حريصاً على تغيير الأسماء الشائهة والمنفرة والمحقرة والمُهينة للنسوان بذات المستوى الذي دأب فيه على رفع الأسماء الفوالت للرجال سواء وُزن ذلك الانفلات بميزان العقيدة أو الديانة التي بشَّر بها ودعا إليها وحث على اعتناقها، أو آب (= التغيير) إلى دافع جمالي بحت أو إلى النزعة التفاؤلية التي هي أثر من آثار مجتمعه وبيئته (بما فيها الظواهر الطبيعية).

وأيّا كان الباعث إلى تبديل الأسماء فقد كان هو ذاته رافعاً من الأهمية بمكان ملموساً لا تخطئه العين الباصرة الناقدة من روافع خطة التطبيع والصباغة والقولبة للأتباع والصحاب بقالب الإسلام.

٤ ______________________

لم يقف محمد عند حد تغيير أسماء أتباعه وأصحابه رجالاً ونسوة بل تجاوز ذلك إلى أسامي الأماكن مثل البيار = الماء، والجبال والطرق والقرى.

لقد رأينا فيما سلف كيف غيّر اسم أثرب أو يثرب إلى المدينة وكشفنا عن دوافعه، ولأهميته أفردنا له بحثاً مستقلاً أو شبه مستقل.

ومعذرة إذا كررنا القول: إننا لسنا بصدد كتابة سيرة لمحمد ولا لصحبه ولذا فليس مطلوباً منا أن نورد إحصاءً دقيقاً للأخبار المتعلقة بالمحاور التي ندرسها ونمحصها، ومن ثم فإننا نكتفي بعددٍ محدودٍ من الأحاديث أو الوقائع نقدمه كدليل على ما نقصد.

* * *

منطقة الحجاز ليس بها نهر وعبّر القرآن عن ذلك بقوله «بواد غير ذي زرع»[٤٦] والماء كان بل ولم يزل ــ لولا الأساليب الاصطناعية الحديثة ــ شحيحاً وكان حفر بئر خاصة إذا أعطى ماءً وفيراً ــ حدثاً تتناوله الركبان ويتحدث عنه الهاجع والناجع وكان التعامل مع البيار عندهم طقساً حياتياً، وورد البئر يمارسه الفرد يومياً مثل ما يذهب المواطن حالياً إلى بائع الصحف والخضر والبقالة... الخ.

والتفت محمد إلى هذه الشعيرة المعيشية المتكررة التي قد تغيب عن غيره، فتعقّب البيار ذات الأسماء المنفرة فأطاح بها وأحل محلها أسامي حسنة:

ــ (قال عمرو بن الجموح... نعم الفأل والله إني لأرجو أن تغنموا وتظفروا بمشركي قريش، إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى «حسيكة» فإن رسول الله ــ ﷺ ــ قد غيّر اسمه إلى «السقيا»)[٤٧].

ــ (فلما قدم أبو سلمة المدينة... انتقض الجرح فمات لثلاث ليالٍ بقين من جمادى الآخر فغُسّل من «اليسيرة» ــ بئر بني أمية ــ بين القرنين ــ كان اسمها في (الجاهلية!) «العسيرة»، فسماها رسول الله ــ ﷺ ــ «اليسيرة»)[٤٨].

ــ (عن محمد بن إبراهيم التيمي قال: مرّ رسول الله ــ ﷺ ــ فى غزوة ذي قرد على ماء يقال له «بيسان» فسأل عنه فقيل: اسمه «بيسان» وهو مالح، فقال: لا بل هو «نعمان» وهو طيّب، فغيّر الاسم وغيّر الله الماء، فاشتراه طلحة ثم تصدّق به وجاء إلى النبي ــ ﷺ ــ فأخبره فقال له: ما أنت يا طلحة إلاّ فيّاض، فسُمى طلحة الفيّاض)[٤٩].

إن تغيير اسم البئر على وجه الخصوص له أثر نفسي وإيحاء نافذ على المخاطبين بالتغيير وخاصة وأنَّ مَنْ صدر عنه شخصية كارزمية (= آسرة) مثل محمد وقادرة ــ في نظر تابعيه وصحبته ــ على الإتيان بالخوارق والمعجزات، فكل هذه عوامل فاعلة في إقناعهم أن البير بعد أن كان «حسكة»[٥٠] شحيحة الماء أصبحت ثرّة غزيرة العطاء، وتحولت من العسر إلى اليسر ومن الملوحة إلى العذوبة... الخ.

فمن جانب أشاع الراحة في نفوسهم وأمدهم بالأمل.

ومن جانب آخر أكد تأثير محمد على كل مناحي حياتهم بل ظواهر الطبيعة وفي مقدمتها الماء الذي تتوقف حياتهم وحياة دوابهم عليه، الأمر الذي يمنحه (= محمداً) مزيداً من القداسة في نفوسهم، وتغدو طاعتهم إياه ويصير انقيادهم إلى أوامره فرضاً واجباً لا محيص عنه ــ وبطريق الحتم واللزوم فإن مبادرات التطبيع والتطويع والصبغ التي يوجهها إليهم لا تقابل إلا بالطاعة التامة والتسليم الكلي.

* * *

وهكذا مع أي بقعة جبل أو طريق أو مقر سكنى، حتى ولو كان يمرّ به مروراً عابراً أو يسمع أن أتباعاً له أو صحاباً قد آووا إليه واستوطنوه. هي إذن سياسة متبعة لا يفلت منها شخص ــ ذكراً كان أو أنثى ــ أو مكان. بئراً كان أو جبلاً أو طريقاً أو نجعاً.. الخ لأن محمداً كان بصدد تخليق أمة جديدة هى «أمة لا إله إلا الله» لها عقائدها وعباداتها وشعائرها وطقوسها وقيمها وأنساقها... المستحدثة التي لا صلة لها بما قبلها... إذن يلزم أن تتميز الأسامي فيها بما يتفق مع أمة جديدة لها بنيتها المغاير وطبيعتها المختلفة وقوامها المباين...

ولما كانت (= الأمة) ناشئة وفي طور النمو والارتقاء والتقدم فيتعين أن يشيع في أبنائها؟ التفاؤل والإقبال على الحياة والأمل الوطيد فى مستقبل مشرق وغدٍ زاهٍ، ولذلك فلينَحَّ جانباً من أسماء الأشخاص والأماكن ما ينافي الدين الجديد بما يضمه من عقائد وعبادات وشعائر وطقوس... الخ أو ما يبثّ فيها اليأس والقنوط والإحباط والتشاؤم وفلّ العزائم وتثبيط الهمم...

ــ (في الطريق إلى الطائف... سلك في طريق يقال لها «الضيّقة» فلما توجه فيها رسول الله ــ ﷺ ــ وسأل عن اسمها فقال: ما اسم هذه الطريق؟ فقيل له: «الضيّقة»، فقال: بلى هى «اليُسرى»...)(٥١).

ــ (إذ قال رسول الله ــ ﷺ ــ: بأي بلاد الله.. «شكر»؟ فقام إليه الجرشيان فقالا: يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له «كشر» وكذلك يسميه أهل «جرش» فقال: إنه ليس بـ «كشر» ولكنه «شكر»)(٥٢).

ــ (عن عائشة قالت: كان النبي ــ ﷺ ــ إذا سمع اسماً غيّره، فمرّ على قرية يقال لها «عفرة» فسمّاها «خضرة»)(٥٣).

ونختم الفصل بهذا الحديث وهو صريح النص والدلالة معاً على أن تغيير الأسماء كان لدى محمد منهجاً ثابتاً وخطة محكمة وليس عملاً عشوائياً أو آنياً أو ظرفياً أو وقتياً... وعبارتها «كان النبي ــ ﷺ ــ إذا سمع اسماً غيّره» تفيد الإلف والعادة والاستمرارية لا الفردانية أو الاستثناء أو الغرابة أو الطارئية أو اللاتوقع أو اللاانتظار بل هو أمر ثابت محسوب مقدَّر مقنن لا يستطيع أحد أن يحكم عليه أنه فجائي أو وليد الصدقة أو ابن لحظته...

والتى أكدت هذه الحقيقة هى عائشة أَحَبُّ زوجاته التسع إلى قلبه والتى لازمته أكثر من عشر سنوات في ليله ونهاره والتى هي بنص حديثه

المشهور كانت تحمل «نصف الدين» الذي دعا إليه وتعرفه وتعلّمه وتفتي فيه بينما باقي الزوجات وسائر أهل بيته وكل المسلمين من قبيلة قريش وأصحابه المهاجرين والأنصار وغيرهم، كل هؤلاء يحملون النصف الآخر (خذوا نصف دينكم عن هذه الحُميراء)[٥٤] و[٥٥].

والحميراء أى البيضاء المشوبة بحمرة ووصفها في حديث آخر بـ «الشُقَيّراء». إذن خطة التغيير التي نفذها محمد لا يجمل أن يماري فيها أحد.

وخاتمة المطاف في هذا الفصل: المخاطبون بهذا التغيير (من الأشخاص بداهة) أي الذين أوقعه عليهم محمد ونعني بهم الأتباع والصحبة وهم أفراد «أمة أمِّيَّة» كما كان محمد دائماً يصف أمته.

مثل هؤلاء كانت تسيطر عليهم الغيبيات والماورائيات واللازمانيات والكائنات المستقرة في العوالم العليا والتى هى بطبيعتها مفارقة للإنسان، والمخلوقات العجيبة المدهشة مثل الجن والغول والعنقاء وكانوا يؤمنون بالحسد والعين والنفث في العقد والرُقي والتعاويذ والتمائم... الخ.

ومن كانت تلك حالتهم العقلية والفكرية والثقافية والمعرفية... تشيع بينهم الأساطير والتوهمات والتخيلات والقيم اللاعقلانية البعيدة عن المنطق أو ارتباط النتيجة بالسبب أو المعلول بالعلة وتتحكم فى أفعالهم وإحجاماتهم الخشية الهائلة من المجهول المهيب والرهبة البالغة من غضب قوي لا تعرف كنهها ولذا نراها تؤمن بالصدفة والحظ والبخت[٥٦] والنصيب ولانتشار يقينهم في السحر كانوا يمارسون «العمل»[٥٧] والشبشبة[٥٨] والعكوسات (ج عكس)[٥٩] والنفث في العقد[٦٠] وتقرأ فى سيرهم: أخباراً وحوادث مكدسة تؤكد إيمانهم المطلق بهذه الأمور واعتبارها حقائق مؤكدة لا يرقى إليها أى شك.

ومثل ذلك المجتمع الساذج لا عجب أن يتشاءم أفراده ويتفاءلون ويربطون كافة شئون حياتهم بتلك المعتقدات:

السفر والزواج والختان وعقد الصفقات وشراء الدور والعبيد والإماء... الخ ولذا فان أتباع محمد وصحبته الذين عاشوا شطراً كبيراً من حياتهم في ذلك المجتمع إذا كان الخارجون منهم في بعث أو سرية أو غزوة... وردوا ماءً سألوا عن اسمه فأجيبوا باسم يوحي بالإحباط والهزيمة والشر تشاءموا وتثاقلوا عن أداء ما كلفهم محمد به بل ربما عادوا أدراجهم طلباً للنجاة والسلامة أما إذا مروا بطريق أو جبل أو نجع كان اسمه يبعث على التفاؤل انبسطت أساريرهم وتهللوا ونشطت سواعدهم للقيام بما عهد إليهم محمد به.

ولقد أدرك محمد ــ وهو الفطن البالغ الفطانة ــ لذلك الملمح فى نفوس أتباعه وصحابته فاستثمره أكمل استثمار فبادر إلى نزع الأسامي القبيحة الموحشة المنفرة المثبطة المحبطة وركّب على الأماكن باختلاف أنواعها أسماء حسنة مليحة سارة مبهجة منشطة ليظل الاتباع والأصحاب في حالة حركة دائمة لا تكل ولا تمل في خدمة الدين الذي بلغهم إياه ودولة قريش التي أقامها في يثرب/ المدينة وبها حقق حلم جده الأعلى قصيّ بن كلاب.

المصادر والهوامش

١ ــ **كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد** للإمام محمد بن يوسف الصالح الشامي المتوفى ٩٤٢هـ ــ المعروف بـ **السيرة الشامية** ــ تحقيق عبد العزيز عبد الحق حلمي ــ الجزء الثالث ــ ص ٤٢٧. الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ــ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٢ ــ **القاموس المحيط** للفيروزآبادي. مادة «ثرب».

٣ ــ **سبل الهدى والرشاد** أو **السيرة الشامية** الجزء الثالث ــ ص ٤٢٧.

٤ ــ **الرياض النضرة في مناقب العشرة** لـ المحب الطبري ــ صفحة ٩٣ ــ مصدر سابق.

٥ ــ **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي جـ ٣ ــ ع ١٩ ــ ص ٢٣٢٨ ــ مجمع البحوث الإسلامية.

٦ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الثالث ــ ص ٢٢٨.

٧ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الثالث ــ ص ٣٥٩.

٨ ــ **تاج العروس من جواهر القاموس** لـ الزبيدى مادة **شمس**.

٩ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الثالث ــ ص ٤٢٠ ــ مصدر سابق.

١٠ ــ **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** لـ أبي منصور عبد الملك الثعالبي ٣٥٠/ ٤٢٩هـ ــ تحقيق محمد أبو الفضل ص ٧٠ ــ طبعة ١٩٨٥م ــ دار المعارف بمصر ــ العدد السابع والخمسون من سلسلة «ذخائر العرب».

١١ ــ **المصدر نفسه** والصفحة نفسها.

١٢ ــ كتاب **الأصنام** لـ هشام بن محمد السائب الكلبي ــ ت ٢٠٤هـ ــ تحقيق د/ محمد عبد القادر محمد وآخر ــ طبعة ١٩٩٣م مكتبة النهضة المصرية القاهرة.

١٣ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الثالث ــ ص ٢٧٧ ــ مصدر سابق.

١٤ ــ **الأصنام** ــ ص ٤٥ ــ مصدر سابق.

١٥ ــ **الاستيعاب في معرف الأصحاب** لـ ابن عبد البر ــ المجلد الثالث ــ ص ١٠٠٧ ــ مصدر سابق.

١٦ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الثالث ــ ص ٥١٢ ــ مصدر سابق.

١٧ ــ **السيرة النبوية** لـ محمد بن عبد الملك بن هشام ــ تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف

ــ الجزء الرابع ــ ص ١٨٥ ــ د. ت. ن ــ مؤسسة نبع الفكر العربي بمصر ــ مطبوعات مكتبة ومطبعة شقرون بـ مصر ــ مصدر سابق.

١٨ ــ **الأصنام** لـ الكلبي ــ ص ٥٠ ــ ٥١ ــ مصدر سابق.

١٩ ــ **الاستيعاب** لابن عبد البر ــ الجزء الأول ــ ص ٤٣٨ ــ سابق ــ ولكن باختصار.

٢٠ ــ **الأصنام** لـ الكلبي ــ نفس الصفحة ــ مصدر سابق.

٢١ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحاب** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الأول ص ٣٣٣ ــ مصدر سابق.

٢٢ ــ **المصدر نفسه** والمجلد والصفحة.

٢٣ ــ **الأصنام** لـ هشام الكلبي ــ ص ٦٧ ــ مصدر سابق.

٢٤ ــ **المصدر نفسه** والصفحة نفسها.

٢٥ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ المجلد الأول ــ ص ٥٨ ــ مصدر سابق.

٢٦ ــ **المصدر السابق** ــ ذات المجلد ــ ص ٣٤٤.

٢٧ ــ **السيرة النبوية** لـ ابن هشام ــ الجزء الرابع ــ ٢١١.

٢٨ ــ **الروض الأنف** لـ السهيلي ــ الجزء الرابع ــ ص ٢٢٧.

٢٩ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الثالث ــ ص ٢٦٢ ــ مصدر سابق.

٣٠ ــ **الاستيعاب** ــ الجزء الأول ــ ص ٦٣ ــ مصدر سابق.

٣١ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد الثالث ــ ص ٢٣٣ ــ مصدر سابق.

٣٢ ــ **أسد الغابة** ــ المجلد السابع «كتاب النساء» ص ٢٥٧ ــ مصدر سابق.

٣٣ ــ **المصدر السابق** ــ المجلد الخامس ــ ص ١٩١، مصدر سابق.

٣٤ ــ **المصدر السابق** ــ المجلد الثاني ــ ص ٧١ ــ مصدر سابق.

٣٥ ــ أخرجه البيهقي وابن النجار ــ نقلاً عن كتاب: **حياة الصحابة** لـ الكاندهلوي ــ الجزء الثاني ــ ص ٤٥٤ ــ مصدر سابق.

٣٦ ــ **الاستيعاب** ــ الجزء الثاني ــ ص ٧٨٢ ــ مصدر سابق.

٣٧ ــ **أسد الغابة** ــ ص ٥٢ «كتاب (= باب) النساء) ــ مصدر سابق.

٣٨ ــ **الرياض النضرة في مناقب العشرة** لـ المحب الطبري ــ هامش ص [illegible] ــ مصدر

٣٩ ــ **أسد الغابة** ــ الجزء السابع ــ «كتاب (= باب) النساء» ــ ص ٢٥٧ ــ مصدر سابق.

٤٠ ــ **الاستيعاب** ــ الجزء الرابع ــ ص ١٨٠٣ ــ مصدر سابق.

٤١ ــ **أسد الغابة** ــ الجزء السابع ــ «كتاب النساء» ــ ص ١٣١ ــ مصدر سابق.

٤٢ ــ **الاستيعاب** ــ المجلد الرابع ــ «باب النساء» ــ ص ١٨٠٥ ــ مصدر سابق.

٤٣ ــ **المصدر السابق** المجلد نفسه ص ١٩١٤ ــ ١٩١٥ مصدر سابق.

٤٤ ــ **أسد الغابة** ــ الجزء السابع ــ «كتاب النساء» ــ ص ٢٧٢ ــ مصدر سابق.

٤٥ ــ ذكر هذا الحديث مسنداً في كتاب **المؤتلف والمختلف** أبو الحسن الدارقطني نقلاً عن **الروض الأنف** لـ السهيلي ــ الجزء الثاني ــ ص ٢١٦ ــ مصدر سابق.

٤٦ ــ الآية الرابعة عشرة من **سورة إبراهيم**.

٤٧ ــ كتاب **المغازي** لـ محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧هـ ــ «الواقدي» ــ الجزء الأول ص ٢٣ ــ تحقيق د. مارسدن جونز ــ د. ت. ن. مؤسسة الأعلمي ــ بيروت.

٤٨ ــ **المصدر السابق** ذات الجزء ــ ص ٣٤٣.

٤٩ ــ رواه الطبراني ــ **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** للسيوطي ــ ص ٢٠٢٩ ــ مجمع البحوث الإسلامية بمصر ــ مصدر سابق.

٥٠ ــ في **المعجم الوسيط:** حسك فلان بخل، وفلان محسك أي ممسك بخيل.

٥١ ــ **السيرة النبوية** ابن هشام ــ الجزء الرابع ــ ص ١٤٩ ــ مصدر سابق.

٥٢ ــ **المصدر السابق** ــ الجزء نفسه ــ ص ٢١٥.

٥٣ ــ رواه الطبراني في **المعجم الصغير** ــ ص ١٢٦ ــ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م دار الكتب العلمية/ لبنان.

٥٤ ــ متفق عليه، وكان الزهري يقول: لو جمع علم عائشة إلى علم أزواج رسول الله ــ ﷺ ــ وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل ــ هذا عن مقارنة النسوان بها، أما نسبة الرجال إليها: فقد كانت تفتي في عهد عمر وعثمان (رض) إلى أن ماتت يرحمها الله ــ وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ عمر وعثمان يرسلان إليها فيسألانها عن السنن ــ ولمزيد من التفصيلات عن علم «هذه الحمراء» انظر: **الطبقات الكبرى** لـ ابن سعد ــ الجزء الرابع ــ «باب أهل العلم والفتوى «من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ» الفصل الخاص بـ«عائشة ــ

رض ــ زوج النبي ــ ﷺ) من ص ١٨٨ إلى ص ١٩٢ ــ طبعة ١٣٥٨هـ ــ نشر: لجنة نشر الثقافة الإسلامية بدار جمعية الجهاد الإسلامي ــ مصر.

٥٥ ــ في **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي البخت: الجَد مُعرَّب ــ وفي **المعجم الوسيط** البخت: الحظ والبخيت هو المحفوظ.

٥٦ ــ في **المعجم الوسيط** العملة: الفعلة المنكرة.

٥٧ ــ في **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبادي **شبشب:** تمم والشوشب: العقرب والقمار وفي *المعجم الوسيط* عكس الشيء عكساً أي قلبه، وعكس الكلام أي ردّ آخره على أوله. وفي **مختار الصحاح** لـ الرازي/ مثله.

٥٨ ــ في **القاموس المحيط** لـ الفيروزآبــادي **النفــّاثات في العقد:** السواحر وفى **مختار الصحاح** لـ الرازي مثله، ونسب النفث للراقي.

الباب الآخر

الثمرة المرجوّة: الطاعة المطلقة

١

تلبية النداء

اتخذت طاعة الصحابة لمحمد طابعاً فذاً لا نظير له ولم يرَ التاريخ فى قديمه أو وسيطه أو حديثه شبيهاً له وسبق أن أوردنا رأي كل من أبي مسعود الثقفي وأبى سفيان بن حرب في تلك الطاعة وكانا وقت إدلائهما بشهادتيهما من أعداء محمد و(الفضل ما شهدت به الأعداء) ولكن تلك الشهادتين على قدرهما لا تغنيان عن ضرب الأمثلة التي توضح تلك الطاعة وتبرز ملامحها وتبين قسماتها ليتأكد كل من يطَّلع عليها أنها (= الطاعة) عديمة النديد:

١ ــ (عن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جده.. قال:

خرجنا مع رسول الله ــ ﷺ ــ إلى مسجد بني عمرو بن عوف فمرَّ بقرية بني سالم فهتف برجل من أصحابه يقال له صالح، فخرج إليه فأخذ رسول الله ــ ﷺ ــ بيده حتى إذا دخل المسجد نزع صالح يده من رسول الله ــ ﷺ ــ فعمد إلى بعض الحوائط يعني البساتين فدخله فاغتسل ثم أقبل ورسول الله ــ ﷺ ــ على باب المسجد فقال له أين ذهبت يا صالح؟ قال: هتفت بي وأنا مع المرأة مخالطها، فلما أن

سمعت صوتك أجبتك فلما دخلت المسجد كرهت أن أدخله حتى أغتسل فقال رسول الله ــ ﷺ ــ الماء من الماء)[١].

الصحابي صالح كان ممتطياً زوجه فما إن سمع صوت محمد يناديه حتى نزع نفسه منها قبل أن يقضي وطره وهرول ملبياً مجيباً وهذا معنى قول محمد (الماء من الماء) أي أن الغُسل من الجنابة عند إنزال المني فحسب، وهو لم ينزل.

ان الرجل خشى لو أنه حتى يكمل ما هو فيه لَوُصم بـ العصيان وهو جرم كبير خاصة وأن في تلك الأنحاء منافقين سجّل القرآن نفاقهم في سورة التوبة عند ذكره لواقعة مسجد الضرار فلو تلكأ صالح في إجابة النداء فإنَّ هناك احتمالاً أن يُعدّ منهم.

والمهم أن صالحاً عندما حكى القصة لمحمد لم يقل له: ما ضرك لو أنك مكثت مع زوجك حتى أتممت ثم أتيتني ولكنه فقط اعترض على غُسله لأن الغُسل من الجنابة لا يجب إلا بعد إنزال المني (نُسخَ هذا الحكم فيما بعد) أي أنه رأى أن ما فعله صالح حق له وواجب على صالح وأنه الصواب ولو أنه فعل خلافه لأخطأ وأثم.

٢ ــ وهناك قصة شبيهة بطلها صحابي يُسَمَّى حنظلة وكان ذلك فى ليلة عُرسه (نسميها في مصر: ليلة الدخلة) فما إن انتهى من فض بكارة عروسه حتى سمع منادي محمد: أن أخرجوا إلى لقاء العدو في أُحُد فأسرع مهرولاً قبل أن يغتسل وأخذ سلاحه ودخل المعركة فقُتل فـ (رسول الله ــ ﷺ ــ قال: إن صاحبكم لتغسله الملائكة، فاسألوا أهله ما شأنه؟ فسئلت صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة)[٢].

وحنظلة هذا هو ابن أبي عامر «الراهب» الذي أمرَ محمد أن يسمّى

«الفاسق» وكان زعيم المعارضة الدينية لمحمد في يثرب/ المدينة وهو (= حنظلة) أيضاً صهر عبد الله بن أبي بن سلول قائد المعارضين السياسيين لمحمد فيها ويطلق عليه في كتب السّير «رأس النفاق» لأن عروسه تلك كانت جميلة بنت أبي سلول وبذلك وقع حنظلة بين شقيّ الرحى فأبوه (الفاسق) زعيم المعارضة الدينية وصهره (رأس النفاق) قائد المعارضة السياسية ــ فلو تأخر حنظلة عن الانصياع لنداء الهائعة على الفور وأجاب على مهل وريث لظن به محمد الظنون خاصة وأن الهاتفة كانت للاشتراك فى عركة أُحُد وهى موقعة انتقامية أراد بها صناديد قريش أن يثأروا بها لهزيمتهم النكراء في بدر الكبرى. ويرى بعض الإخباريين أن لأبى عامر الراهب أو الفاسق دوراً بارزاً في تحريض كفار مكة على شن الغارة وهذا بدوره يفسر لنا بلاء حنظلة في القتال حتى استشهد فنال شرفاً رفيعاً إذ أنزلت السماء عدداً من الملائكة يغسّلونه لم يرهم سوى محمد فأخبر صحبه عنهم وصدّقت الخبر العروس الثكلى المكلومة وأفادت بأنه غادر بيته مهرولاً وهو جُنُب. وكافأه محمد بدوره فسمّاه (غسيل الملائكة) وهو لقبٌ لم يحمله غيره من المسلمين. وبذلك حظي بجائزتين إحداهما إلهية والأخرى نبوية. وتكررت هذه الواقعة بذاتها مع أحد الأنصار وهؤلاء عرفوا بإخلاصهم لمحمد وتفانيهم في نصرة دينه ــ ولكنهم لم يفطنوا إلى أنه كان يؤسس دولة قريش فى قلب مدينتهم ــ يثرب[٣] فقد أرسل إلى واحد منهم وكان في ذلك الوقت يجامع امرأته فنزل مِنْ عليها واغتسل سريعاً وذهب إلى محمد الذي لاحظ ذلك عليه (عن أبي سعيد الخدري ــ رضى ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ أرسل إلى رجل من الأنصار فجاءه ورأسه يقطر فقال له يا رسول الله ــ ﷺ ــ لعلنا أعجلناك فقال نعم فقال رسول الله ــ ﷺ ــ إذا أُعجلت أو قحطت فعليك بالوضوء)[٤]. وقيل إن هذا الرجل هو رافع بن خديج

وعندما سأله محمد (لعلنا أعجلناك) رد بالإيجاب فلم يقل له محمد: لم العجلة لماذا لم تتريث حتى تقضي وطرك... الخ إنما علّمه حكماً فقهياً وهو أنه عند عدم الإنزال إما للعجلة أو الإقحاط أي إحتباس المنى فليس عليه غسل ويكفي الوضوء (قلنا قبل ذلك إن هذا الحكم نُسخ وعلى نسخه أجمعت المذاهب الأربعة) أى أن محمداً يرى في تلبية رافع لندائه على الفور وتركه ما كان يمارسه هو صحيح الدين وأنه لو تقاعس لكان من الخاطئين.

هذه الحوادث الثلاث تقدم لنا برهاناً لا يعتريه شك على الطاعة اللامتناهية التي كان يقدمها صحب محمد له، والتى لم يصل إلى درجتها أحد.

٤ ـــ بنو المغيرة من ذؤابة قريش العليا أى من فروعها الارستقراطية ويطلق عليهم (درَّة قريش) رجالهم من الأثرياء الأماثل منهم الوليد بن المغيرة الذي قال في حقه القرآن (وجعلت له مالاً ممدوداً)(٥) ونساؤهم تميزن بالجمال الفائق وقد شهد لهن محمد به في فتح مكة عندما ردّ على سعد بن عبادة زعيم الخزرج الذي استهان بالقرشيات، وإلى بني المغيرة أصهر محمد فتزوج هند بنت سهيل أبي أمية بن المغيرة وشهرتها أم سلمة بنت زاد الركب وقد جمعت بين الحسن الرائع والعقل الراجع...

وخالد بن الوليد من بني المغيرة من بني مخزوم وهو قائد حربى فذ لم يهزم لا قبل الإسلام ولا فى الإسلام وهو الذي أنقذ بعبقريته النادرة ألوف المسلمين من القتل والأسر على أيدى الروم وأحابيشهم في وقعة مؤتة.

وعمّار بن ياسر مولى لهاشم بن المغيرة وكان أسود ولكنه كان من السابقين في الإسلام وكذلك أبوه وأمه سُمية أول شهيدة في الإسلام

وعُذبت الأسرة جميعها عذاباً فظيعاً، لإجابتها دعوة محمد والدخول فى دينه.

وحدث خلاف بين خالد الأرستقراطي القائد العبقري سليل بني المغيرة وبنى مخزوم وعمَّار الأسود المولى، الأقرب إلى العبد وأحد المستضعفين المعذبين واستعزّ عمار بالإسلام فأغلظ القول للسيد الماجد خالد بن الوليد وكانت هذه في نظر خالد كبيرة من الكبائر.

(عن ابن عباس قال: يا رسول الله أتدع هذا العبد يشتمني فوالله لولا أنت ما شتمني وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: يا خالد كُف عن عمار فإنَّ من يسبُّ عماراً يسبه الله. ومن يبغض عماراً يبغضه الله فقام عمار فتبعه خالد وأخذ بثوبه وسأله أن يرضى عنده فرضى عنه)[٦].

وصدق خالد فلولا محمد ما جرؤ عمار على سبه وهو الذي كان يعتبر بموازين ما قبل الإسلام (يسمونها الجاهلية!) سيداً من سادته ولكن ما إن سمع ما قاله محمد لم يسعه إلاّ أن يتطامن ويبتلع كبرياءه ونسبه وحسبه وثروته ومكانته في قريش ويكفكف من غلوائه ويعتذر لمن كان في منزلة أحد عُبدانه ويسترضيه حتى يرضى عنه.

كل ذلك من أثر طاعة أصحاب محمد له.

ونواصل عرض الأمثلة التي تدل على الطاعة التي بلا حدود التي كان يوليها الصحاب لمحمد:

٥ ــ (نعم الرجل أنت يا خُريم لولا خلّتان فيك إسبالك إزارك وإرخاؤك شعرك فانطلق خُريم فجز شعره وقصر إزاره)[٧].

وتكرر الأمر عينه مع فتى يدعى سُمرة: (نعم الفتى سمرة لو أخذ

من لمته وشمر من إزاره، ففعل ذلك سمرة: أخذ من لُمته وشمَّر من مئزره).

وقد رجعنا إلى من اسمه (خُرَيم) من الصحابة في (أسد الغابة) فوجدناهم ثلاثة ليس من بينهم مَنْ في اسمه أو كنيته (سُمرة) ما يدل على أنهما اثنان خاصة وأن أولهما رجل والآخر فتى وأن الأمر بجزّ اللُمة وتقصير الإزار صدر لكليهما ــ ولكن المهم أن كلا منهما سارع إلى تنفيذه دون إبطاء ونذكّر بما سبق أن ما قلناه وهو حرص محمد على قطع كل صلة تربط صحابته بالفترة السابقة على إعلانه دعوته ومن ذلك تغيير الهيئة فإرخاء اللُمة أو الشعر وإسبال الإزار كانا من أمارات التمييز والوجاهة فى تلك الحقبة ــ والأمة التي طفق محمد في تكوينها لا مجال فيها للتبختر والخُيلاء فهى مجتمع حرب تخرج منه كل ما يقرب من شهر ونصف إما غزوة أو سرية أو مجموعة لأداء مهمة خاصة = تصفية أحد الأعداء جسدياً، أو هدم صنم أو تدمير كعبة، أو تحسس أخبار المناوئين..

كما أنها أمة غالبية أفرادها من الفقراء والمعوزين (قبل تدفق غنائم الغزوات وعلى رأسها غزوة حُنين) وهؤلاء يسوؤهم أن يروا مَنْ يُوفّر جُمّته ولُمّته ويطيل إزاره بطراً وكبراً، ومن هنا كان حرص محمد على حَظْر هذه الممارسات على صحابته واستجابة هؤلاء الفورية لذلك.

٦ ــ (حدثنى معاوية بن قرة عن أبيه ــ رضى ــ قال: أتيت رسول الله ــ ﷺ ــ في رهط من مُزينة فبايعناه وإنه لمطلق الإزار فأدخلت يدي فى جيب قميصه فمسست الخاتم) قال راوي الحديث عروة بن عبد الله بن قشير: فما رأيت معاوية ولا ابنه في شتاء ولا صيف إلاّ مطلقي الإزار أو إلاّ مطلقة أزرهما)[٩].

وسوف نرى بعد هنيهة أن عبد الله بن عمر وهو أحد المطاوعين

النموذجيين لمحمد والمنقادين المثاليين له كان يحرص على أن يظل إزاره محلولاً.

٧ ــ وكانت كلمة واحدة أو جملة قصيرة من محمد يفهم منها الصحابي مقصده، أو مراده حتى يبادر إلى التنفيذ الفوري، أي لا يشترط أن يتلقى الواحد منهم أمراً أو نهياً صريحاً.

(عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ــ رضى ــ قال: انطلقت مع رسول الله ــ ﷺ ــ عقبة إذ خر وعليّ ريطة مُضَرّجة، فالتفت إليّ رسول الله ــ ﷺ ــ فقال: ما هذا الثوب؟ فعرفت كراهيته فأتيت رحلي وهم يُسَجّرون (يوقدون) التنور فألقيتها ثم أتيته فقال: ما فعلت الريطة فقلت ألقيتها في التنور قال: أفلا أعطيتها لبعض أهلك)[١٠].

ملاحظة شديدة القصر أو هو سؤال بالغ الإيجاز طرحه محمد على الصحابي متسائلاً عن ملاءة من قطعة واحدة ذات نسيج رقيق مصبوغة بحمرة غير مشبعة كان الصحابي يلبسها، ومباشرة فهم الصحابي مغزى السؤال وأن محمداً لا يرضى له إرتداءها لأنها أيضاً من لباس المترفين وغالبية الصحب آنذاك كانت تضع الأحجار على بطونها من الجوع والمسغبة فجرى مسرعاً وألقاها في التنّور، ومن شدة انصياعه لتنفيذ الرغبة نسى أن الريطة المضرّجة يمكن أن تلبسها الزوجة أو البنت أو الأخت ولا شك أن محمدا عانى كثيراً وهو يعالج تصرفات الصحبة التي كانت من وجهة نظره لا تتواءم مع موجبات الدعوة إلى الدين الجديد والتأسيس للدولة الوليدة.

وتتكرر الواقعة نفسها وإن بصورة مختلفة وفى هذه المرة مع نفر لا مع شخص واحد (روى أبو داود بإسناده عن رافع بن خديج قال: خرجنا مع رسول الله ــ ﷺ ــ فرأى رسول الله ــ ﷺ ــ على رواحلنا أكسية فيها

خيوط عهن أحمر فقال: ألا أرى هذه الحمر قد علتكم. فقمنا سراعاً لقول رسول الله ــ ﷺ ــ حتى نفر بعض إبلنا فأخذنا الأكيسة فنزعناها)[١١].

إشارة سريعة موجزة من محمد إلى أكيسة على الرواحل تتخللها خيوط حمراء، فهم أصحابه أنه لا يرضى عنها وينص الخبر (قمنا سراعاً) وتسابقوا إلى نزعها حتى أدى ذلك إلى نفور الإبل.

هذا الخبر يجسم بحروفه صورة بارزة لمدى الطاعة التي كان يقدمها الصحاب لمحمد.

٨ ــ وفي كثير من الأحيان كانت الطاعة لمحمد تبلغ حداً يدعو للتأمل (النبي ــ ﷺ ــ بعث نفراً لطلب قلادة أضلتها عائشة فحضرت الصلاة فصلّوا بغير وضوء وأتوا النبي ــ ﷺ ــ فذكروا ذلك له فنزلت آية التيمم)[١٢].

فهؤلاء النفر امتثلوا لأمر محمد ــ ﷺ ــ مع أنه أرسلهم في مسألة شديدة الخصوصية وهى ضياع قلادة عائشة أحب زوجاته التسع إليه وأصغرهن سناً ــ وظلوا ينبشون عنها حتى حضرت الصلاة ولما كانوا فى فلاة من الأرض لا ماء فيها فقد صلّوا بغير وضوء مع علمهم بأن ذلك غير جائز ولكن لم يكن أمامهم إلاّ ذلك لأنهم كانوا محصورين بين أمرين أحلاهما أشد مرارة من الآخر: إما أن يعودوا دون القلادة ليتوضأوا ويصلّوا وإما ألا يؤدوا الصلاة فآثروا الصلاة بغير وضوء وهم يوقنون ببطلانها ولمَّا عادوا أدراجهم قصّوا قصتهم على محمد، فتلا عليهم آية التيمم التي تجيز الصلاة بالتيمم عند الافتقار إلى الماء؛ وكما رأينا فيما سبق أن الأمور عندما تتأزم كان محمد يقرأ آيات من القرآن فيها حل ناجع للمشكلة وقد رأينا ذلك في مسألتيْ (اللعان والظهار) على سبيل المثال.

٩ ــ عندما حلت الهزيمة بالمسلمين في عركة أحد بسبب التهافت على الغنيمة إذ أن الدائرة في مبدأ الأمر كانت على صناديد قريش فأخذوا يولون الأدبار تاركين وراءهم كل شيء فأقبل أصحاب محمد يجمعون ما تصل إليه أيديهم فانتهز خالد بن الوليد الفرصة وأعاد الكَرَّة عليهم وحدث الانكسار الأليم.

بعدها انصرف المشركون عائدين إلى مكة، ثم وصل إلى علم محمد أنَّ أبا سفيان ندم وقرر العودة برجاله ليستأصل شأفة محمد ومن معه من المسلمين:

(... فلما انصرف رسول الله ــ ﷺ ــ من الصبح أمر بلالاً أن ينادي أن رسول الله ــ ص ــ يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج معنا إلاّ من شهد القتال بالأمس، قال: فخرج سعد بن معاذ إلى داره يأمر قومه بالمسير قال: والجراح في الناس فاشية، عامة بني عبد الأشهل جريح بل كلها، فجاء سعد بن معاذ فقال: إن رسول الله ــ ﷺ ــ يأمركم أن تطلبوا عدوكم قال: يقول أسيد بن حضير وبه سبع جراحات وهو يريد أن يداويها: سمعاً وطاعة لله ولرسوله! فأخذ سلاحه ولم يعرج على دواء جراحه ولحق رسول الله ــ ﷺ ــ وجاء سعد بن عبادة قومه بني ساعدة فأمرهم بالمسير وتلبسوا ولحقوا وجاء أبو قتادة أهل خُربى وهم يداوون الجراح فقال: هذا منادي رسول الله ــ ﷺ ــ يأمركم بطلب عدوكم فوثبوا إلي سلاحهم وما عرجوا على جراحاتهم: بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً وبخراش بن الصمة عشرة جراحات وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحاً وبقطبة بن عامر بن حديدة تسعة جراحات حتى وافوا النبي ــ ﷺ ــ ببئر أبي عتيبة إلى رأس الثنية ــ الطريق الأولى يومئذ ــ عليهم السلاح قد صفوا لرسول الله ــ ﷺ ــ فلما نظر رسول الله ــ ﷺ ــ إليهم والجراح فيهم فاشية قال: اللهم ارحم بني سلمة)[١٣].

هذا الخروج عرف في كتب السيرة بـ (حمراء الأسد) وهو يصور مدى نفوذ محمد على صحبه وقدر مطاوعتهم له بلا نقاش إلى درجة ترك مداواة الجروح الخطيرة التي قد تؤدي إلى الموت والنفر إلى ملاقاة العدو ونلاحظ أن جُلّ هؤلاء كانوا من الأنصار وخاصة الأوس ولعل أحد دوافعهم هو الاستماتة في الدفاع عن قريتهم/ إذ لو صحت الإشاعة وقفل صناديد قريش فلن يتركوا فيها حجراً على حجر بالإضافة إلى احتياز الأموال وقتل الرجال وسبي النسوان والذراري مع ملاحظة توهمهم أن دولة الإسلام ستؤول إليهم إذ أن (حمراء الأسد) قد حدثت في منتصف شوال من السنة الثالثة من الهجرة. ولم يكن الأنصار قد فطنوا إلى أن الدولة هي دولة قريش فحسب. وفي تقديرنا أنهم لم يدركوا ذلك إلاَّ في فتح مكة ثم تأكد ذلك لهم فيما جرى في (سقيفة بني ساعدة) ومبايعة أبي بكرٍ رأساً للدولة وخليفة.

وكمالة الخبر أن هذا الخروج أتى بثمرته المرجوة ذلك أن (معبد بن أبي معبد قد رأى خروج رسول الله ــ ﷺ ــ والمسلمين إلى حمراء الأسد، ولقي أبا سفيان وكفار قريش بالروحاء (موضع ما بين مكة والمدينة) فأخبر بخروج رسول الله ــ ص ــ فى طلبهم ففتّ ذلك فى أعضاد قريش وقد كانوا أرادوا الرجوع إلى المدينة فكسرهم خروجه ــ ﷺ ــ فتمادوا إلى مكة)[١٤].

١٠ ــ وكانت مكانة محمد لدى أصحابه لا تدانيها مكانة وهى التى كانت تدفعهم إلى طاعته.

(عن أبي مسعود الأنصاري ــ ﷺ ــ قال: كنت أضرب غلاماً لى فجعل يقول: أعوذ بالله، فجعل يضربه، فقال: أعوذ برسول الله فتركه، فسمعت من خلفي صوتاً: إعلم أبا مسعود لَلَّهُ أقدر عليك منك

عليه، فالتفتُّ فإذا هو رسول الله ــ ﷺ ــ فقلت: يا رسول الله: هو حر لوجه الله، فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار)[١٥]. أبو مسعود من كبار الصحابة ومن أعيان الأنصار نراه يضرب أحد عبيده وهذا يستعيذ بالله فيواصل ضربه ولكن عندما يستعيذ بمحمد يكف عن ضربه، وهذا يُظهر عظّم مقام محمد في نفسه ونفوس الصحابة كافة. وعندما يعنّفه محمد على فعلته يعلن أنه حرر عبده وأعتقه.

١١ ــ وكانت لمحمد رهبة لدى صحبه لم يحظ بها أحد من الملوك أو السلاطين ووصفهم مَنْ رأى مجلسهم معه: كأن على رؤوسهم الطير أي في غاية السكون وكانت هذه الرهبة تمتد حتى في مواطن السرور والبهجة والانبساط: (عن معاذ بن جبل أنه شهد إملاك رجل من الأنصار مع رسول الله ــ ﷺ ــ وأنكح الأنصاري وقال: على الألفة والخير والطير المأمون، دففوا على رأس صاحبكم فدففوا على رأسه، وأقبلت السلال فيها الفاكهة والسكر فنثر عليهم فأمسك القوم فلم ينتهوا فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: ما أزين الحلم ألا تنتبهون؟ فقالوا يا رسول الله نهيتنا عن النهبة يوم كذا وكذا فقال: إنما نهيتكم عن نهبة العساكر ولم أنهكم عن نهب الولائم، فقال معاذ بن جبل: رأيت رسول الله ــ ﷺ ــ يحبذه ويحبذنا إلى ذلك النهب)[١٦].

٢

أظهر ما تكون طاعة الصحاب لمحمد يتمثل في مسارعتهم إلى قتل أصولهم وفروعهم وأقرب الناس إليهم وأمسهم رحماً بهم أو الشروع فى ذلك ــ هؤلاء الذين يتفانى الشخص ــ في الظروف العادية في محبتهم ووِدادهم والبر بهم والعطف والحدب عليهم والتفاني في خدمتهم ومد يد العون إليهم بشتى الصور ــ بل والتضحية في سبيلهم بالنفس

والنفيس:

١ ــ (أسند الحاكم عن الواقدي أن عبد الرحمن بن أبي بكرٍ دعا إلى البراز فقام إليه أبوه أبو بكر ــ رضى ــ ليبارزه فذكر أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال لأبي بكرٍ: متعنا بنفسك)[١٧].

كما (خرَّج ابن أبي شيبة عن أيوب قال: قال عبد الرحمن بن أبي بكرٍ ــ رضى ــ لأبي بكرٍ ــ رضى ــ: رأيتك يوم أُحد فصرفت عنك، فقال أبو بكر: لكني لو رأيتك ما صرفت عنك)[١٨].

(وشهد عبد الرحمن بن أبي بكرٍ بدراً وأُحداً مع قومه كافراً ودعا إلى البراز فقام إليه أبو بكر ليبارزه فذكر أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال له: متعنا بنفسك)[١٩].

هذه أخبار ثلاثة وردت في مصادر موثوقة الأول والثالث يقطعان بأن أبا بكر قام ليبارز أكبر أبنائه ــ عبد الرحمن ــ منتويا قتله لولا حنكة محمد وبعد نظره.

٢ ــ (وقال عمر بن الخطاب لـ سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية: لم أقتل أباك العاص وإنما قتلت خالي العاص بن هشام، وما بي أن أكون أعتذر من قتل مشرك فقال سعيد: لو قتلته كنت على الحق، وكان على الباطل فتعجب عمر من قوله وقال: قريش أفضل الناس أحلاماً)[٢٠].

اعترف عمر في هذا الخبر بقتله لخاله، وأكد لسعيد وهو من بني أمية أنه لم يقتل أباه لأن عمرَ ــ وكان قد تولى الخلافة ــ كان يحرص على أنه يترضى الفروع العوالي من قريش: بني هاشم ــ بني أمية ــ بني مخزوم ــ بني المغيرة... إلخ لأنَّ هؤلاء كان في نفوسهم شيء بل أشياء من تولِّيه الخلافة لأنّ ابن الخطاب كان من بني عديّ وهم فرع أقل مكانة منهم

ولعل قولته لسعيد عن قريش تؤكد ذلك. وقتل عمر لخاله العاص بن هشام مذكور في غالبية كتب السير (ذكره ابن هشام عن أبي عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي وفي الاستيعاب لابن عبد البر والإصابة لابن حجر العسقلاني)[٢١].

أما الواقدي فقد ذكر الخبر مطولاً بعض الشيء:

(في غزوة بدر... وأقبل العاص بن سعيد يحث للقتال فالتقى هو وعليّ، فقتله عليّ، فكان عمر بن الخطاب يقول لابنه سعيد بن العاص: أنى لأراك معرضاً، تظن أني قتلت أباك وفي رواية: والله ما قتلت أباك ولا أعتذر من قتل مشرك ولقد قتلت خالي بيدي: العاص بن هشام بن المغيرة فقال سعيد: لو قتلته لكان على الباطل وأنت على الحق قال: قريش أعظم أحلاماً وأعظمها أمانة لا يبغيهم أحد الغوائل إلاّ كبه الله لغيه)[٢٢].

وتلفت النظر الزيادة في تعظيم قريش في هذا الخبر على لسان عمر مخاطباً واحداً من زعماء بني أمية للعلة التي أوردناها.

وعودة إلى السياق: هنا نرى أن عُمَر قتل خاله تقرباً لمحمد وإرضاء له.

٣ ــ وصحابي آخر يثب على عمه ويقتله ولا تطرف عينه ولا يتردد:

(امرؤ القيس بن عابس الكندي الشاعر له صحبة وشهد فتح النجير باليمن ثم حضر الكنديين الذين ارتدوا فلما أخرجوا ليُقتلوا وثب على عمه فقال له: ويحك يا أمرأ القيس أتقتل عمك؟ فقال له: أنت عمي واللهُ عز وجل ربي)[٢٣].

فهل بلغت طاعة مثل طاعة الصحاب لمحمد؟

٤ ــ وإذا كان القريب المناوئ لمحمد بعيداً عن متناول اليد فإن الصحابي كان يستأجر قاتلاً محترفاً ليغتاله:

(قال ابن اسحاق: وقد حدثني بعض آل يامين: أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال ليامين: ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما همّ به من شأني فجعل يامين لرجل جُعلاً على أن يقتل له عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون وكان يامين بن عمير (أبو كعب) بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها)[٢٤].

وأورد الواقدي في مغازيه الخبر مطولاً وذكر ذلك الجُعل الذي رصده يامين لقتل ابن عمه وزوج أخته: (فلمـــا أجلاهم (بني النضير) رسول الله ــ ﷺ ــ قال لابن يامين: ألم تر إلي ابن عمك عمرو بن جحاش وما همّ به من قتلي؟ وهو زوج أخته، كانت الرواع بنت عمر تحت عمرو بن جحاش فقال ابن يامين: أنا أكفيكه يا رسول الله، فجعل لرجل من قيس عشرة دنانير علي أن يقتل عمرو بن جحاش وبقال خمسة أوسق من تمر، فاغتاله فقتله ثم جاء ابن يامين إلى النبي ــ ﷺ ــ فأخبره بقتله فسرّ بذلك)[٢٥].

ونلاحظ عنصراً فعالاً يتعلق بالقاتل ابن عمه حثه على ذلك فهو يهودي أسلم حرصاً على استرداد أمواله وقد أومأ إليه محمد بما لقي من ابن عمه ــ فأسرع باستئجار من قام بالمهمة استرضاء له ولكى تستمر حيازته لأمواله لأنه لو لم يفعل لأدخل الشك في النفوس على صدق إسلامه وفي هذه الحالة يعتبر مرتداً يحل ماله وحرمه.

٥ ــ وهذا صحابي من مشاهير الصحابة قتل عمه في غزوة بدر الكبرى:

(فأما نوفل بن خويلد فقتله ابن أخيه الزبير بن العوام يوم بدر، وكان

يقال لنوفل بن خويلد «أسد قريش وأسد المطيبين» ورُوي أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال يوم بدر اللهم اكفنا ابن العدوية يعني نوفلا وكانت أمه من عدىّ بن خزاعة)[٢٥].

هذا الخبر أجاب عن سؤال طالما طوّف بذهني وأذهان الكثيرين وهو: كيف قاتل الزبير علياً رغم ما كان بينهما من ود ورحم ورغم مكانة الأخير لدى محمد ولكن الذي يقتل عمه «وعم الرجل صنّو أبيه» كما قال محمد كثيراً يسهل عليه أن يقاتل غيره!!!

٦ ــ وفي بعض الأحيان لا تبلغ الطاعة حد قتل القريب أو الشروع فيه ولكنها تصل إلى رتبة أقل إنما يفصح صاحبها عن استعداده للقتل إذا صدر له أمر من محمد والأثر يقول (نية المرء خير من عمله):

عن ابن اسحاق قال: حدثني مولى لزيد بن ثابت وهو محمد بن أبي محمد قال حدثتني ابنة محيصة عن أبيها محيّصة أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال بعد قتل كعب بن الأشرف: من ظفرتم به من يهود فاقتلوه فوثب محيّصة بن مسعود على ابن سنينة رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حُويّصة بن مسعود (أخو مُحيّصة) إذ ذاك لم يسلم وكان أسنّ من محيصة فلما قتل جعل حويصة يضربه ويقول أي عدو الله قتلته؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله فقال محيصة فقلت له: والله لقد أمرني بقتله مَنْ لو أمرني بقتلك لقتلتك)[٢٦].

يصرح الصحابي محيصة بأنه لو تلقى أمراً بقتل أخيه الكبير حويصة وهو الذي كفله صغيراً وكان بمثابة والده لبادر بازهاق روحه على الفور.

(ولما أمر محمد بإخراج المنافقين من المسجد:

قام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زوى بن الحارث فأخرجه

من المسجد إخراجاً عنيفاً وأفف منه وقال: غلب عليك الشيطان وأمره. وذلك تنفيذاً لأمر رسول الله ــ ﷺ ــ بإخراج المنافقين من المسجد)[٢٧].

لعل الأخ الذي سارع إلى إخراج أخيه المنافق من المسجد لم تكن المطاوعة وحدها هى الدافع الباعث له على ذلك بل ليثبت لمحمد أنه من أتباعه المؤمنين بدعوته بغير شك ولا نفاق وقدم براهين على ذلك هى:

أ ــ الإخراج العنيف وكان يكفيه الإخراج اللطيف.

ب ــ التأفيف من أخيه لأنه بنفاقه غدا نجساً وأشبه بالجيفة.

جـ ــ السب واللعن.

وصورة أخرى لو أنها أخف من سابقتيها ولكنها أيضاً وقعت بين أخوين وبطلها صحابي مشهور هو مصعب بن عمير:

(في غزوة بدر الكبرى طلب مصعب بن عمير من الأنصاري الذي كان بيده أمر أخيه أبي عزيز أن يشد يده به أو عليه)[٢٨].

فهنا يطلب مصعب من الآسر أن يشدّ وثاق أخيه أبي عزيز حتى لا ينفلت منه.

ولعل الرقة النسبية في طلب مصعب مردها أنه لا مجال لاتهامه بنفاق أو ممالأة لأعداء محمد لأنه من السابقين في الإسلام وهاجر إلى الحبشة ثم إلى يثرب مبكراً وشهد بدراً ووالى دولة محمد لأنه قرشي ويعلم أن الدولة التي يعلي بنيانها محمد هى دولة قريش قبيلته هو أيضاً.

وثالثاً لأنه نشأ نشأة منعمة في أسرة ثرية فقد كان (فتى مكة شباباً وجمالاً وتيها وكان أبواه يحبانه وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال وكان رسول الله

ــ ﷺ ــ يذكره فيقول: ما رأيت بمكة أحسن لُمة ولا أرقّ حلةً ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير)[٢٩].

فصاحب هذه النشأة الراقية لا ينتظر منه إلاّ الرقة حتى في مواطن البأس ــ إذن قد لا يصل الانقياد لمحمد إلى حد القتل أو الشروع فيه إنما إلى رتبة التهديد بالقتل تارة والعنف أخرى والتشديد بالقول ثالثة وذلك بين الإخوة، حتى ولو كان الأخ المخاطب بذلك هو الأكبر أو فى مقام الأب.

٣

وفي بعض الأحيان كانت المطاوعة لمحمد لا تبلغ المراتب السابقة (فى نطاق الأصول والفروع والأقارب الأدنيين) وإن كانت تفصح عن امتثال وإذعان بلغا مداهما أو حدهما الأقصى: ــ

١ ــ (عن أبي الزناد قال: شهد أبو حذيفة ــ رضى ــ بدراً ودعا أباه عتبة إلى البراز)[٣٠].

الصحابي أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في وقعة بدر الكبرى ينادي أباه عتبة ليبارزه ولا شك أنه كان يعلم أن ذلك لن يحدث، إنما نوى الإعلام عن درجة إخلاصه لمحمد.

وبعد انتصار المسلمين في العركة أمر محمد بأن يُسحب صناديد قريش المقتولين من أرجلهم ويرموا في القليب (البئر) ومنهم عتبة بن ربيعة[٣١]. وابنه الوليد ابن عُتبة[٣٢]. فلما رأى أبو حذيفة ذلك المنظر المؤلم لمشاعره بان على وجهه الأسى الشديد وهذه سقطة خطيرة أن يحزن أحد أصحاب محمد على قتل أحد أعدائه حتى ولو كان المقتول أباه فنظر محمد إلى أبي حذيفة نظرة ذات مغزى وسأله عما أظهره من شعور الحزن حيال عدوه فيسارع أبو حذيفة بالانكار والاعتذار:

(ونظر رسول الله ــ ﷺ ــ إلى عتبة بن ربيعة يجر إلى القليب وكان رجلاً جسيماً في وجهه أثر الجدرى، فتغير وجه ابنه أبي حذيفة فقال له النبي ــ ﷺ ــ يا أبا حذيفة كأنك ساءك ما أصاب أباك، قال: لا والله يا رسول الله ولكني رأيت لأبي عقلاً وشرفاً كنت أرجو أن يهديه الله إلى الإسلام فلما أخطأه ورأيت ما أصابه غاظني)(٣٣).

يسارع أبو حذيفة وينكر أسفه على أبيه الذي لقى حتفه مقتولاً ثم يُجرُّ من رجليه ليلقى في البئر كما تلقي جيف الكلاب ولا يكتفي أبو حذيفة بالإنكار بل يقسم بالله حتى يصدّقه محمد ولا شك أن هذا مثل فريد في التسليم والإذعان إذ من النادر أن تجد مَنْ ينكر مشاعره الطبيعية حرصاً على مرضاة متبوعه.

٢ ــ وهذا صحابي آخر مرض أبوه فنذر إن عافاه الله من مرضه أن يحارب محمداً والدين الذي أتى به دون هوادة حتى يطهّر مدينة القداسة مكة منهما. فما أن سمع الصحابي الابن ذلك النذر من فم والده حتى دعا ربه ألا يقوم ولا يُعَافَى من مرضه واستجابت السماء لدعائه فأهلكت أباه في مكانه ــ أما الصحابي فهو خالد وأما الأب فهو سعيد بن العاص بن أمية: ــ (يروي خالد بن سعيد بن العاص بن أمية: أن أباه سعيد بن العاص مرض فقال: إن رفعني الله من مرضي لا يُعبد إله ابن أبي كبشة (محمد) بمكة أبداً فقال ابنه خالد: اللهم لا ترفعه، فهلك مكانه)(٣٤).

الصحابي خالد هو راوي الخبر ــ الذي لم يعلمه سواه ــ ليصل إلى أسماع محمد كعربون للانقياد والمراضاة.

٣ ــ أما هذا الصحابي الذي سوف نورد حكايته فالذي شفا من نفسه، ليس استجابة السماء لدعائه، ولكن دعاء محمد نفسه على أخيه:

(وقال سعد بن أبي وقاص:... فقد شفاني من عتبة أخي دعاء رسول الله ـ ﷺ ـ ولقد حرصت على قتله حرصاً ما حرصته على شيء قط إن كنت ما علمته إلاَّ عاقاً بالوالد سيئ الخلق، ولقد تخرقت صفوف المشركين مرتين أطلب أخي لأقتله ولكنه راغ مني روغان الثعلب فلما كان الثالثة قال لى رسول الله ـ ﷺ ـ: يا عبد الله ما تريد؟ تريد أن تقتل نفسك فكففت..)[٣٥].

سعد بن أبي وقاص بن مالك قرشي ومن العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين للإسلام ومن مشاهير الصحابة ومن رجال الحرب ـ فقد كان حريصاً على قتل أخيه عتبة وأظهر قصده ذلك بصورة فيها قدر وفير من العلانية ولثلاث مرات حتى تصل إلى علم محمد فيرضى عنه وهو ما حدث في المرة الأخيرة ولكن ما هى خلفية ذلك المشهد المأساوي:

فى وقعة أحد عندما استدار أهل مكة على المسلمين المنشغلين بالكلية بجمع الغنائم، (رمى عتبة بن أبي وقاص محمداً بأربعة أحجار وكسر رباعيته، أشظى باطنها، اليمنى/ السفلى، وشجه في وجنتيه حتى غاب حلق المِغْفَر في وجنتيه وأصيبت ركبتاه فجحشتا)[٣٦].

أى أن عتبة لم يكن عدواً عادياً لمحمد بل من الذين عزموا على قتله وأصبح أخوه سعد في مأزق وحتى يعلن براءته من ذلك الأخ الفاتك المعلن لعداوته المصرّح بسبق إصراره وترصده لقتل محمد، لم يجد ابن مالك مفراً من إعلام الداني والقاصي ولكل مَنْ في المعركة أنه يتصدى لأخيه لقتله ووصلت الرسالة بعد المحاولة الثالثة إلى محمد وهنا استراحت نفس سعد بعد أن قدم دليل الثبوت على براءته مما صنعه أخوه عتبة وما كان ينتويه ويعقد العزم عليه وازداد رضىً عندما نهاه محمد عن قتل أخيه وكان لسان حاله يصيح:

انظروا لقد جهدت جهدي لقتل أخي ولكن محمداً منعني: ــ وبقية الخبر (إن محمداً دعا على عتبة وهو ما شفى صدر أخيه سعد (فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: اللهم لا يحولنَّ الحول على أحد منهم، قال والله ما حال الحول على أحد ممن رماه أو جرحه... مات عتبة)[٣٧].

ولكن السهيلي يذكر لنا أن اللعنة ظلت باقية في نسل عتبة من أثر دعاء محمد عليه. (وعتبة بن أبي وقاص أخو سعد هو الذي كسر رباعيته ــ ﷺ ــ ثم لم يولد من نسله ولد فبلغ الحلم إلاّ وهو أبخر أو اهتم يعرف ذلك في عقبه)[٣٨].

خلف عتبة هؤلاء كانوا مسلمين صحيحي الإسلام ولا ذنب لهم فى أفعال ارتكبها جدهم الأعلى فما ذنبهم حتى تصبح أفواههم بخراء هتماء ــ وكيف يتوافق ذلك مع القاعدة الأصولية في العدل الإلهي (ولا تزر وازرة وزر أخرى)؟؟؟

٤ ــ عندما وصل محمد إلى يثرب كان أهلها ينظمون الخرز ليتوجوا عبد الله بن أُبيّ بن سلول ملكاً عليهم ولكن وصوله أفسد خطته، هذا ما يقوله الإخباريون تعليلاً لمناوئة عبد الله لمحمد وقيادته المعارضة السياسية له في يثرب، ولكن أخباره التي دونتها كتب السّير والتواريخ تفصح عن شخصية متميزة لها آراء على قدر من النضج منها رأيه الذي أبداه لمحمد فى عدم الخروج من أثرب/ المدينة لملاقاة كوافر قريش عند جبل أُحُد فوقعت الهزيمة النكراء.

أياً كان الأمر فقد أطلق محمد على ابن أبيّ بن سلول (رأس المنافقين) إذ من البديهي أن تثير سيطرة القرشيين على المدينة حفيظة عدد من أهلها تولى هو قيادته ومن هنا يجيئ اللقب ــ ولم يكن ابن أبي بن

سلول يخفي مشاعره نحو محمد والمسلمين، ولكن ابنه عبد الله أسلم وحسن إسلامه وصار في عداد المؤمنين أي الأتباع المخلصين لمحمد ولكن ظلت عقدة نفاق أو رئاسة والده لحزب المعارضين أو المنافقين مترسبة فى أعماقه فكان ينتهز الفرص لإثبات إيمانه وتفانيه.

(عن أبي هريرة ــ رضى ــ قال: مرّ رسول الله ــ ﷺ ــ بعبد الله بن أبي وهو في ظل أُطُم (حصن) فقال: غيّر علينا ابن أبي كبشة فقال ابنه عبد الله بن عبد الله ــ رضى ــ يا رسول الله والذي أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه؟ فقال: لا ولكن بِّرْ أباك وأحسن صحبته)[٣٩].

(وعن الطبراني عن عبد الله بن عبد الله أنه استأذن النبي ــ ﷺ أن يقتل أباه، قال: لا تقتل أباك)[٤٠].

وتأكد هذا الخبر عن طريق رواية أخرى إذ أورده صاحب (الإصابة) عن (عروة بن الزبير: أخرج ابن شاهين بإسناد حسن عن عروة قال: استأذن حنظلة بن أبي عامر وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ــ رضى ــ رسول الله ــ ﷺ ــ في قتل أبويهما فنهاهما عن ذلك ــ كذا فى الإصابة ــ ج/ ١ ﷺ ٣٦١)[٤١].

وهذا الأثر جمع بين حنظلة ابن قائد المعارضة المسلحة وعبد الله ابن سلول رأس النفاق أو المعارضة السياسية.

وفي غزوة بني المصطلق ينفجر الخلاف المختفي تحت السطح بين الأنصار والمهاجرين ويوشك أن يستحيل إلى عراك مسلح وهنا يجدها ابن أبي سلول فرصة ذهبية للتنفيس عن مكنون نفسه ويصرح: (أقد فعلوها فقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يقتلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ

الأعز منها الأذل ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم)[٤٢].

وهذه القالة تفصح عما كان يتداوله المعارضون السياسيون من اليثاربة في مجالسهم، ونظراً لأن لمحمد عيوناً لا تغفل فقد نقلوا هذه العبارات إليه وغضب عمر بن الخطاب وخشي أن ينفذ ابن أبي سلول تهديده ويتبعه آخرون ربما لم يكونوا قلة فقال لمحمد (مُرْ عباد بن بشر فليقتله)[٤٣] ولم يكن اختيار عمر لعباد بن بشر اعتباطاً فهو من بني الأشهل من الخزرج.

رهط ابن سلول نفسه، ولكن محمدا أدرك بعبقريته الفذة أنه حتى لو قتل عباد رأس النفاق فإن ذلك لا يطفئ الفتنة بل يزيدها اشتعالاً فردّ بحصافة مدهشة على ابن الخطاب (فكيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه قال: لا ولكن أذّن بالرحيل)[٤٤].

وفعلاً انشغل الناس في الرحيل وانطفأت الفتنة ولو إلى حين.

وسمع الابن البار عبد الله بما تردد عن عزم القيادة العليا أو حتى تفكيرها في قتل أبيه فخشى على نفسه من قاتل أبيه الذي لا بد أن يكون مسلماً فيقتله:

(أتى عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رسول الله ــ ﷺ ــ فقال: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أبي يعيش في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً

بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ــ ﷺ ــ بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا).

إلى هذا الحد البالغ الدهشة بلغ حرص الصحاب على استرضاء محمد والتزلف إليه والتقرب منه ومطاوعته حتى في أشد الأمور حروجة وأصعبها على الوجدان وأمرّها على النفس لأنها والطبيعة البشرية على غير وفاق.

٤

وتسابقت النسوان الصحابيات مع الرجال الصحابة على طاعة محمد والامتثال لأوامره واتضح ذلك أبلغ ما يكون في مسألة كانت ترقى في الفترة السابقة على الإسلام (يسمونها الجاهلية) لدرج المحرمات وهى زواج عربية حرة من مولى أو قرشية من غير قرشي فما بالكم إذا كان مولى: ــ

١ ــ فــاطمة بنت قيس القرشية الفهرية أخت الضحــاك بن قيس، طلقها زوجها أبو حفص بن المغيرة فأمرها محمد أن تعتدّ (تقضي مدة العدة) في بيت ابن أم مكتوم وقال لها (إذا حللت فآذنيني فخطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم بن حذيفة فاستشارت محمداً فيهما فقال لها (أما معاوية فصُعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه (أى لا يكف عن ضرب نسائه) وفي رواية: وأما أبو جهم فضرّاب للنساء وأمرها أن تتزوج أسامة بن زيد فداخلتها الكراهية لأنه مولى ابن مولى وهي قرشية فقالت بيدها: أسامة أسامة وهى إشارة احتجاجية لا تخفى (فقال لها رسول الله ــ ﷺ ــ طاعة الله وطاعة رسول خير لك، فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به)(٤٦).

وكان أسامة بن زيد غلاماً أسود أفطس (حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه أن النبي ــ ﷺ ــ أخرَ الإفاضة من أجل أسامة بن زيد ينتظره فجاء غلام أسود أفطس فقال أهل اليمن: إنما حبسنا من أجل هذا)[٤٧].

هذه القرشية الماجدة تتزوج من مولى ابن مولى أسود أفطس بأمر من محمد تتقبله بالإنقياد والإذعان وبلا تردد، حقيقة إن هناك أمراً ذا بال ساعد في قبول فاطمة نكاح أسامة وهو أنه آنذاك كان في السادسة عشرة من عمره وهي أسنٌّ منه لأنها كانت أكبر من أخيها الضحاك بن قيس (أحد أمراء الكوفة فيما بعد) بعشر سنين وسبق لها الزواج فأرادت أن تُمتع نفسها بفتوة أسامة.

ولكنَّ الذي لا مشاحة فيه أن طاعة محمد هى الدافع الأكبر لأن تكسر فاطمة بنت قيس القاعدة المستقرة وهى عدم الكفاءة = كفاءة العربي الحر لنكاح القرشية ولا مجال للحديث عن المولى لأن هذا لا يعدّ كفءاً للزواج بعربية عادية وليست قرشية. وحدث بعد ما يقرب من قرن من الزمان أن خطب الحجاج بن يوسف الثقفي قرشية فغضب عليه سادته بنو أمية واعتبروا أن ذلك وقاحة منه وتخط للحدود كافة وأجبروه على فسخ الخطبة مع أنه من ثقيف وهى قبيلةً معروفة وكان والياً على المصرين.

وما زالت قاعدة عدم كفاءة العربي للزواج من قرشية مبثوثة فى كتب الفقه ومستقرة لدى جميع المذاهب وتدرّس في المعاهد الدينية.

بعد هذه الاستطرادة اللازمة نعود إلى السياق:

هذه القرشية الفهرية انصاعت لأمر محمد وأطاعته وتزوجت من المولى ابن المولى الأسود الأفطس أسامة بل واغتبطت به.

٢ ــ عربية حرة وأمها قرشية هاشمية كانت من أجمل نساء عصرها: زينب بنت جحش بن رئاب... بن خزيمة وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم... أمر محمد أن تتزوج زيد بن حارثة عبده سابقاً ومولاه وأن تتساوى بذلك في المكانة مع بركة بنت ثعلب مولاة محمد وخادمته وكنيتها أم أيمن أو أم الظباء، زوجة زيد.

وكان امتحاناً صعباً لتلك العربية الحرة فائقة الحسن، نصف الهاشمية فرفضت في بادئ الأمر واستنكفت أن تكون زوجاً لمولى وتتساوى مع أم الظباء (أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال: خطب النبي ــ ﷺ ــ زينب وهو يريدها لزيد فظننت أنه يريدها لنفسه فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت)[٤٨].

كما (أخرج ابن جرير عن طريق عكرمة عن ابن عباس: خطب رسول الله ــ ﷺ ــ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت أنا خير منه حسباً) ولم يكن الرفض مقتصراً عليها بل صدر من أخيها ووليّها عبد الله بن جحش وعلل رفضه بقوله: «إن زيداً كان عبداً بالأمس».

ولكنها رضخت لأمر محمد وتزوجت المولى والعبد السابق زيد بن حارثة ولم يعد بينها وبين أم الظباء أي فرق في المرتبة والمنزلة من منظور الزوجية.

إذ كالعادة وكما رأينا فيما تقدم من أمثلة أن الأمور عندما تتفاقم تتدخل السماء لتحسم الأمر ويقرأ محمد آيات من القرآن تنهي المشكلة: (وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيّرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً)[٤٩].

فطاوعت العربية الحرة نصف الهاشمية الوضيئة وقبلت بالزواج من

زيد بن حارثة ــ وكفكف أخوها ووليّها عبد الله من كبريائه ووافق على أن يُصهر إليه عبد سابق ومولى وأن تغدو أخته وأم أيمن في درجة واحدة.

وكما كافأت السماء حنظلة على سرعة تلبيته لنداء محمد فأرسلت فرقة من الملائكة غسّلته كذلك كافأت زينب على امتثالها للأوامر الإلهية والنبوية فبعد أن قضى زيد منها وطره أمرت السماء محمداً أن يتزوجها وبذلك حطّمت العرف الذي كان مستقراً منذ مئات السنين في جزيرة العرب وهو عدم زواج الأب من زوجة ابنه المتبنى بل وألغت عادة التبني إلى الأبد ولقد صدقت السماء وأحسنت فإنَّ هذه الوضيئة الفاتنة لم تكن تليق إلاّ بـ (سيد الناس وديّان العرب) حسب تعبير الأعشى الشاعر.

٣ ــ عن عائشة أن سالماً مولى أبي حذيفة كان مع أبي حذيفة وأهله في بيته فأتت سهلة بنت سهيل زوج أبي حذيفة النبي ــ ﷺ ــ فقالت: إن سالماً بلغ ما يبلغ الرجال وعقل ما عقلوا وأنه يدخل علينا وإنى أظن أن فى نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً فقال لها النبي ــ ﷺ ــ أرضعيه تحرمي عليه ويذهب ما فى نفس أبي حذيفة)[٥٠].

واستولت الدهشة على سهلة وعقدت لسانها فسألت محمداً (وكيف أرضعه وهو رجل كبير؟ فتبسم رسول الله ــ ﷺ ــ وقال: قد علمت أنه رجل كبير)[٥١] إزاء ذلك لم يسع سهلة إلاّ الرضوخ رغم أنها عندما لجأت لمحمد ليجد لها حلاً لم تكن تتوقع أن يجيء بهذه الصورة غير المألوفة لديها أو لدى نساء قريش (فقد كانت قرشية) أو الأنصار أو الجزيرة كلها أن يرضع ثدي الحرة شاب بالغ وعلى حد تعبيرها (رجل كبير) وأرضعت سالماً خمس رضعات مشبعات ــ وكان لا بد لها أن تعود لتخبر محمداً أنها نفّذت أمره رغم أنه حيّرها (فرجعت فقالت إنى قد أرضعته فذهب الذي في نفس أبي حذيفة)[٥٢].

ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الطاعة التي قدمتها سهلة من الطاعات النادرة الوقوع.

وهذه القصة وهى إرضاع الكبير أعطت عائشة رخصة مقابلة من ترى دخوله عليها ورؤيتها بأن تأمر بنات أخواتها أن يرضعنه خمس رضعات مشبعات ثم يدخل عليها (ثبت عند أبي داود هذه القصة فكانت عائشة تأمر بنات إخوتها أن يرضعن مَنْ أحبت أن يدخل عليها ويراها وإن كان كبيراً خمس رضعات ثم يدخل عليها وإسناده صحيح وقال أيضاً: ذكر الطبري في تهذيب الآثار في مسند عليّ هذه المسألة وساق بإسناده الصحيح عن حفصة مثل قول عائشة وهو ما يخص به عموم قول أم سلمة: أبي سائر أزواج النبي ــ ﷺ ــ أن يُدْخِلن عليهن بتلك الرضاعة أحداً)[٥٣].

ويؤكد ابن تيمية مذهب عائشة في جواز إرضاع الكبير لتثبت به الحُرمة وفي هذا يقول (ورضاع الكبير تنتشر به الحُرمة بحيث لا يحتشمون منه للحاجة لقصة سالم مولى أبي حذيفة وهو مذهب عائشة وعطاء والليث وداود ممن يرى أن ينشر الحرمة مطلقاً)[٥٤].

وفي موضع آخر يؤكد أن عائشة أخذت بذلك دون سائر أزواج محمد ــ وهكذا أثمرت طاعة سهيلة لمحمد تلك الطاعة التي وصفناها بأنها نادرة الحدوث رخصة جواز إرضاع الشاب البالغ والرجل الكبير خمس رضعات وهي الرخصة التي أخذت بها عائشة وطبقتها عملاً على بنات إخوتها وتابعها على رأيها عطاء والليث (فقيه مصر) وداود.

٤ ــ (جليبيب روى حديثه أبو برزة الأسلمي في إنكاح رسول الله ــ ﷺ ــ إلى رجلٍ من الأنصار وكانت فيه دمامة وقصر فكأن الأنصاري وامرأته كرها ذلك فسمعت ابنتهما بما أراد رسول الله ــ ﷺ ــ فتلت:

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة قضى الله ورسوله أمراً أن يكون الخيرة من أمرهم) وقالت: رضيت وسلمت بها يرضى به رسول الله ــ ﷺ... الخ)[٥٥].

هذه الصحابية قبلت الزواج من «جليبيب» رغم قصره ودمامته واسمه يدل على ذلك مطاوعة لأمر محمد ونفاذاً لمشيئته.

هذا فيض من غيض من الأخبار التي تمتلئ بها كتب السِّير التي تقطع بمنافسة النسوان للرجال (من الصحاب) في مطاوعة محمد والرضوخ إلى أوامره وتنفيذ ما يشير به دون أيّ تراخٍ وقد اقتصرنا على تقديم هذه الأمثلة الأربعة لأن منها اثنين يمثلان كسر عرف راسخ رسوخ الجبال وهو الكفاءة في الزواج والثالث يتعلق بمسألة بالغة الدقة والحساسية خاصة وأنها كانت غير مألوفة والرابع الأخير يمس شعور المرأة بل شعور الجنسين معاً وهو الإقبال على معاشرة الجميل الوضيئ الحسن الصورة والنفور من الدميم القبيح القمئ... الخ.

ولأنها الأمثلة التي لا يماري من يقرؤها في أن النسوة لم يكنَّ أقل من الرجال في الامتثال والرضوخ والإذعان لطاعة محمد.

وقبل أن نقدم تحليلاً للأسباب والدوافع لطاعة الصحابة لمحمد نقدم نموذجاً فريداً لتلك الطاعة أثمر تقليداً مدهشاً لمحمد لا نجد له تقييماً أكثر مما قاله في حقه معاصروه، سيطَّلع القارئ عليه في حينه؛ هذا المثال المُعجِب هو: أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

٥

عبد الله بن عمر بن الخطّاب

يعطينا هذا الصحابي مثلاً فريداً في الطاعة المطلقة لمحمد (عن حفصة: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي الليل)[٥٦]. وتكملة الحديث (قال سالم: فكان عبد الله لا ينام من الليل إلاّ قليلاً) كذلك نجد لديه نموذجاً مفذاً في تقليده له تقليداً كاملاً في كل ما كان يأتيه أو يمتنع عنه حتى فى الأمور المعيشية.

والصور التي سوف نوردها فيما يلى يعز نظيرها ولولا أنها جاءت في المصادر الموثوقة ذات الرتبة العالية لقلنا وقال القارئ إنها من إبداع واضعيها.

ولقد لفتت هذه الطاعة المثالية التي أثمرت هذا التقليد غير المشروط ــ أنظار مخالطيه ومعاصريه ومن جاء بعدهم وعلقوا عليها بما يؤكد أنها أثارت دهشتهم واستوجبت عجبهم. وبادئ بدء: فابن عمر لا يترك مجالاً ليستدلّ غيره بأن ما يفعله كان طاعة لمحمد بل هو يعلن ذلك على رؤوس الاشهاد: (عن إسماعيل حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر أنه كان يخرج إلى الصفا من الباب الأعظم... فيكبِّر.. ثم يدعو فيقول: اللهم اعصمني بدينك وطواعيتك وطواعية رسولك)[٥٧].

فهنا يصرح عبد الله بن عمر بطواعيته لمحمد بل ويقرنها بطواعية الله دون فصل بينهما وهذا ملحظ بالغ الأهمية لدى جميع الصحب فقد تلا عليهم محمد آيات من القرآن تؤكد أن (من يطع الرسول فقد أطاع الله)[٥٨].

يقول ابن الأثير الجزري في ترجمة ابن عمر (وكان كثير الاتباع لآثار رسول الله ــ ﷺ ــ حتى إنه ينزل منازله ويصلي في كل مكان صلى رسول الله فيه وحتى أن النبي نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس)(٥٩).

بعد ذلك ننتقل إلى الصور الفريدة في تقليد ابن عمر لمحمد في كل شيء ونبدأ بـ:

١ ــ الأمور التعبدية:

١ ــ (قال نافع: كان ابن عمر يرمي جمرة العقبة على دابته يوم النحر وكان لا يأتي سائرها بعد ذلك إلاّ ماشياً ذاهباً وراجعاً وزعم أن النبي كان لا يأتيها إلاّ ماشياً ذاهباً وراجعاً)(٦٠).

٢ ــ (عن نافع قال: سمع ابن عمر مزماراً، قال فوضع أصبعيه على أذنيه ونأى عن الطريق وقال لى: يا نافع هل تسمع شيئاً؟ فقلت: لا، فرفع أصبعيه عن أذنيه وقال: كنت مع رسول الله ــ ﷺ ــ فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا)(٦١).

٣ ــ (قال نافع: كان ابن عمر يصلي بِ الأبطح الظهر والعصر والمغرب والعشاء ويهجع هجعة، يذكر ذلك عن رسول الله ــ ﷺ ــ)(٦٢).

٤ ــ (عن جابر قال: جاء إلى عبد الله بن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن لقد رأيتك تصنع أربعاً لم يصنعها أحد من أصحابك فقال فما هن؟ قال: رأيتك لا تمس من الأركان إلاّ اليماني ورأيتك تلبس النعال السبتية وتصبغ بالصُفرة، ورأيتك إذا كنت بمكة أهلّ الناس إذا رأوا الهلال ولم تهلل إلاّ يوم التروية، قال ابن عمر: أما الأركان فلم أرَ رسول الله ــ ﷺ ــ يمس إلاّ اليماني، وأما النعال السبتية فإنى رأيت رسول الله ــ ﷺ ــ

يلبسها وأما الصفرة فأني رأيت رسول الله ــ ﷺ ــ يصبغ بها، وأما الإهلال فإني لم أر رسول الله ــ ﷺ ــ يهلّ حتى تنبعث به راحلته، قال الربيع: النعال السبتية التي لا شعر لها)[٦٣].

٥ ــ (قال ابن المنذر ثبت أن رسول الله ــ ﷺ ــ لما حلق رأسه قلَّم أظفاره وكان ابن عمر يأخذ من شاربه وأظفاره)[٦٤].

ولقد شهدت عائشة أم المؤمنين لِ ابن عمر بمطلقيه طواعيته لمحمد وأتباعه له في أثاره ومنازله (ذكر ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عن عائشة ــ رضى ــ قالت: ما كان أحد يتبع آثار النبي ــ ﷺ ــ فى منازله كما كان يتبعه ابن عمر)[٦٥].

هذه أمثلة قليلة لتقليد أبي عبد الرحمن لمحمد في نطاق العباديات ــ ننتقل بعدها إلى الصور التي تؤكد تقليده إياه فى:

٢ ــ الأمور الأخرى:

إذا كان ابن عمر يقلد محمداً في تلك الأمور تقليداً صارماً لا هوادة فيه فقد يقول قائل لا تثريب عليه في ذلك رغم أننا لسنا في مجال التثريب أو الإثابة ولكننا نُعنى بالتوصيف والتحليل لتبيين الآثار الرائعة للخطة التى رسمها محمد نحو أصحابه ونفذها بحذق بالغ وكيف أنها أثمرت هذه المطاوعة اللامحدودة.

إذا كان التقليد في الأمور التعبدية مفهوماً وله ما يبرره فما هو تفسير التقليد في مثل: تركه الإزار محلولاً ــ قضاء القيلولة تحت شجرة معينة ــ التظاهر بقضاء الحاجة في مكان معين، رأى فيه محمداً وهو يقضي حاجته ــ لا تفسير لإتيان هذه الأعمال من قبل أبي عبد الرحمن إلا انقياده المطلق لمحمد:

١ ــ (ابن عمر كان يأتي بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ويخبر أن النبي ــ ﷺ ــ كان يفعل ذلك)(٦٦).

٢ ــ (عن ابن سيرين قال: كنت مع ابن عمر بعرفات فلما أفاض أفضت معه حتى انتهى إلى المضيق دون المأزمتين فأناخ وأنخنا ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي، فقال غلامه الذي يمسك راحلته إنه ليس يريد الصلاة ولكنه ذكر أن النبي ــ ﷺ ــ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته فهو يحب أن يقضي حاجته)(٦٧).

٣ ــ (عن زيد ابن أسلم قال: رأيت ابن عمر ــ رضى ــ يصلي محلولاً إزاره فسألته عن ذلك فقال رأيت رسول الله ــ ﷺ ــ يفعله)(٦٨).

* * *

وحيّرت هذه الأفعال معاصريه ولم يجدوا لها تعليلاً أو تفسيراً وخشى مخالطوه عليه من هذا التقليد المطلق خاصة خارج نطاق التعبد مثل التظاهر بقضاء الحاجة وتركه الإزار محلولاً... الخ أن يؤثر على عقله:

١ ــ (عن مالك أن رجاءً حدَّثه: أنَّ عبد الله بن عمر كان يتبع أمر رسول الله ــ ﷺ ــ وآثاره ويهتم به حتى كان قد خِيف على عقله من اهتمامه بذلك)(٦٩).

٢ ــ (عن عاصم الأحول عمن حدثه قال: كان ابن عمر ــ رضى ــ إذا رآه أحد ظن أن به شيئاً من تتبعه آثار النبي ــ ﷺ ــ)(٧٠).

٣ ــ (عن نافع قال: لو نظرت إلى ابن عمر ــ رضى ــ إذا تبع آثار النبي ــ ﷺ ــ لقلت هذا مجنون)(٧١).

* * *

وهذا الانقياد الشامل الكامل والتقليد الذي لا تحده حدود والذي تمثل في عبد الله بن عمر والذي صورته لنا بدقة الأحاديث السوابق وكلها كالعادة موثقة ومنتقاة من مصادر لا ترقى إليها ذرة من الريبة، هذا التقليد يقدم لنا برهاناً ساطعاً على أن المخطط الذي رسمه محمد بحنكة فائقة قبل صحابته قد طرح ثماراً ناضجة وشهية إذ لم يحظ شخص قبل محمد ولا بعده بمثل هذه المطاوعة وهذا الاتباع.

ولكن لا نغفل عوامل أخرى ربما تكون قد ساعدت على هذا الانقياد منها أن أبا عبد الرحمن كان من السابقين ــ بين أبناء الصحابة ــ في اعتناق الإسلام بل إن هناك مَنْ يقول إنه أسبق من أبيه ولو أننا نخطّئ هذا الرأي، ومنها أنه أخو حفصة إحدى زوجات محمد التسع ولو أنها لم يكن لها من الحظوة ما كان لعائشة، ومنها أن ابن عمر عرف فضل الإسلام عليه فبعد أن كان في مقتبل عمره لا يجد مكاناً يبيت فيه إلا المسجد إذا به ــ خاصة بعد وطء العرب للبلاد المفتوحة ــ غدا ذا مال وفير: يمتلك الجواري الحسان اللاتي كان يحلّي أعناقهن بالقلائد والعقود الذهبية ويلبسهن ملابس الحرائر حتى طلب أبوه عمر من أخته حفصة ــ بصفتها إحدى أمهات المؤمنين ــ أن تلفت نظره إلى ذلك، بخلاف الأرضين والأموال فهو يقر إذن يحسن صنيع الديانة التي بشر بها محمد، عليه وعلى أنداده، وأنها نقلته من طبقة إلى طبقة أخرى لا علاقة لها بالأولى ومن ثم فهو يردّ لها الجميل باتِّباع مَنْ جاء بها اتِّباعاً كاملاً كما أنه ربما كان يطمح إلى الخلافة ــ خاصة بعد أن عيّنه أبوه عمر (بعد أن طعن) في المجلس القرشي الذي أوكل إليه مهمة اختيار خليفة له (= لعمر) ولقد راود هذا الهاجس ــ هاجس اعتلاء عبد الله سدة الخلافة ــ أخته حفصة إذ نراها عند التحكيم بين عليّ ومعاوية إثر وقعة صفين تحث أبا عبد

الرحمن على حضوره إذ من الجائز أن يخلع الحكمان.. عليٌّ ومعاوية ويختار هو خليفة كما أن اتباع محمد وتقليده والالتزام بسننه وآثاره مؤهلات عليا في بد من تحدثه نفسه بالخلافة يفلج بها من يحوزها على من لا يتصف بها.

وأياً كان الأمر فإن القدر المتيقن أن ابن عمر كان مقلداً ماهراً لمحمد وأنه قدم لنا مثلاً رائعاً في طاعة الصحابة له ودليلاً على أن خطة محمد التي مارسها إزاءهم نجحت نجاحاً باهراً.

٦

هذه الطاعة التي قدمها الصحاب لمحمد والتى لم يرَ التاريخ لها مثيلاً تفاعلت عدة عوامل على تخليقها ومن الصعب إحصاؤها جميعها ونذكر منها ما استطعنا الاهتداء إليه:

١ ــ إن العربي خاصة في تلك الأيام الغوابر كان يقدّس حريته الشخصية ويأنف من التحكم فيه والسيطرة عليه ولكنه في المقابل كان لا بد له من العيش في قبيلة ينتسب إليها وتحميه وتطالب بديته إذا قُتِلَ وإذا نبذته وتبرأت منه عُدّ خليعاً طريداً كوحش الفلاة ــ والقبيلة من الحتم اللازم أن يكون لها رئيس يسوس أمورها في السلم والحرب (قد يعاونه في المسائل الحربية أي في الغزو من يطلق عليه ــ «العقيدة» أ. هـ) ومن ثم فإن كلمته نافذة وأمره مطاع مع وجود «مجلس القبيلة».

إذن هو يجمع بين النقيضين: عشق الحرية على المستوى الشخصي والالتزام بالعرف الذي يقضي بطاعة شيخ القبيلة على المستوى الجمعي والذي يهمنا في هذا البحث هو تعوده على مطاوعة زعيم أو رئيس أو قائد، إذن ملمح الانقياد لرتبة عالية أمر مألوف لدى العربي.

٢ ــ إن محمداً كان من قريش ــ أكبر قبائل جزيرة العرب منزلةً ــ يحترمها الجميع ويسمُّون أفرادها (أهل الحرم) إذ فى قريتهم تنتصب الكعبة التي تقدسها كل القبائل بل حتى أهل الديانتين الساميّتين اليهودية والمسيحية وكذلك الصائبة باعتبار أن الكعبة هى من إرث إبراهيم أبي الأنبياء ورغم أنه كان في الجزيرة العربية ثلاث وعشرون كعبة فإن كعبة مكة كانت هي الأشرف والأكثر تميُّزاً وموضع تقديس الكل.

وكانوا يعتبرون قريشاً صريح ولد إسماعيل وكان الإصهار إليهم شرفاً رفيعاً ــ وأكدت واقعة انكسار أبرهة الحبشي وهى المعروفة بحادثة الفيل مكانة قريش ووثَّقتها فقد طفق العرب يقولون لولا أنهم أهل الحرم ما هُزم الأشرم دون إراقة نقطة دم واحدة.

وفى يوم السقيفة سقيفة بني ساعدة صرّح ابن أبي قحافة (أبو بكر) للأنصار أن العرب لا تدين (لا تخضع) إلا لهذا الحى من قريش.

وكان محمد من بني هاشم ذؤابة قريش العليا وهم إنْ لم يكونوا يملكون المال الوفير مثل بني أمية وبني مخزوم... إلا أنهم في السؤدد والمجد لا يباريهم أحد.

٣ ــ إنَّ محمداً كان صاحب شخصية آسرة يسميها الفرنجة (الشخصية الكارزمية) وهي التي تأسر من يقترب منها وتأخذ بمجامع لبه (عقله) ووجدانه فلا يملك أمامها إلاّ الخضوع والانقياد طواعيةً واختياراً والسير فى ركابها (بالمعنى الحرفي للكلمة) والائتمار بأمرها والتسليم لها، وقد يرجع ذلك إلى صفات خلقية (بكسر الخاء) أو عقلية أو خُلقية (بضم الخاء)، والإجماع منعقد على أن محمداً حازها كلها ــ (ويمتلك القائد الكارزمي استعدادات ومهارات ومواهب يعتقد أتباعه أن مصدرها إلهى)[٧٢].

٤ ــ إنَّ محمداً عرك الحياة حلوها ومرها: رعى الغنم واشتغل بالتجارة وسافر مع القوافل وخالط الناس أو بتعبير القرآن كان يمشي فى الأسواق وكانت مكة مدينة القداسة والتجارة معاً تعج بالحجَّاج والمعتمرين والوافدين والمتاجرين والجواسيس (يعملون لحساب الفرس والروم) ومن أولئك يهود ونصارى وحنفاء وصائبة ومجوس... الخ وقد اختلط بهم وحاورهم وسمع منهم.

ومن جماع ذلك تكونت لديه خبرة نادرة بالحياة والنفوس مكَّنته من قيادة كل أولئك الصحاب بمهارة فائقة يعز نديدها.

٥ ــ ساعدت آيات القرآن على ترسيخ هذه الطاعة في نفوس الصحبة وقرنتها بطاعة الله ووعدت من يطيع الله ورسوله بجنات تجري من تحتها الأنهار فيها الحور العين والثمار الشهية والعسل واللبن... الخ وبالجملة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ومهما تخيلوا من لذائذها فهى (= الجنات) تفوق خيالهم.

وعديدة هى آيات القرآن التي تقرن طاعة الله بطاعة رسوله وتحض عليها وتنذر من يخالفها ولو قيد شبر وتتوعده بعذاب أليم لا طاقة له به وتقرنها بإقامة الصلاة (عمود الدين) وإيتاء الزكاة. وفعلت هذه الآيات المباركات فعل السحر الحلال في نفوس الصحاب وكانت من أهم البواعث على الامتثال والانقياد لمحمد.

٦ ــ وتختلف أسباب الطاعة من فريق إلى آخر: فالقرشيون كان تدفعهم إلى ذلك عاطفة انتمائهم للقبيلة نفسها التي ينتمي إليها محمد وإدراكهم من الوهلة الأولى أنه كان يشيّد دولة قريش التى وضع أساسها جدهم الأعلى قصيّ بن كلاب. وهناك مَنْ دفعته الغنائم الوفيرة التى جاءت بها الغزوات والسرايا إلى الطاعة والانقياد طمعاً فى نوال قَسمة

منها وأقرب مثل على ذلك المؤلفة قلوبهم الذين أجزل لهم محمد العطاء من أموال هوازن في وقعة حنين.

ومنهم من كانت النزعة الدينية مشبوبةً مثل الأنصار ربما جاء ذلك نتيجة لتأثرهم بجوار يهود فوجدوا في طاعة محمد في المنشط والمكره طريقاً مأموناً لدخول الجنة والفوز بلذائذها.

وفريق آخر كان يتمتع بحصافة وسعة أفق، استشف مما كان يجري أن هيمنة دولة قريش على الجزيرة أصبحت حقيقة ملموسة وأن محمداً غدا بحقٍ (سيد النَّاس وديَّان العرب) فأسلموا قيادهم إليه مختارين.

وهذا أوضح ما يكون ظهوراً فيما حدث في العام التاسع الهجري المسمى بـ (عام الوفود).

وخلاصة القول أنه أياً ما كانت الأسباب والدوافع للطاعة فإنها تحققت على أرض الواقع بصورة يعز نظيرها وأنها (= الطاعة) كانت الثمرة الناضجة للخطة البارعة التى رسمها محمد ونفذها بمهارة فائقة.

المصادر والهوامش

١ ــ رواه ذكوان عن أبي سعيد ولم يُسمِ الرجل وكذلك أبو هريرة وابن عباس وأخرجه أبو نعيم وأبو موسى نقلاً عن **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ ص ٥ ــ المجلد الثالث ــ مصدر سابق.

٢ ــ **السيرة النبوية** لـ ابن هشام ص ١٥٤ ــ الجزء الثالث ــ مصدر سابق ــ وهى تكاد تكون مسطورة في جميع كتب السيرة.

٣ ــ لمزيد من التفصيلات في هذه الخصوصية ارجع إلى كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية** الطبعة الأولى ١٩٩٣م دار سينا للنشر بالقاهرة.

٤ ــ **فتح المبدى فى شرح مختصر الزبيدى** كتاب الوضوء ص ٣٤٦/ ٣٤٧ للشرقاوي تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم ــ ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م دار الشعب بمصر.

٥ ــ الآية/ ١٣ من **سورة المدثر**.

٦ ــ الواحدي النيسابوري في كتابه **أسباب النزول** ص ١٠٦ طبعة ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م.

٧ ــ أخرجه الإمام أحمد في **مسنده** وابن منده وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني بأسانيد ورجال أحمد رجال **الصحيح** وكذا البخاري في **التاريخ** والضياء المقدسي في **المختارة**، نقلا عن **جمع الجوامع** لـ السيوطي ــ ص ٣١٣٨ ــ جزء/ ٣ ــ العدد/ ٢٥ ــ نشر مجمع البحوث الإسلامية ــ وأورده ابن عبد البر فى **الاستيعاب** ص ٤٤٦.

٨ ــ أخرجه أحمد في **المسند** والبخاري في **التاريخ الكبير** وذكره الهيثمي في **مجمع الزوائد**.

٩ ــ أخرجه ابن ماجه وابن حيان في **صحيحه**، والبغوى وهو في **المصابيح** نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** لـ الكاندهلوي ــ جـ/ ٢ ص ٢٣٨ ــ مصدر سابق.

١٠ ــ أخرجه الدولابى في **الكُنى** نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** ص ٢٢٤ جـ/ ٢ سابق.

١١ ــ **المُغنى** لـ ابن قدامة ص ٦٢ من المجلد الثاني ــ مصدر سابق.

١٢ ــ رواه مسلم في **صحيحه** عن **المُغنى** لـ ابن قدامة ص ٢٩٩ الجزء الأول ــ مصدر سابق.

١٣ ــ كتاب **المغازي** لـ الواقدي ــ الجزء الأول ــ ص ٣٣٤.

١٤ ــ ابن عبد البر في **الدرر في اختصار المغازي والسير** تحقيق د/ مصطفى أديب البغا ــ ص ١٧٢ ــ الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م ــ مؤسسة علوم القرآن ــ دمشق/ بيروت.

١٥ ــ أورده مسلم في **الصحيح**، نقلاً عن **جمع الجوامع** لـ السيوطي ــ الجزء الأول ــ ص ١١١٥ ــ مصدر سابق.

١٦ ــ رواه الطبراني في **الأوسط والكبير** وأيضاً هو في **تنزيه الشريعة وفى ميزان الاعتدال** قاله الهيثمي نقلاً عن **جمع الجوامع** للسيوطي ص ١٩٣٦ ــ مصدر سابق.

١٧ ــ ذكره البيهقي عن الواقدي نقلاً عن **حياة الصحابة** ــ ص ١٩٢ ــ ج/ ٢ سابق.

١٨ ــ أخرجه الحاكم في **المستدرك**، وورد أيضاً في **كنز العمال** ــ الصفحة نفسها ــ والجزء نفسه من المصدر نفسه.

١٩ ــ ابن عبد البر **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** المجلد الثاني ــ ص ٨٤٢ ــ مصدر سابق.

٢٠ ــ **الاستيعاب** ابن عبد البر ــ المجلد الثاني ــ ص ٦٢٢.

٢١ ــ ورد ذلك في ص ١٩٣ من الجزء الثاني من كتاب **حياة الصحابة** لـ الكاندهلوي ــ مصدر سابق.

٢٢ ــ كتاب **المغازي** لـ الواقدي ــ المجلد الأول ــ ص ٩٢ ــ تحقيق مارسدن جونز ــ مصدر سابق.

٢٣ ــ ابن عبد البر **الاستيعاب** المجلد الأول ــ ص ١٠٤ ــ مصدر سابق، والخبر بتمامه في **جمهرة أنساب العرب** لابن حزم الأندلسيــ تحقيق عبد السلام محمد هارون ــ ص ٤٢٩ ــ الطبعة الخامسة، دار المعارف.

٢٤ ــ ابن هشام **السيرة النبوية** ص ٢٤١ ج/ ٣ ــ مصدر سابق.

٢٥ ــ الواقدي **المغازي** الجزء الأول ــ ص ٣٧٤ ــ مصدر سابق.

٢٥ ــ مكرر **جمهرة أنساب العرب** لأبى محمد بن عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ٣٨٤/ ٥٦ ع هـ ص ١٢٠ تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون الطبعة الخامسة ١٩٨٢ ــ دار المعارف.

٢٦ ــ ابن الأثير الجزري في **أسد الغابة** المجلد الثاني ص ٧٥ ــ مصدر سابق.

٢٧ ــ ابن هشام في **السيرة النبوية** ص ٢٦٢ الجزء الثاني ــ مصدر سابق.

٢٨ ــ **السيرة النبوية** لـ ابن هشام ــ الجزء الثالث ــ ص ٥٤.

٢٩ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ــ لـ ابن عبد البر ــ المجلد الرابع ص ١٤٧٤ ــ مصدر سابق.

٣٠ ــ أخرجه الحاكم في **المستدرك** والبيهقي في **السنن** = عن **حياة الصحابة** ــ لـ الكاندهلوي ــ ص ١٩٣ من الجزء الثاني ــ مصدر سابق.

٣١ ــ قتله حمزة بن عبد المطلب عم محمد ووصفه القرآن في **سورة عبس** (أما من استغنى).

٣٢ ــ قتله على ابن أبي طالب.

٣٣ ــ كتاب **المغازي** لـ محمد بن عمر الواقدي ــ ت ٢٠٧هـ ــ الجزء الأول ص ١١٢ تحقيق الدكتور/ مارسدن جونز ــ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ــ لبنان.

٣٤ ــ **الروض الأنف** لـ السهيلي ــ الجزء/ ٢ ص ٨٠ على هامش **السيرة النبوية** لابن هشام ــ مصدر سابق **وأبو كبشة:** كنية زوج حليمة السعدية التى أرضعت محمداً وكفار قريش ينسبونه إليه استهزاءً به وضناً عليه بنسبه القرشي الرفيع..

٣٥ ــ كتاب **المغازي** لـ الواقدي ــ ص ٢٤٥ ــ المجلد الأول ــ مصدر سابق.

٣٦ ــ كتاب **الواقدي** جـ/ ١ ص ٢٤٥ ــ مصدر سابق.

٣٧ ــ **المصدر نفسه.**

٣٨ ــ **الروض الأنف** ــ لـ السهيلي ــ المجلد الثالث ص ١٦٥ ــ على هامش **السيرة النبوية** لابن هشام ــ مصدر سابق.

٣٩ ــ قال الهيثمي رواه البزار ورجاله ثقات.

٤٠ ــ أخرجه البزار نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** جـ ٢ ل الكاندهلوي.

٤١ ــ **الإصابة** الجزء الأول ص ٣٦١ نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** نفس الصفحة ونفس الجزء ــ مصدر سابق.

٤٢ ــ **عيون الأثر في المغازي والشمائل والسّير** لـ ابن سيد الناس ــ ص ٩٣ ــ الجزء الثاني ــ د. ت، دار المعرفة للطباعة/ بيروت.

٤٣ ــ الصفحة نفسها.

٤٤ ــ الصفحة نفسها.

٤٥ ــ ابن هشام **السيرة النبوية** الجزء الرابع ص ٨ ــ مصدر سابق.

٤٦ ــ رواه مسلم في **الصحيح** والقصة بكاملها في **أسُد الغابة** لـ ابن الأثير الجزري ــ فى **كتاب النساء** ــ في ترجمة فاطمة بنت قيس ــ مصدر سابق وكذلك فى **الاستيعاب** لأبى عمر يوسف بن عبد البر ــ مصدر سابق وفى **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير ــ الجزء الأول ص ٤٢٢ طبعة دار الشعب بمصر.

٤٧ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لـ ابن عبد البر ص ٧٥ و٧٦ المجلد الأول ــ مصدر سابق.

٤٨ ــ **أسباب النزول** لـ السيوطي في سورة الأحزاب ــ الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ ــ كتاب التحرير رقم/ ٢ طبعة دار الشعب بمصر.

٤٩ ــ الآية ٣٦ من **سورة الأحزاب.**

٥٠ ــ رواه مسلم في **صحيحه** وكذلك ابن الأثير الجزري في **أسد الغابة** ص ٣٠٨ من المجلد الثاني في ترجمته لـ سالم مولى أبي حذيفة ــ مصدر سابق.

٥١ ــ **المصدر السابق.**

٥٢ ــ **المصدر السابق.**

٥٣ ــ ابن حجر العسقلاني في **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ــ الجزء الحادى عشر.

٥٤ ــ ابن تيمية **الفتاوي الكبرى** الجزء الرابع ص ٤٣٠ ــ الطبعة الثالثة ١٩٩١ الناشر دار الغد العربي.

٥٥ ــ **الاستيعاب في معرفة الصحاب** لـ ابن عبد البر ــ ص ٤٧٢ مجلد/ ١ ــ مصدر سابق.

٥٦ ــ رواه أحمد فى **المسند** والبخاري في **الصحيح** ومسلم في **الصحيح** نقلاً عن جمع **الجوامع** للسيوطي ص ٣٠٩٩ عدد/ ٢٥ جـ ٤.

٥٧ ــ **المغنى** لابن قدامة المجلد الرابع ص ٣٤ ــ الطبعة الأولى ربيع أول ١٤١٥هـ/ أغسطس ١٩٩٥م ــ دار الغد العربي بالقاهرة.

٥٨ ــ ٧٩ من **سورة النساء.**

٥٩ ــ أسد **الغابة في معرفة الصحابة** لابن الأثير الجزري ــ المجلد الثالث ــ ص ٣٤١.

٦٠ ــ رواه أحمد في **المسند** عن **المغنى** لـ ابن قدامة ــ الجزء الرابع ص ٧٥ ــ مصدر سابق.

٦١ ــ أخرجه أبو داود في **باب النهي عن الغناء** وأخرجه ابن ماجه في سننه بطريق آخر

واختلاف في ألفاظه نقلاً عن كتاب **السماع** لـ ابن القيسراني ٤٤٨/ ٥٠٧هـ ــ تحقيق أبي الوفا المراغى ــ ص ٥٩ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية/ مصر.

٦٢ ــ متفق عليه عن **المُغنى** ــ لـ ابن قدامة ص ١٠٧ ــ ج ٤ ــ مصدر سابق.

٦٣ ــ **مسند البيع** ص ٢ ــ جزء ٤ ــ مصدر سابق **وفتح المبتدى في شرح مختصر الزبيدي** تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم ص ٣٤٢ طبعة ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م دار الشعب.

٦٤ ــ **المُغنى** لـ ابن قدامة ــ ص ٨٣ ــ من الجزء الرابع ــ مصدر سابق.

٦٥ ــ نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** لـ الكاندهلوي ص ٢٣٦ ــ الجزء الثاني.

٦٦ ــ أخرجه البزار والقاضى عياض ــ نقلاً عن كتاب **حجية السنة** تأليف د/ عبد الغني عبد الخالق ٣٤٩ من الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٩م ــ من إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ــ نشر دار القرآن الكريم ــ واشنطن/ وقال الهيثمي عن هذا الحديث رجاله موثقون ــ كما ورد في «الترغيب»/ من كتاب حياة **الصحابة** ج/ ٢ ص ٢٣٦.

٦٧ ــ رواه أحمد ــ نفس الصفحة من ذات المرجع، ورواه أحمد محتجٌ بهم فى **الصحيح** وكذلك ورد الحديث في ص ٢٣٦ من الجزء الثاني من كتاب **حياة الصحابة** لـ الكاندهلوي ــ مرجع سابق.

٦٨ ــ أخرجه ابن خزيمة في **صحيحه** والبيهقي في **السنن** وورد في **الترغيب** ــ من كتاب **حياة الصحابة** نفس المرجع ونفس الصفحة.

٦٩ ــ أخرجه البيهقي ــ نقلاً عن كتاب **حجية السنة** ص ٣٤٩ ــ مصدر سابق.

٧٠ ــ أخرجه أبو نعيم في **الحلية** نقلاً عن **حياة الصحابة** ج/ ٢ ــ ص ٢٣٦ ــ مصدر سابق.

٧١ ــ أخرجه الحاكم في **المستدرك** وأبو نعيم في **الحلية** ــ من **حياة الصحابة** نفس الجزء ونفس الصفحة.

٧٢ ــ د/ زيدان عبد الباقي **علم الاجتماع الديني** ص ٩٧. د. ت ــ مكتبة غريب بمصر.